ساندور ماراي

ولد في كوشو بسلوفاكيا عام ١٩٠٠ وتوفي في سان دييجو بكاليفورنيا عام ١٩٨٩. اشتهر بكونه أحد الروائيين الرواد في المجر في ثلاثينات القرن العشرين. عاصر الحرب وكان معاد صريح للفاشية، لكن اضطهاد النظام الشيوعي حمله على مغادرة البلاد عام ١٩٤٨، إلى إيطاليا ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية. نشرت روايته جمرات Embers بالإنجليزية للمرة الأولى عام ٢٠٠١.

كازانوڤا في بولزانو

ساندور ماراي

رواية

ebooks4arabs.blogspot.com

ترجمة
إيمان حرزالله

كازانوفا في بولزانو

رقم الإيداع: 2013/2639
الترقيم الدولي: 978-9953-582-63-4

طبعة دار التنوير الأولى: 2013

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الناشر: © دار التنوير
بيروت - القاهرة - تونس

This is an authorized translation of:
Vendegjatek Bolzanoban
© 1940 Sandor Marai

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان إبراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس 009611843340
مصر: القاهرة - وسط البلد - 8 شارع قصر النيل - الدور الأول - شقة 10
هاتف: 0020227738931 - 00201007332225 فاكس: 0020227738932

البريد الإليكتروني: info@dar-altanweer.com
الموقع الإليكتروني: www.dar-altanweer.com

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing of the publisher

ساندور ماراي

كازانوفا في بولزانو

ترجمة
إيمان حرز الله

ebooks4arabs.blogspot.com

التنوير

ملحوظة من المؤلف

قد يتعرف القارئ في ملامح وسلوك بطلي على شخصية الرحالة الشهير سيء السمعة، المدعو جياكومو كازانوفا الذي عاش في القرن الثامن عشر.

أن تتعرف، لدى البعض، يعني أن تتهم، ومن الصعوبة بمكان أن نتصدى لدفاع بنفس القدر، لأن بطلي يحمل بصفة عامة شبهاً بائساً لهذا الرحالة المحتال اليائس والجوال التعس، الذي فرّ عند منتصف ليلة 31 من أكتوبر 1756 من زنازين سجن القصر الجمهوري القابعة أسفل السقف الرصاص المدعوة الليدز، غطس تحت مياه البحيرة بسلم من الحبال، وبمساعدة راهب مشلوح[1] يدعى بالبي، فرّ خارج نطاق الجمهورية[2] متجهاً إلى ميونخ.

عذري هنا أن ما يثير اهتمامي في حياة بطلنا ليس مغامراته الرومانسية بقدر ما هو شخصه الرومانسي، لذلك لم أهتم

(1) نُزعت عنه رتبته الكهنوتية.

(2) جمهورية البندقية.

بمذكراته[1] المشينة سوى بتفصيلة واحدة فيما يخص وقت ووقائع هروبه، وما عدا هذا فكل ما سيمر به القارئ هنا ليس سوى اختلاق ونسج خيال.

س.م

(1) الإشارة لمذكرات كازانوفا، ترجمها للعربية حلمي مراد، مكتبة مصر، سلسلة كنوز كتب التراث، 1994.

كازانوفا في بولزانو

سيد محترم من البندقية

كان في ميستر حين توقف عن التفكير، أوشك الراهب المتهتك بالبي أن يجعل رجال الشرطة يشمّون رائحتهما، ظل يبحث عنه عبثاً حين كانت عربة البريد على وشك الانطلاق ولم يجده سوى بعد بحث طويل، في مقهى، جالساً يحتسي مشروب شوكولاته ويغازل النادلة بسرور. نفد ما لديهما من مال حين وصلا تريفيسو، فتسللا من بوابات كنيسة سانت توماس المؤدية للحقول، ثم زحفا بمحاذاة خلفيات الحدائق وحواف الغابة حتى وصلا أطراف فالديبيادين عند الفجر، عندئذ أخرج جياكومو خنجره وغرز نصله تحت منخار رفيقه المقرف وطلب منه أن يقابله ثانيةً في بولزانو، ثم افترقا. تسلل الراهب واجماً إلى بستان زيتون وهو يزيح جذوع الأشجار العارية. قامة مزرية وقذرة تبتعد حتى تصير نقطة نائية، ينظر إلى ما يخلفه وراءه بنظرة كئيبة غريبة ككلب أجرب طرده سيده.

ما إن اختفى الراهب أخيراً، حتى انطلق جياكومو إلى وسط البلدة، وبغريزة عمياء يقينية، لجأ للمبيت بمنزل قائد القوة العسكرية. استقبلته زوجة القائد، امرأة دمثة الخلق، وأعدّت له عشاء، ونظفت

له جروحه ـ كان دم متجلط قد التصق بركبتيه وكاحليه بسبب حكّهما بالرصاص وهو يقفز من أعلى السقف ـ أخبرته زوجة القائد قبل أن يسقط في النوم أن القائد خارج المنزل في مهمة بحث عن سجين هارب. تسلل خارج المنزل في اللحظات الأولى من الفجر، وقطع بضعة أميال أخرى. بات ليلة في بيرجين، وبعد ذلك بثلاثة أيام وصل إلى بولزانو ـ في عربة خاصة هذه المرة ـ إذ كان قد انتزع ستة قطع ذهبية غصباً من أحد معارفه.

كان بالبي هناك في انتظاره. نزلا بفندق الستاج. لم يكن لديه لا أمتعة ولا معطف، وكان شكله مزرياً. لم يتبق من بذلته الحريرية زاهية الألوان سوى أسمال، وكانت رياح نوفمبر القاسية تعصف بشوارع بولزانو الضيقة. تفحّص صاحب الفندق ضيفيه الرثّين وتمتم بعصبية:

ـ «أفضل الحجرات؟»

أجابه جياكومو بهدوء وحسم:

ـ «الأفضل. ونبِّه على العاملين في المطبخ عندك، أنتم في هذه الأنحاء تفضّلون طهو كل شيء بدهن زنخ بدلاً من الزيت، وأنا لم أحظ بوجبة حقيقية منذ مغادرتي الجمهورية! أريد الليلة ديك ودجاج، ليس دجاجة واحدة، بل ثلاث، وبالبندق، واجلب بعضًا من نبيذ قبرص إلى أن يجهز الطعام. هل تحدّق في ملابسي؟ هل تستغرب وصولنا هكذا خاليي الوفاض بلا أمتعة؟ ألا تصلكم الأخبار هنا؟ ألا تقرأ اللايدين جازيت؟ أيها المغفل!» صاح بصوت أجش، فتحشرجت قصبته الهوائية بسعال مؤلم إثر أصابته بالبرد

خلال رحلته. «ألم تسمع بأن سيداً محترماً من البندقية قد تعرّض وخدمه للسطو على الحدود؟ ألم يظهر رجال الشرطة بعد؟»

ـ «لا سيدي»، أجاب صاحب الفندق مذعوراً، فكتم بالبي ضحكته في طرف كمّه.

حظيا في نهاية الأمر بأفضل الحجرات: قاعة صغيرة بنافذتين طويلتين كبيرتين تطلان على الساحة الرئيسية، أثاث بأقدام منحنية، زجاج بندقي أعلى المدفأة، وناموسية فرنسية في غرفة النوم. كانت حجرة بالبي في نهاية الرواق، أسفل سلم ضيق شديد الانحدار يفضي لمبيت الخدم. وكانت له تعويضاً أسعده كثيراً.

ـ «سكرتيري»، قال جياكومو لصاحب الفندق وهو يشير إلى بالبي».

ـ «إن الشرطة صارمة للغاية»، قال صاحب الفندق بنبرة اعتذار، «سيكونون هنا في أية لحظة. إنهم يسجلون كل الضيوف».

أجابه جياكومو بلا مبالاة:

ـ «قل لهم إن ضيفك رجل نبيل. سيد محترم...».

ـ «حقاً!» أجاب صاحب الفندق بحماسة، وانحنى بشدة الآن، ذليلاً وفضولياً، وقبعته المزركشة في يده. وكرر مؤكداً «سيد محترم من البندقية».

نطق الكلمات كما لو كانت لقباً أو مكانة رفيعة. حتى بالبي انتصبت أذناه لوقعها. دوّن اسمه في سجل الزوار بخط متقن

وخبير. كان وجه صاحب الفندق أحمر من الحماسة: ظل يمسح صدغيه بأصبعه الثخين عاجزاً عن تقرير ماذا يفعل. هل يهرع إلى قسم الشرطة أم يركع على ركبتيه ويقبَل يد الرجل. وإذ لم يقرر شيئاً وقف ببساطة صامتاً.

أشعل في النهاية فانوساً واصطحب ضيفيه إلى الطابق الأعلى. كان الخدم منهمكين في تجهيز المكان: جلبوا شمعدانات كبيرة مطلية بالذهب، وماءً ساخناً في آنية فضية، ومناشف كتان صناعة ليمبورج. خلع الضيف ملابسه ببطء ملكي، كملك في حمّامه، ناول ملابسه القذرة قطعة قطعة لصاحب الفندق وخدمه الذين اضطروا لقص سرواله الحريري المضرج بالدماء من كلا الجانبين لالتصاقه بجسده، غمر قدميه في الآنية الفضية المليئة بالماء وهو يميل بجلسته إلى الوراء في مقعد بذراعين. متلبد الشعر ومهيب، يكاد يفقد وعيه إجهاداً. غلبه النوم في لحظات قليلة وتمتم وصرخ، جاء بالبي وصاحب النزل والخدم وحاموا حوله بأفواه فاغرة، أعدوا الفراش في غرفة النوم، وأسدلوا حوله الستائر، وأطفأوا الشموع كلها تقريباً. اضطروا لطرق الباب عدة مرات ليُدخلوا العشاء. سرعان ما سقط في النوم ثانيةً، ما إن فرغ من تناول العشاء، وظل نائماً حتى ظهر اليوم التالي بوجه منبسط ومرتاح ولا مبالٍ كوجه جثة عمرها يوم واحد.

- «سيد محترم»، قالت الفتيات وهن يضحكن ويهمسن ويغنين ويقمن بأعمالهن في المطبخ والقبو. يغسلن أدوات المائدة، يمسحن الأطباق، يقطعن الخشب للمدفأة، يخدمن في البار،

يتحدثن تارة وأصابعهن تواري أفواههن، ويضحكن تارة أخرى، في النهاية يهدأن ويُذعن الخبر بفضول ثم يضحكن: سيد محترم، نعم، سيد محترم من البندقية.

ظهر في المساء رجلان من شرطة التحرّي السرية اجتذبهما اسمه، ذلك الاسم المشين الذي لا سبيل لمقاومته، خَطر وفاتن، اسم يفوح بروائح المغامرات والهروب، اسم يجذب شرطة التحرّي السرية في أي بلدة يحل فيها. أرادا أن يعرفا كل شيء عنه:

ـ أهو نائم؟.. أليس لديه متاع؟

أجابهما صاحب الفندق:

ـ «خنجر، وصل وليس معه سوى خنجر».

ـ «خنجر»، كررا وهما يومئان برأسيهما بحماسة ومغالاة. سأل أحدهما:»خنجر من أي نوع؟»

ـ «خنجر بندقي» أجاب صاحب الفندق بأسى.

ـ ألحّا في السؤال: «لا شيء آخر؟»

ـ فقال صاحب الفندق: «لا شيء آخر، ليس معه سوى خنجر».

أدهشت تلك المعلومة التحرّيين. لم يكن ليدهشهما لو كان وصل حاملاً غنيمة: أحجار نفيسة، مُسكرات، قلادات، أو خواتم خلعها من أصابع نساء بريئات قابلهن في أسفاره. كانت سمعته تسبقه كرسول يُعلن عن اسمه. كان الأسقف قد بعث بالفعل صباح هذا اليوم برسالة لمأمور قسم الشرطة يطلب منه طرد الضيف

صاحب السمعة المشينة بالقوة، وظلت حانات تيرول ولومباردي منذ الصباح، وحتى في المساء بعد العشاء، تعجّ بالحكايات عن هروبه.

قال التحرّيان وهما يهمسان في أذن صاحب الفندق ويكوّران أيديهما:

- «راقِبه، راقبه بحرص وسجّل كل كلمة يتفوه بها. يجب أن تأخذ حذرك منه جيداً. إن وصلته خطابات يجب أن تعرف مرسليها، وإن أرسلها هو يجب أن تعرف إلى من يرسلها. راقب كل حركة من حركاته! يبدو...أن لديه من يحميه. ليس بإمكان حتى قداسة الأسقف أن يلمسه».

- «حتى الآن»، أضاف صاحب الفندق بحكمة.

- «حتى الآن»، ردد التحريان السرّيان بوجوم.

غادرا على أطراف أصابعهما بوجهين كئيبين تثقلهما الهموم. جلس صاحب الفندق في الحانة وتنهّد. لم يكن يحب الضيوف سيئي السمعة ممن يثيرون شكوك الأسقف أو الشرطة. فكر في الضيف نفسه، في النيران والجذوات المتقدة التي تتراقص في عينيه الناعستين، فانتابه الخوف. تذكر الخنجر، الخنجر البندقي، متاع ضيفه الأوحد، فزاد خوفه. فكّر في الأخبار التي تلاحق خطواته فبدأ يسبّ في سرّه ثم زمجر صارخاً بغضب:

- «تيريزا!»

دخلت فتاة في ملابس النوم، في السادسة عشرة من عمرها،

تحمل بإحدى يديها شمعة مشتعلة وبالأخرى تشد طرفي قميص نومها عند صدرها.

همس وهو يدعوها للجلوس على ركبتيه:

ـ «اصغي إلي يا تيريزا، أنا لا أثق في أحد غيرك، لدينا ضيوف خطرون، هذا السيد المحترم..».

ـ «من البندقية؟» سألت الفتاة بنبرة غنائية لتلميذة.

ـ «البندقية، نعم، البندقية»، تمتم بعصبية. «من السجن رأساً. حيث الفئران والمشنقة. اِسمعي تيريزا، سجلي كل كلمة من كلامه، اجعلي عينيكِ وأذنيكِ على ثقب مفتاح بابه طوال الوقت. بالطبع أنا أحبك كابنتي، لقد رعيتك كما لو كنتِ ابنتي، لكن إن دعاكِ لحجرته لا ترددي. ادخلي. ستأخذين له الفطور. احترسي لنفسك وراقبيه».

ـ «سأفعل»، قالت الفتاة ثم نهضت لتذهب إلى حجرتها، برِقّة كظِل. توقفت عند الباب وتذمرت بصوت طفولي رفيع:

ـ «أنا خائفة».

ـ «أنا أيضاً»، قال صاحب الفندق ثم أضاف: «اذهبي للنوم الآن، لكن احضري لي قبل ذلكَ كأس نبيذ أحمر».

لكل هذا وذاك، لم ينم أحد منهم جميعاً جيداً في تلك الليلة الأولى.

أخبار

ناموا مضطربين، يشخرون ويلهثون وينفخون، يعلمون أن شيئاً ما يحدث لهم، ينتابهم إحساس بأن أحدهم يسير في أرجاء الفندق، يناديهم، وأن عليهم تلبية ندائه بطريقة لم يلبوا بها نداءً من قبل. كان ما يطلبه الضيف وقحاً وسفيهاً وعدوانياً، وقبل كل شيء مخيفاً وحزيناً. لكنهم عند استيقاظهم في الصباح التالي، كانوا قد نسوه تماماً.

انتشرت الأخبار سريعاً وهم نائمون: لقد وصل، لقد هرب من الليدز، استطاع أن يجذّف هارباً من موطنه في وضح النهار، حكّ أنفه بإبهامه لفخامة لوردات المحكمة التفتيشية المرعبين، احتال على لورنس قائد القوة العسكرية، وأطلق سراح القس المشلوح، استطاع بطريقة ما أن يسير بخطوات متمهّلة ويخرج من حصن الدوقات، شوهد في ميستر وهو يساوم سائق عربة البريد، وهو يرشف فيرمونت بمقهي بتريفيزو، وأقسم أحد الفلاحين أنه شاهده على الحدود يلقي تعويذة على أبقاره.

انتشرت الأخبار في قصور البندقية وحانات الضواحي حيث كان

الكاردينالات، وفخامة أعضاء مجلس الشيوخ، ورجال المشانق، ورجال شرطة التحرّيات السرّية، والجواسيس، ومحتالو القمار، والعاشقون، والأزواج، وفتيات الأسواق، والنساء في سرائرهن الدافئة، لدى سماعها، يقهقون: «هوو هوو!»ـ أو يضحكون بملء أفواههم برضا بالغ «هااا هاا!»، أو يكتمون ضحكهم في وسائدهم أو مناديلهم «تيي هيي!». كانوا جميعاً سعداء لهروبه من السجن. في الصباح التالي وصلت الأخبار للبابا الذي تذكره وتذكر أنه رشحه من قبل لنيل مكافأة بابوية صغيرة. وهو الآخر لم يستطع منع نفسه من الضحك. انتشرت الأخبار في البندقية: استند الغناديليون على مجاديفهم الطويلة بسعادة وظلوا يدققون في كافة تفاصيل هروبه. كانوا سعداء لأنه من البندقية، لأنه أكثر مكراً من السلطات، ولأن ثمة من هو أقوى من الطاغية والأحجار والأغلال، أقوى حتى من الليدز. كانوا يتحدثون بهدوء ويبصقون في الماء ويفركون أيديهم برضا. كانت الأخبار تثلج صدر من يسمعها فيسأل: «وماذا كانت جريمته مع ذلك؟»، «كان يقامر، وبحق السماء، لعله لم يكن شريفاً تماماً، وبالطبع كانت له موائده في حانات وضيعة، وكان يلعب مع المقامرين المحترفين وهو يرتدي قناعاً! لكن تلك هي البندقية! من ذا الذي لا يفعل هذا؟... ونعم، تعامل بخشونة مع القليلين ممن خانوه، وأغوى نساء زرنه في شقته المستأجرة بـموزانو، بعيداً قليلاً عن المدينة. ولكن بأي طريقة أخرى تقضي شبابك في البندقية؟ وبالطبع كان عربيداً، ولسانه فالتاً، ويتحدث كثيراً. لكن هل من أحد يسكت في البندقية؟..». هكذا كانوا يتمتمون، ومن حين لآخر يضحكون، لأن الأخبار كانت تحمل شيئاً ما طيباً، شيء ما يُطيب

الخاطر ويشفي الصدر. إذ كانوا جميعاً يدركون أن لمحاكم التفتيش ناباً مغروساً في قطعة ما من لحمهم هم أنفسهم، وأن جزءاً منهم مسجون في الليدز بالفعل، وها قد أثبت أحدهم الآن أن باستطاعة الرجل أن يهزم الطاغية والسقف الرصاص والشرطة. أن يكون أقوى من القاضي ومن مبعوث المشنقة ومن نذير الشؤم. انتشرت الأخبار في قسم الشرطة: كان الضباط يخبطون الملفات على أسطح المكاتب، يذرعون المكانِ وهم يصيحون. استمع قضاة التحقيق للمتهمين بأذن متحرّقة وأرسلوهم بغضب إلى السجن أو إلى المنفى أو العمل فيّ القراقير أو إلى المقصلة. تحدثوا عنه في الكنائس، ووعظوا ضده بعد السوق لأنه يجمع الخطايا السبع في جسد واحد لعين سيُسلق في مرجل خاص به، حسبما قال القس، ثم يُشوى في نار أشعلت له خصيصاً في الجحيم، إلى الأبد. ذُكر اسمه أيضاً في سقيفة الاعتراف، ذكرته نساء برؤوس مطأطأة ممن يخبطن على صدورهن بأيديهن وهن يتقبلن وصفة التوبة. كان الجميع سعداء لأن شيئاً ما جيداً قد حدث في البندقية، وفي كل قرى الجمهورية وبلداتها التي مرّ بها.

ناموا، وابتسموا وهم يحلمون. وحيثما ذهب كانوا يزيدون حذرهم في إغلاق النوافذ والأبواب ليلاً. وخلف الأبواب المغلقة، كان الرجال يقضون أوقاتاً أطول في الحديث مع زوجاتهم. بدا الأمر كأن المشاعر التي باتت رماداً وجمرات أصبحت تبعث دخاناً وتنبجس منها ألسنة لهب. لم يلقَ بتعاويذ على الأبقار، لكن رعاة الأبقار أقسموا أن العجول التي ولدت هذا العام كانت أجمل وأوفر عدداً. النسوة كن يستيقظن، يجلبن الماء من البئر في دلاء خشبية،

يشعلن النار في مطابخهن، يسخّنّ طاسات اللبن، يضعن الفاكهة في صواني لامعة، يُرضعن أطفالهن، يُطعمن الرجال، يكنسن غرف النوم، يُغيّرن ملاءات السرير، ويبتسمن وهن يقمن بكل هذا. ابتسامة ظلت وقتاً لا بأس به قبل أن تختفي من البندقية وتيرول ولومباردي. انتشرت الابتسامة كعدوى متفشية لا ضرر منها، حتى عبرت الحدود، فسمعوا بها في ميونيخ وانتظروها وهم يبتسمون استعداداً لها. وفي باريس، حيث وصلت حكاية هروبه لمسامع الملك وهو يصطاد في متنزّه الغزلان، وابتسم هو الآخر. شوهدت الابتسامة في بارما أيضاً، وتروين، وفيينا، وموسكو. كانوا في كل مكان يبتسمون، بينما كان رجال الشرطة وقضاة التحقيق والقوات العسكرية والجواسيس ـ كل من يتعلق عمله بإبقاء الناس في قبضة الخوف من السلطات ـ يواصلون عملهم بريبة وكدر. لأنه لا شيء أخطر من رجل لا يخضع للطاغية.

كانوا يعلمون إنه لا يملك سوى خنجر، لكنهم ضاعفوا قوات حرس الحدود لعدة أسابيع. ويعلمون أنه ليس له حلفاء ولا يبالي بالسياسة، مع ذلك وضع رئيس محكمة التفتيش استراتيجية حملة شاملة لإعادة القبض عليه والزج به في السجن مجدداً، حياً أو ميتاً، بالذهب أو بالعنف، ومهما تكلّف هذا. شرحوا تفاصيل هروبه للدوج (القاضي الأول في جمهوريتي البندقية وجنوا)، هذا المخلوق المكتنز ذو العينين الثاقبتين الذي خبط المائدة بأصابعه الممهورة بالخواتم وأقسم أن يرسل رجال القوة العسكرية للعمل بالقراقير. قبض أعضاء مجلس الشيوخ على طيات معاطفهم الحريرية وأبقوا أياديهم الصفراء الواهنة في حجورهم وهم

جالسون صامتون على مقاعدهم ذات الأذرع في القاعة الكبرى، يتشمّمون الهواء بأنوف أصفرها السكّري، ووجوه خالية من التعبير، يلقون بنظرات سريعة من حين لآخر على لوحات السقف أو نحو الروافد الرئيسية للمجلس عبر جفون ناعسة ويصوّتون موافقة على إجراءات وحشية، ويرفعون أكتافهم وهم صامتون.

لكن الابتسامة انتشرت كإنفلونزا تصيب الجميع بلا تمييز: زوجة الخبّاز وشقيقة الحدّاد وابنة الدوج، كلهن التقطنها. كان الناس في حجراتهم الموصدة بعناية يربّتون على بطونهم بسعادة وينفجرون بالضحك. كان ثمة عزاءٌ مذهلٌ في الأخبار عن شخص استطاع أن ينفذ من جدران بسُمك ياردة، ويتجاوز حشد من الحراس الواقفين برماحهم وحرابهم، ويكسر أغلالاً بسُمك ذراع طفل.

انطلقوا جميعاً بعد ذلك لأماكن عملهم، وقفوا في السوق أو في الحانة، رشفوا القليل من نبيذ فيرونيز، وزن المرابون تراب الذهب بموازينهم الدقيقة. وأعد الصيادلة المليّنات وجرعات الحب والسموم المميتة التي يمكن طحنها إلى أن تصير مسحوقاً أبيض يمكن حفظه في خاتم إصبع. قامت نسوة بكروش وفيرة بتزيين أكشاك بيع السمك والفواكه واللحوم بالأعشاب العطرية، ورتب تجار الملابس الجاهزة الجوارب التي وصلت حديثاً من ليون، والبلوزات الكروشيه صنع براج، على صناديق من جلد العجل وعطّروها بخليط من أوراق الورود المجففة. ومع كل هذا العمل والثرثرة والتجارة والإدارة، كان كلّ منهم يجد وقتاً ليرفع يده ويواري بها فمه ويحظى بقهقهة جيدة.

شعرت النساء أن الهروب وكل ما يتبعه في صالحهن إلى حد ما. لم يكن بمقدورهن توضيح هذا بدقة، لكن، لكونهن نساء بندقيات، فلم يكن الوضوح من طبعهن يوماً حين يتعلق الأمر بالمشاعر، وقد اكتفين بالمنطق الغريزي نصف المهموس للقلب والدم والعاطفة. كن سعيدات لهروبه كأن قوة ما، كمُنت منذ أزمنة طويلة في الأساطير والأمثال الشعبية والكتب والسير والأحلام والرغبات، قد وجدت طريقها إلى العالم من أوسع الأبواب. أو كأن الحقيقة الخفيّة، الماجنة قليلاً، والمخيفة مع ذلك، عن الحياة الأخرى للرجال والنساء، قد تصدرت المشهد بلا أقنعة ولا باروكات مرشوشة بالبودرة، بل عارية كسجين فرّ من حجرة التعذيب الرهيبة. كن يرفعن أيديهن أو مراوحهن ليوارين أفواههن وأعينهن، ورؤوسهن مائلة قليلاً لأحد الجانبين، ودون أن يتفوهن بشيء، تقول أعينهن السديمية المغطاة وهي تسترق النظر للهارب: «نعم»، وثانيةً، «نعم». لهذا كن يبتسمن، ولعدة أيام أخرى، بدا لهن أن العالم الذي يعشن فيه يموج بالحنان. كن في المساء يقفن في نوافذهن وشرفاتهن، البحيرة أسفلهن، وأغطية رؤوسهن من النسيج الناعم المخرّم مثبتة بشعورهن بالأمشاط، وأوشحتهن الحريرية تنسدل على أكتافهن، يحدقن في المياه الزيتية القذرة بالأسفل، تحمل القوارب بلامبالاة، ويستجبن بنظرة خاطفة لم يكن باستطاعتهن الرد بها قبل يوم واحد، ويلقين بمناديل تتلقفها بالأسفل بعيداً، في الضوء المنعكس على صفحة المياه، أيادٍ سمراء رشيقة، فيرفعن زهرة لشفاههن ويبتسمن، ثم يوصدن النوافذ، وينطفئ ضوء الحجرة. مع ذلك يبقى شيء ما في قلوبهم وحركاتهم، شيء ما يضيئ في أعين النساء ونظرات

الرجال. كأن أحدهم بعث بإشارة سرية تخبرهم أن الحياة ببساطة ليست قواعد ومحظورات وقيود، بل عواطف أقل عقلانية وأقل رشداً وأكثر حرية مما ظلوا يعتقدونه حتى هذه اللحظة. وفي لحظة، كانوا قد فهموا الإشارة وابتسم أحدهم للآخر.

لكن هذا التواطؤ لم يستمر طويلاً، فقد تكفّلت كتب القانون بقواعدها المكتوبة وغير المكتوبة، بمحو ذكرى السجين الهارب من قلوبهم. نسوا أمره في البندقية خلال أسابيع قليلة، فقط سنيور براجادين، راعيه اللطيف الكريم، ظل يتذكره، وعدة نساء ممن وعدهن بالإخلاص الأبدي، والمرابي أو المقامر الغريب الذي يدين له بالمال.

ebooks4arabs.blogspot.com

رجل

هكذا إذاً كيف هرب، وكيف انتشرت الأخبار، وكيف تذكروه في البندقية، لوقت على الأقل، فسرعان ما وجدت المدينة شيء آخر تقلق بشأنه ونسيت ابنها المارق. في منتصف موسم الكارنفال كان الجميع يتحدثون عن كونت شهير يدعي الكونت ب، الذي وجدوا جثته فجراً تتدلي مشنوقة أمام منزل السفير الفرنسي، وكان يرتدي قناع وعباءة الدومينو. لأنه علينا ألا ننسى: البندقية مدينة قاسية.

لكن هو ينام الآن في بولزانو، في حجرة بفندق الستاج، خلف أبواب موصدة، ولأنها المرة الأولى له منذ ستة أشهر يأوي للنوم في فراش لائق وآمن ونظيف ومريح، فقد سلّم نفسه تماماً لعالم الأحلام السفلي المبارك. نام كالمصلوب، يستحمّ رأسه بالعرق، وذراعاه وساقاه مبسوطتان كنسر، مولّه بالنوم، بلا أفكار، فقط ابتسامة ازدراء منهكة تطوف حول شفتيه، كأنه يعلم أنه تحت المراقبة من ثقب المفتاح.

وقد كان بالفعل تحت المراقبة: تيريزا على سبيل البدء، الفتاة

التي يعتبرها صاحب الفندق كابنته، والتي تخدم في بيوت الأقارب البعيدين. كانت فتاة حسنة الخلق، وحسبما يراها الأقارب، لها طبع معتدل ووجه بشوش على سذاجة قليلة. كانوا يفضلون عدم الحديث عن هذا الأمر، ولم تكن تيريزا، قريبتهم الخادمة، تتحدث كثيراً هي الأخرى. كانوا يقولون إنها بسيطة من دون أن يعرفوا سبباً لقولهم هذا، لأن أحداً لم ينشغل بهذا كثيراً، وليس من سبب معقول حقاً ليشغل المرء نفسه بها، إذ لم تكن أهميتها في فندق الستاج بأكثر من أهمية البغلة البيضاء التي يشدونها كل صباح إلى السوق. كانت تيريزا بالنسبة لهم شيء ما كقريبة شبحية، شخص ما يمت بصلة بعيدة للجميع، لذلك لم يكن أحد ليعيرها اهتماماً، ولا حتى ليمنحها إكرامية. كانوا يرون «إنها بسيطة»، فكان مندوبو المبيعات الجوالون والجنود المقيمون مؤقتاً يقرصونها في وجنتيها وذراعيها في الأروقة المظلمة. مع ذلك كان ثمة قليل من رقّة في وجهها، وحِدّة في فمها ويديها الحمراوين من الغسيل، توحيان بنبل معين، وحول عينيها طيف لسؤال هادئ ومخلص على نحو يعجز المرء عن إجابته أو تجاهله. ولهذا كله، ولوجهها الذي يتخذ شكل قلب، وعينيها المتسائلتين، لم تكن شخصاً ذا أهمية، ومن العار أن تهدِر نَفساً عليها.

هي الآن راكعة على ركبتيها تراقب الرجل النائم من ثقب المفتاح، ولعل هذا هو ما يجعلنا نحن أنفسنا نهدر نفساً عليها. تغطي بيديها صدغيها لترى على نحو أفضل. ظهرها المائل وردفاها العفيّان منهمكان كلياً في المهمة: كأن جسدها كله قد التصق بثقب المفتاح. لم تكن ترى شيئا مهماً في الحقيقة؛ فقد رأت أشياء كثيرة

للغاية من ثقب المفتاح: كانت قد خدمت في فندق الستاج لأربع سنوات، منذ كانت في الثانية عشرة من عمرها، وأبقت فمها مغلقاً وهي تحمل الفطور للغرف، وتعد الأسرة التي ينام عليها رجال ونساء غرباء، بعضهم وحدهم وبعضهم معاً. رأت الكثير ولم تتعجب لشيء. فقد فهمت أن الناس كما هم: تقضي النساء أوقاتاً طويلة أمام المرآة، والرجال ـ حتى الجنود ـ يرشون باروكاتهم بالبودرة، ويقلّمون أظافرهم ويلمّعونها، ثم ينخرون أو يضحكون أو يبكون أو يضربون الحائط بقبضاتهم، حتى إنهم يمسكون أحياناً بخطاب أو بقطعة ملابس ويُغرقون تلك الأشياء الجامدة بدموعهم. هكذا كان الناس وهم وحدهم في غرفهم بينما تراقبهم تيريزا من ثقب المفتاح. لكن هذا الرجل كان مختلفاً. هذا الرجل رقد نائماً بذراعين ممدودتين كأن أحدهم أرده قتيلاً. وجهه جاد وقبيح. وجه ذكوري ليس به جمال أو رقّة، أنف ضخم ولحيم، وشفاه رفيعة وصارمة، وذقن حادة وقوية، والقامة كلها في إطار صغير ومكتنزة قليلاً، إذ كان قد زاد وزناً إثر البقاء في السجن ستة أشهر من دون هواء ولا تمارين. لا أفهم شيئاً من هذا كله، فكّرت تيريزا بينها وبين نفسها. كانت أفكارها بطيئة ومترددة وساذجة. الأمر يفوق الفهم، فكرت وأذناها محمرتان من الإثارة: ماذا ترى النساء فيه؟ ظل موضوع الحديث الوحيد طوال الليل في الحانة وطوال النهار في السوق، وفي كل مكان بالبلدة وفي المتاجر والحانات: كيف وصل في أسمال بلا نقود وبصحبة هذا الهارب الآخر، سكرتيره. الأفضل عدم ذكر اسمه حتى، لكنهم يذكرونه، ومراراً وتكراراً، يردد النساء والرجال اسمه لأنهم يريدون معرفة كل شيء عنه. كم عمره؟

أهو أشقر أم أسمر، كيف هو صوته؟ كانوا يتحدثون عنه كأنهم على وشك استقبال مطرب شهير أو رجل قوي، أو أحد الممثلين القديرين من هؤلاء الذين تم خصيهم ليغنوا أدواراً نسائية على المسرح. ما هو سرّه؟ تساءلت الفتاة وهي تدفع أنفها أكثر لصق الباب، وعيناها في ثقب المفتاح.

لم يكن الرجل النائم على الفراش بذراعين وساقين ممدوتين كالنسر، وسيماً. قارنته تيريزا بـجيسيبي الحلاق: جيسيبي وسيم بالطبع، وجنتان ورديتان، وشفتان ناعمتان وعينان زرقاوان كعيني فتاة. كثيراً ما يستدعونه إلى فندق الستاج، ودائماً ما يغمض عينيه ويحمرّ وجهه حين تخاطبه تيريزا. وربان السفينة البندقي الذي يقضي الصيف هنا: كان هو الآخر وسيماً بشعره المموج المدهون وشاربه المفتول في خيط رفيع، بحقيبته المدرسية اللطيفة وسيفه المصفّح، ويخبّ سيراً بحذاء برقبة عالية ويتحدث بلغة مبهمة تبدو غريبة تماماً لأذنيها، ووحشية. أخبرها أحدهم فيما بعد أن اللغة الوحشية التي يتحدث بها الربّان إما مجرية أو تركية، لا تتذكر. والأسقف، رجل وسيم هو الآخر. بشعره الأبيض ويديه المصفرّتين، والنطاق القرمزي حول خصره وغطاء رأسه الأرجواني الباهت. كان لديها تقدير جيدا للجمال الذكوري حسبما ظنّت. لكن هذا الرجل ليس جميلاً بالتأكيد، لا، بل إنه قبيح في الحقيقة، على النقيض تماماً من الرجال الآخرين الذين يروقون للنساء عادةً. بدت خطوط وجهه الغريب النائم -غير الحليق - قاسية، وترشح بالازدراء، ويؤكّد انطباعها الذي كوّنته ليلة البارحة، ضيق تشنّجات واختلاجات السخط على عضلات فمه. نخر فجأة أثناء نومه فقفزت تيريزا بعيداً

عن الباب، جرت إلى النافذة، فتحت مصراعيها وأرسلت إشارة بمكنستها.

كان ذلك لأن النساء يرغبن في رؤيته، نسوة سوق الفاكهة المقابل لفندق الستاج مباشرةً - لوتشيا وجريتيل بائعتا الزهور، وهيلينا العجوز بائعة الفاكهة المتجولة، ونانيت الأرملة الكئيبة بائعة الجوارب الكروشيه - وقد وعدتهن تيريزا أنها، إن استطاعت، ستُدخلهن الحجرة وتدعهن ينظرن من ثقب المفتاح. كن يرغبن في رؤيته مهما تكلّف الأمر. كان سوق الفاكهة مزدحماً بصفة خاصة اليوم، وقف الصيدلي على عتبة متجره المواجه لفندق الستاج يتجاذب أطراف حديث طويل مع بالبي، السكرتير، حاول تسليته قليلاً بأن حضّر وجبة طعام مطهو على النار مباشرة آملاً في أن يكشف له بالبي المزيد من تفاصيل هروبهما من السجن. في الصباح جاء العمدةُ والطبيب ومأمور الضرائب ومأمور البلدة ليستمعوا لبالبي في محل الصيدلي. كانوا يلقون بنظرات خاطفة على نوافذ الطابق الأول لفندق الستاج الموصدة، وكان في سلوكهم جميعاً شيء غير قليل من الإثارة والارتباك، كأنهم عاجزون عن اتخاذ القرار فيما إذا كان عليهم إقامة حفل للترحيب بقدوم الغريب بموكب ومشاعل وموسيقى ليلية، أم يرسلونه في كومة كما يفعل صائدو الكلاب بالحيوانات التي يمسكونها والمشتبه في إصابتها بالجرب أو بداء الكلب. لم يستطيعوا اتخاذ قرار في هذا الشأن، سواء في ذلك الصباح أو الصباحات التي تلته. وهكذا ظلوا في محل الصيدلي، يثرثرون ويستمعون لبالبي، الذي انتفخت أوداجه، بالمعنى الحرفي للكلمة، كبرياءً وحماسة، فظل

يسرد وقائع ملحمة كبرى بعيدةِ كل البعد عن ما حدث، ويضيف لها من حين إلى آخر محسّنات بديعية متجددة أبداً من الأشعار الملحمية؛ وكانوا ـ هم طوال الوقت ـ واقفين يرشقون النوافذ الموصدة لفندق الستاج بنظرات سريعة، أو يجوبون بين أكشاك الفاكهة ومتاجر الأطعمة الشهية المجاورة، يتصرّفون بصفة عامة بعصبية ما، يُبدون قدراً من القلق والارتباك كما هو متوقع من المواطنين الصالحين المنوط بهم مسئولية تأمين مداخل البلدة وإطفاء الحرائق وصيانة إمدادات الماء والدفاع عنها في حال الاعتداء عليها من قبل قوى معادية. مع ذلك لا يعلمون ما إذا كان عليهم أن ينفجروا بالضحك أم يستدعوا الشرطة. وهكذا ظلوا يتحدثون ويتجولون بلا هدف حتى الظهيرة، فشرعت النسوة في إقفال أكشاكهن وانصرف المواطنون الصالحون لتناول غدائهم.

الآن إذاً استيقظ الغريب. أدخلت تيريزا النسوة إلى الردهة المظلمة. «أرينا... ما شكله؟» تهامسن وهن يقبضن على أطراف مآزرهن ويضعن قبضاتهن في أفواههن. تحلّقن في نصف دائرة أمام باب غرفة النوم. كن خائفات وسعيدات، بعضهن على وشك الانفجار بضحك عال كأن أحدهم يدغدغ خصورهن. وضعت تيريزا إصبعاً على شفتيها ثم أخذت أولاً بيد لوتشيا، فينوس السوق السمينة ذات العينين البندقيتين، وقادتها إلى الباب. قرفصت لوتشيا فانتفخت تنورتها مثل جرس وُضع على الأرض، ونظرت في ثقب المفتاح بعينها اليسرى، ثم صدرت عنها صرخة واهنة وتضرج وجهها بالحمرة ورسمت الصليب على نفسها.

ـ «ماذا رأيتِ؟» سألتها النسوة بهمس وهن يتجمعن حولها

برفرفة عالية كغربان تحط على فرع شجرة. فكرت الجميلة ذات العينين البندقيتين ثم قالت بصوت واهن وعصبي:

ـ «رجل».

ظللن وهلة قبل أن يستوعبن ما قالته. كان ثمة شيء ما غبي وغريب ومخيف في إجابتها. «رجل! يا إلهي!» فكرن وهن يشخصن بأبصارهن في السقف، لا يعرفن هل يضحكن أم يهربن. قالت جريتل:

ـ «رجل، حسناً، هل تصدّقن هذا!»

ضمت هيلينا العجوز راحتيها بورع قليلاً وتمتمت بخشوع، بلثتها الخالية من الأسنان:

ـ «رجل!»،

وحدقت الأرملة نانيت في السقف كأنها تستعيد ذكرى ما ورددت بجهامة:

ـ «رجل».

هكذا فكّرن، ثم بدأن يقهقهن، ثم أخذت كل واحدة منهن دورها في القرفصة والنظر من ثقب المفتاح، واجتاحتهن سعادة مجهولة تجاه الأمر كله. في عالم مثالي، كن سيحضّرن بعض القهوة الجيدة ويجلسن حول المائدة ذات الأرجل المطلية، وأكواب القهوة في حجورهن، ينتظرن استيقاظ السيد المحترم الأجنبي بمرح ومجون رقيقين. تسارعت دقات قلوبهن. شعرن بالفخر لرؤيتهن الغريب

ولوجود شيء ما يتحدثن عنه في البلدة وفي السوق وحول البئر وفي المنزل. كن فخورات رغم قلق طفيف، خاصة الأرملة نانيت ولوتشيا الفضولية، حتى جريتل المتكبّرة المتجهّمة قليلاً، كانت عصبية كأن ثمة شيء ما إعجازي أو خارق للعادة في وصول رجل إلى البلدة. كن يعلمن أن شيئاً ما أحمق وغير منطقي في فضولهن العابث المبالغ فيه، لكنهن يشعرن في الوقت نفسه أن فضولهن غير اللائق هذا لا يقارن بتاتاً بتلك الإثارة الكاملة. كان الأمر كما لو كنّ قد شاهدن أخيراً رجلاً حقيقياً، بغض النظر عن كون ذلك من ثقب مفتاح، وأن كل من عرفوهم من قبل من أزواج وعشاق ورجال غرباء، قد خضعوا على نحو ما لإعادة تقييم في اللحظة التي رأين فيها المخلوق النائم. كان الأمر كأنهن على غير العادة بالمرة، وعلى نحو يدعو للدهشة، يرين رجلاً قبيحاً أكثر منه وسيماً، ملامحه غير مشذبة، جسده ليس بطولياً، لا يعرفن عنه شيء سوى أنه ماجن، ممن يترددون كثيراً على الفنادق وأوكار القمار، وأنه بلا متاع، وأن ثمة شيئاً ما مريب حتى في اسمه، كأنه ليس اسمه حقاً، أو ليس بشكل كامل، رجل يقال عنه إنه زير نساء، جريء، ماجن، ويستريح لصحبة النساء: كما لو أن هذا، رغم كل المظاهر، شيء غير عادي. كنّ نساء: شعرن بشيء ما. بدا لهن أن مواجهتهن تلك مع الغريب الغامض قد بيّنت كل الرجال الذين عرفوهم من قبل بألوانهم الحقيقية.

ـ «رجل». همست لوتشيا بوهن وقلق وخشوع، فشعرن بالخبر يحلّق بأجنحته فوق سوق بولزانو ويطير إلى حجرات الرسم بترّينتي، والكبائن الخضراء في المسرح، وسقيفات الاعتراف،

فتنبئ دقّات قلوبهن المتسارعة الجميع أنه في طريقه إليهم. أن في هذه اللحظة استيقظ رجل، وتمطّى، في غرفة بفندق الستاج في بولزانو.

«هل يمكن أن يصبح رجل ظاهرة خارقة للعادة هكذا؟» تساءلت نسوة بولزانو في أعماق قلوبهن. بالطبع لم يقلن شيئاً من هذا، بل شعرن به. فأجابت دقّة قلب واحدة، دقّة قلب واحدة عصيّة على الفهم: «نعم، وأكثر من هذا».

يحب الرجال ـ أو هكذا خبّرتهن دقات قلوبهن في تلك اللحظة على نحو ما غامض ـ آباء وأزواج وعشاق أن يتصرفوا بطريقة رجولية: يصلصلون بسيوفهم كالفرسان ويتفاخرون بألقابهم ومكاناتهم وثرواتهم، ويطاردون أي تنورة تقع عليها أعينهم. كانت هذه هي طريقة الرجال في بولزانو وأماكن أخرى غيرها، إن شئنا تصديق كل ما يُحكى. لكن سمعة هذا الرجل مختلفة. يحب الرجال أن يتصرفوا بتعال وتفاخر، فيتبجّحون أحياناً بغرور، بسخافة الديوك الرومي، بالرغم من أن أغلبهم من وراء هذا القناع صبية مغمومون: هذا بسيط، هذا طماع، هذا ممل وذاك متبلّد الشعور. شعرت النسوة أن ما قالته لوتشيا حقيقي: ها هو رجل أصيل، رجل حقاً، رجل فقط ولا شيء آخر، كما تكون شجرة البلوط شجرة بلوط ويكون الصخر ببساطة صخراً. أدركن هذا ونظرت إحداهن للأخرى بعيون مشدوهة وأفواه فاغرة وأذهان مضطربة. أدركن هذا لأن لوتشيا قالته؛ ولأنهن شهدنه بأعينهن؛ ومن التوتر الذي ساد الغرفة والفندق والبلدة بأسرها، ومن الإثارة المنبعثة من هذا الغريب.

باختصار، أدركن أن الرجل الأصيل يعدّ ظاهرة خارقة تماماً مثل المرأة الأصيلة. رجل لا يحاول إثبات شيء برفع صوته أو صلصلة سيفه، رجل لا يصيح، لا يطلب شيئاً ما لم يمنحه هو نفسه، لا يسعى لترف صداقة النساء أو أمومتهن، لا يرغب في الاختباء في عناق أو خلف تنورة امرأة، رجل لا يعنيه سوى البيع والشراء، بلا عجلة ولا طمع، لأن كل ذرة في كيانه، كل عصب من أعصابه، كل خلجة من خلجات روحه، وكل عضلة من عضلات جسده، مكرّسة لقوة الحياة. هذا النوع من الرجال من أندر المخلوقات حقاً. هناك رجال أبناء أمهاتهن ورجال بأيدٍ ناعمة، ورجال متبجّحون صاخبون يتوددون للنساء بفظاظة، وبذيئون وساذجون ومتهافتون ـ لم يكن واحد منهم رجلاً حقاً كهذا. وهناك الوسيمون الذين لا يعنيهم النساء بقدر ما يعنيهم جمالهم ونجاحهم. والقساة الذين يتربّصون بالنساء كما لو كنّ أعداء لهم، بابتسامات بلزوجة العسل وسكاكين مخفيّة تحت عباءات واسعة ورحبة تكفي لإخفاء خنزير. ثم، ومن حين لآخر، فقط من حين لآخر، هناك رجل فقط. الآن فهمن صيته الذي يسبقه والقلق الذي عصف بالبلدة، ففركن أعينهن، تنهدن، أطلقن أنفاساً لاهثة وبطيئة، وارتفعت أيديهن وحطت على صدورهن. ثم صرخت لوتشيا، وتراجعن كلهن عن الباب الأبيض الكبير الذي انفتح ولاحت خلفه قامة الغريب: قصير، أشعث، غير حليق، متيبس قليلاً، تطرف عينيه قليلاً من الضوء القوي، وجسده كله مائل للأمام كأنه مرهق لكنه مع ذلك على وشك الانقضاض.

استيقاظ

تراجعت النسوة نحو الحائط. أدار الرجل رأسه الأشعث جانباً وطرفت عيناه ـ كان جزء من شعره ملبداً إثر التصاقه بالوسادة ـ بدا كأنه عاد لتوه من حفلة رقص تنكرية أو مهرجان سفلي للأحلام، ظل يرقص فيه كالدرويش حتى جاءت الساحرات وسكبن عليه القطران ثم الريش ـ جال بنظرته الحادة في الغرفة والأثاث محركاً رأسه في هذا الاتجاه وذاك على مهل كأنما لديه كل الوقت في العالم، أو كأنه يعلم أن كل شيء سيان في الأهمية، لأن شعورنا نحو الأشياء فقط ما يجعلها تبدو مختلفة. حين رأي النسوة، فرك عينيه الزجاجيتين نصف المغمضتين، وقف لوهلة هكذا بعينين مغمضتين، ثم، وبرأس لم يزل مائلاً جانباً، نظر لهن بكبرياء وتمعّن، كسيد ينظر لخدمه، سيد حقيقي ممن لا يعتبرون خدمهم مجرد مخلوقات ضالة فقط لأنهم أسيادهم وهم خدمهم، بل يعاملوهم كأشخاص اختاروا بكامل إرادتهم القيام بدور الخدم، ثم رفع رأسه فطالت قامته قليلاً، وبحركة خشنة من ذراعيه القصيرتين ويديه الصفراوين النحيلتين، رفع قميص نومه الذي انزلق عن كتفه الأيسر، كانت حركة فخمة

ومسرحية، وشعرت النسوة بذلك وصرن كمن تحررن من تعويذة ظلتِ تشل حركتهن حتى تلك اللحظة، فقد نمّت هذه الحركة عن أن الرجل ليس واثقاً من نفسه تماماً كما بدا لهن لأول وهلة، وأنه فقط يختال، ويقلد ذوي المكانة والنفوذ؛ لذلك استرخين وأخذن يسعلن ويتنحنحن دون أن تنبس واحدة منهن بشيء. وقفوا هكذا لوقت طويل، صامتات، ساكنات، يلتقطن نظرات بعضهم البعض.

لكن الرجل بدأ يضحك بسهولة وارتياح كأنه يعطس. ضحك بعينيه بهدوء أكثر مما ضحك بفمه، اتسعت عيناه وملؤهما ضوء كأنهما نافذة انفتحت على مصراعيها فجأة في غرفة مظلمة. ضوء خفيف الظل وفظّ وطاغٍ وماجن وسرّي مع ذلك، ضوء لمس النسوة اللائي، بدورهن، لم يَضحكن، ولم يصحن «أهـا»، ولا صيحة الدهشة «أوه»، أو يقهقهن «تيبي هيبي»، بل أصغين له وراقبنه بحذر. أشاحت لوتشيا ببصرها بعيداً قليلاً، تطلعت بنظرها للسقف كأنها تنتظر المساعدة من هناك، وبصمت، ومن تحت تنفّسها، زمجرت «ماما ميا»، وضمّت نانيت راحتيها كأنها تصلي. لم يقل الرجل شيئا لكنه واصل الضحك. ظهرت أسنانه الآن، مُصفرّة ومفلطحة قليلاً، أحد مكونات بنية ضخمة وقوية، كمجموعة أنياب وحشية لم يصبها ضرر. ضحكت الآن عيناه وفمه وأسنانه ووجهه كله، بهدوء ومزاج رائق ومسترخٍ وواعٍ، كأن لا شيء أمتع وأفضل من هذا المشهد، هنا في بولزانو، في غرفة فندق الستاج، عند الظهيرة، في مواجهة ثلة من النسوة المشدوهات تسللن ليشاهدنه وهو يستيقظ فقط ليتسنّى لهن النميمة عنه فيما بعد في البلدة وحول الآبار المحلية. اهتزّ جذعه من الضحك فوضع يديه أعلى ردفيه ومال للوراء ليضحك بشكل أفضل.

كان كأن شعوراً قد ظل حبيساً داخل جسده لوقت طويل قد تفجّر لفيضانات ساخنة في جسده، شعور لم يكن عميقاً ولا صارخاً ولا مأساوياً، ساخن وممتع فقط، كالشعور بأنك على قيد الحياة. بدأ الضحك يحشرج حنجرته، متخذاً صوتاً متشققاً إذ يتعثر متقدماً، ثم تدفق فجأة كما تتدفق أغنية شعبية ماجنة من فم مطرب وقف لثوانٍ عديدة؛ يداه أعلى ردفيه ومائلاً للوراء يضحك بصوت عال.

كان ضحكه كوابل من دفقات صخب، كاسحة ومدرّة للدموع وموجعة للخاصرتين، غمر الحجرة ووصل ال الـرواق وعَبَرَ الردهة. ضحك كمن خطرت له فكرة للتو، كمن فهم لتوّه ما حدث، كأن حدود الخيانة البشرية وعمقها، اللامتناهيان حقاً، قد أثاراه لحد الضحك. ضحك كمن استيقظ من كابوس وتذكر أين هو، كمن رأى الأشياء بوضوح ولم يعد يرضى بالظلال المجردة لأياً ما كان يجده مخيفاً أو مضحكاً. ضحك كأنه يُعِّد لمقلب هائل وذكي سيجعل أنفاس العالم تنبهر. ضحك كبالغ، بملء فمه، وبعواء ذئبي غريب، كأنه على وشك أن يرش النسوة ببودرة عفريت، أو كأنما سيرشّها على قمصان نوم شخص عظيم وقوي ومهيب. ضحك كمن سيؤدي رقصة رائعة سيتمايل معها العالم، كمن بإمكانه، على سبيل الفكاهة فقط، تفجير الأرض ذاتها ليجعلها هباءً منثوراً. ضحك ويداه أعلى ردفيه، وكرشه يهتز، وصدره يعلو ويهبط، ورأسه مائل لأحد الجانبين، ضحكة خشنة وطويلة وعالية، حتى اختنق الضحك وتحوّل إلى سعال، بسبب نوبة البرد التي أصابته أثناء سفره، وجو المرتفعات ـ هواء الجبال وتأثيرات طقس نوفمبر ـ القاسي على بنيته، فبدأ وجهه يتلوّى ألماً وينحبس فيه الدم.

حين زالت التشنجات، بدا أن حسه بالفكاهة قد غادره وتملّكه غضب عارم.

ـ «أرى أن لديّ زائرات»، تمتم من بين أسنانه بصوت أجش وجهير، ثم أضاف وهو يعقد ذراعيه أمام صدره: «ياله من شرف، سيداتي العزيزات!»، وانحنى بشدة وفخامة وشد ذراعيه وقدميه في محاكاة تهكّمية للمجاملات، كأنه أمام نسوة البلاط الفرنسي في إحدى قاعات قصر الفرساي ذات صباح جميل والملك ذو الكرش السمين والوجه القرمزي مايزال نائماً، أو كأنه يتسكع مع العاطلين والمتزلّفين ويتدرّب معهم على آداب السلوك. كرر مستهزءاً:

ـ «ياله من شرف لسيد محترم عابر سبيل مثلي! لهارب فرّ لتوّه من جحيم سجن رطب موبوء بالفئران، ظل فيه لأكثر من عام ونصف من دون أن يرى وجهاً ودوداً ولا تعبيراً رقيقاً واحداً! ياله من شرف، وياله من امتياز!» ثم هدأ على نحو ما مُنذر.

شعرت النسوة بالتهديد في نبرة صوته واقترين من بعضهن كدجاجات في مواجهة عاصفة، ثم رحن يتراجعن ببطء نحو الباب. تحسست لوتشيا الطريق إلى الباب بنصفها السفلي إذ كان الرجل يتقدّم نحوهن ببطء، متوقفاً بعد كل خطوة، قائلاً:

ـ «إلى من أدين بهذا الحظ الحَسَن؟»، ثم أردف بصوت متهدّج وعالٍ: «إلى من أدين بهذا الحظ الحسن الذي أتى بجميلات بولزانو لحجرتي وقت استيقاظي؟ ما الذي جعل سيدات بولزانو يزرنني أنا الهارب المنفي المنبوذ من المجتمع، الذي يطاردني الجميع الآن، من شرطة الكلاب وقطعان الذئاب على الحدود حتى مرتزقة

محاكم التفتيش بحرابهم في أيديهم بين الأجمات وفي الغابات؟ ألا تخشين أن يكون الهارب المسكين في مزاج سيء، في هذا الوقت تحديداً، في الصباح التالي لأول ليلة له ينام فيها على فراش صالح للاستخدام الآدمي، ليس به قشّة واحدة لها رائحة براز الكلاب؟ ألا تخشين منه الآن وقد استيقظ وبدأ يتذكر؟ ما الذي تريده جميلات بولزانو مني؟» سأل بصوت أعلى مشحون بالغضب.

انتصب في وقفته بحركة واحدة عنيفة فبدا لوهلة أكثر وسامة. كان وجهه يشعّ غضباً، كمساحة خالية يضيؤها برق. «من أنا، رغم كل شيء، لتتسلل سيدات بولزانو لغرفتي في حين أتيت أتوسّل كرم الضيافة في مبيت المتشردين المؤقّت هذا؟»

كان جلياً أنه يستمتع بإلقاء خطابه، بجزع النسوة، وبالامتياز الذي يمنحه له الموقف. أخذت ثقته بنفسه تزداد. صار الآن يتلاعب بهن كما يتلاعب مبارز بخصم أقل منه مهارة، فكانت كلماته وهو يدنو منهن مع كل خطوة كحفيف نصل السيف في الهواء. «جميلات بولزانو! أنتِ أيتها السمراء المتكبّرة، نعم أنتِ! أنتِ يا صاحبة المظهر العفيف بمسبحتك على عباءتك! وأنتِ يا ذات الصدر الرحب هناك في الركن! وأنتِ أيتها العجوز! إلام تنظرن جميعكن بهذا الفضول؟ قد يصل البلدة من يأكل النار أو يبلع السيوف طالباً انتباهكن لكنكن تتسللن لتختلسن النظر لمخلوق وحشي مسكين مثلي! هذا ليس قفصاً في سيرك جوّال سيداتي. المخلوق الوحشي استيقظ، وهو جوعان!»

ضحك ثانيةً، بمرارة هذه المرة ومزاج سيء. ثم سأل بازدراء حقيقي:

ـ «من أين جئتن؟ من السوق؟ من الفندق؟ هل انتشر الحديث عني في البلدة فعلاً: هل يجوب الجواسيس بآذانهم المتوجّسة؟ هل يتحدثون عني في الصالونات وكبائن المسرح كما تفعلن انتن في السوق على ما أظن. يقولون إنه هنا، إنه وصل، يالها من تسلية! ياللشرف الذي تمنحونيه!» كرر بلامبالاة وأسى قليلاً. «ها أنا ذا إذاً. اِنظرن إليّ! هكذا أبدو! هكذا أبدو حقاً، وليس كما أبدو في المساء، بباروكة ومعطف أرجواني وسيف يتدلى من جانبي وخواتم في أصابعي. هكذا أبدو، ليس بأكثر وسامة ونصوعاً، ولا بأصغر سناً ولو بيوم! هل أروقكن؟ هل أفتنكن؟ هل مظهري يطابق مع ما يُقال عني؟ ماذا تتوقعن مني؟ لماذا لا نهرب جميعاً نحن الستة؟ نقفز في عربة بريد وننطلق لنرى العالم؟ ألست جياكومو العاشق الرحّالة؟ خادم الجميع والمحتال على الجميع؟ في خدمة جلالتكن، متى تشأن وأينما تشأن. اِغربن عن وجهي أيتها الدجاجات، اختفين من هنا!» صرخ بصوت مخيف ولمع في عينيه السوداوين الداكنتين ضوء أخضر طفيف ـ كما حكت لوتشيا لزوجها فيما بعد ذات ليلة على فراش الزوجية وهي تعترف له بكل شيء وتبكي وترتجف ـ «سجين لمدة ستة عشرة شهراً باسم الفضيلة والأخلاق! هل لديكن أي فكرة عما يعنيه هذا؟ ستة عشر شهراً، أربعمائة وثمانية وثمانون يوماً وليلة على فراش من القش تفوح منه رائحة نتن البؤس البشري، فريسة للبراغيث والقمل، في صحبة الفئران. ستة عشر شهراً، أربعمائة وثمانية وثمانون يوماً في الظلام، بلا ضوء شمس أو حتى مصباح حقيقي، أعيش كآكل الحشرات أو كفأر، وحدي مع شبابي، مع طموح ورغبات الرجولة، وحدي مع ذكرياتي، ذكريات الحياة

التي عشتها، ذكريات عن الاستيقاظ على الشروق وحلاوة الإيواء إلى النوم في فراش. وحدي، معزولاً عن العالم باسم الفضيلة والأخلاق اللتين يعتبرونني، أنا، عدوّهما اللدود ـ على الأقل حسبما قال القاضي الأكبر بعد القبض عليّ. أربعمائة وثمانية وثمانون يوماً مسروقة من الحياة. حياتي، مَمحاة منها، أربعمائة وثمان وثمانون ليلة كان الآخرون يرون فيها ضوء القمر والبحر في المرفأ، ووجوه تضيؤها المصابيح، ووجوه النساء حين ينطفئ المصباح ولا يتبقي سوى ضوء عيون العشاق!» عند هذه النقطة أحنقه خطابه ورفع صوته وتحدث بصوت عالٍ للغاية، كشخص سكت أمداً طويلاً. «لماذا تتراجعن عني؟» زعق وهو يرفع ذراعيه للأمام. «ألست هنا! لقد جئت! أنتِ أيتها الجدة، لماذا ترتعدين عند الباب، وأنتِ يا ذات العينين البنيتين، أيتها المخلوق المزهوّ السخيف لماذا لا تقتربين؟ أترين؟ هذه الذراع التي أحاطت بخصور نساء كثيرات، هاتان اليدان اللتان تُقتنّ طويلاً لرؤيتها، ألا تخفن منهما... بإمكانهما التلويح بالسيف وتفنيط ورق اللعب والمداعبة أيضاً. أنتِ، أنتِ أيتها الشقراء الرقيقة كالنُفشْة[1] هل تعرفين أن هذه الأصابع يمكنها أن تميّز البستوني من الإسباتي في الظلام كما يمكنها دغدغة خيالك حتى تصرخين من لمستها، وفيما بعد، حين تقع أسنانك، يمكنك أن تحكي لأحفادك وأنت تلثغين عن أيام كانت تلك الأصابع تحيط بعنقك! سيدات بولزانو! انطلقن في البلدة وأعلنّ أني هنا، أني وصلت، العرض على وشك أن يبدأ! إنه هنا، المتأنق، سلوان

---

(1) كرة منفوشة من صوف أو قطن أو ما أشبه لطلي الوجه أو الجسم بالمسحوق.

النساء، شافي القلوب الجريحة بأكاسيره السريّة الغامضة لعلاج آلام القلب. من يملك وصفة الطعام التي تجعل العاشق البارد فحلاً ممتعاً في الفراش بين ليلة وضحاها! أخبروهم كيف اقتحمتن ورأيتنّ بأعينكن وأنكنّ تشهدن أني هنا حقاً ولم يذهب عمري في السجن سدى. إشهدن أنكن رأيتن هذه الذراع وهذا القلب وهذين الكتفين، وكل شيء آخر، كل ما هو حاضر وحقيقي، كل شيء كما ينبغي! ذعن صيتي يا سيداتي، وأخبرن أزواجكم في لحظة حميمة مناسبة، وأنتن تحللن أحزمتكن مثلاً لتدعن تنانيركن تسقط عنكن، أن جياكومو، الرجل الذي أرسلوه للسجن والظلام والعالم السفلي باسم الفضيلة والأخـلاق، قد وصل، وأنه الآن مخلوق فاضل وأخلاقي حقاً ويسألكم صفحكم ودعمكم. توسلن الرحمة لي يا سيداتي العزيزات، واستغثن بهؤلاء القادرين الفاضلين، هؤلاء الذين من الواضح أنهم معصومون من الخطأ لحد أنهم يجرؤون على، بل وبمقدورهم، الحكم على المذنبين! لأنني لست سوى مذنب. اِذهبن إذاً وأعلنّ توبة جياكومو عن ذنوبه. أنا مذنب لأنني أعلم كل ما هنالك عن الرجال والنساء، ولأنني مشهور باحترامي للحياة ولكل ما تأتي به! اِذهبن وذعن خبر وصولي».

توجّه صوب النافذة ومدّ ذراعيه وفتحها على مصراعيها. تدفق ضوء نوفمبر الصريح البارد في الغرفة بقوة كشلال شاهق. وقف أمام النافذة المفتوحة في الضوء ورأسه مائل للوراء وغسل وجهه في الضوء وعيناه مغمضتان تطرفان، وابتسم.

قال من دون أن يتحرك وعيناه مغمضتان، ومازال مبتسماً للنسوة اللائي تكوّمن في الركن خوفاً:

ـ «اذهبن الآن! اذهبن وقلن إني هنا. لقد انتهى العالم السفلي. وأشرقت الشمس».

تنفس بعمق وبهدوء وبلمحة تعجُّب في صوته، وكما لو أنه يذيع للعالم أخباراً طيبة وعزيزة بشكل خاص، أعلن:

ـ «لقد استيقظت».

ظل واقفاً مغمض العينين لا يبالي للالتفات نحو الباب الذي كانت نساء بولزانو الفضوليات يعبرن منه إلى الرواق على أطراف أصابعهن. سمع وقع خطواتهن الأنثوية يهبطن السلم، وجلبتهن الحادة والسريعة، من دون أن يتحرك أو يفتح عينيه، فمه نصف مفتوح يبتلع الضوء البارد، كمن بوسعه هكذا أن يرى ويعي كل ما يحدث من حوله. ثم صاح على تيريزا، الفتاة التي ظلت حتى الآن واقفة خلفه، ويداها الحمراوان، اللتان لا تخلوان من رقة مع ذلك، على مزلاج الباب.

ـ «أنتِ. اِبقِ هنا».

تكلم بأريحية وإمرة في نفس الوقت، متيقناً من طاعة أوامره. كان ينظر إلى الساحة، يتأمل الخطوط الواضحة للبيوت الغارقة في الضوء. تنهّد برقّة كأنه استيقظ الآن فقط على هزة أحدهم له، وتذكر أخيراً ما يجب أن يقوم به من التزامات يومه.

ـ «اقتربي»، قال بصوت ودود ومشوّش.

تمرين الأصابع

استدار، اتجه بخفة صوب المقعد ذي الذراعين والأقدام المنحنية المكسو بحرير مطبوع عليه أزهار، والقابع أمام المدفأة والمرآة الكبيرة. جلس ووضع ساقه اليمنى ـ متينة وقوية كسيقان راكبي الخيل أو الذين يسيرون طويلاً ـ على ركبته اليسرى، وأراح ذراعيه على ذراعي المقعد وثبّت نظره على الفتاة يتفحّصها بجهامة.

ـ «أكثر قليلاً»، أمرها بهدوء. «تعالي إليّ مباشرة».

وحين اقتربت الفتاة منه بخطوات ثابتة أخيراً أمسك بيدها الحمراء الصغيرة ورفعها في الهواء بخفة كفارس يمسك بيد شريكته في الرقص، أو كخياط يتفحّص ثوب سهرة صنعه مؤخراً وهو معروض على الموديل؛ أمسك بيد الفتاة بأسلوب ودود ومحنّك، جعلها تستدير نصف دائرة بحركة رقيقة وعفوية تقريباً من يده هو. ثم سألها:

ـ «ما اسمك؟»

ـ «تيريزا»،

سأل مرة أخرى:

ـ «كم عمركِ؟»

أومأ برأسه حين سمع الإجابة ودمدم منزعجاً وهو يتفحصها بنظره، وقال:

ـ «لماذا.. لماذا سمحتِ لهؤلاء النسوة بالدخول إلى غرفتي؟»، ثم تابع كمن لا ينتظر إجابة: «إن الناس يظنونني شخصاً سافلاً يا تيريزا، وأنا كذلك بالفعل. لقد تعبت من الترحال. يُذاع صيت الرجل لأن العالم صغير، ولأن المواصلات تحسّنت كثيراً جدّاً في السنوات القليلة الماضية فصارت الأخبار تنتقل بسرعة. والنميمة في الصحف وأروقة المسارح تجعل الجميع يعرفون كل شيء، ولم يعد ثمة أسرار. بالفعل، أنا متأكد من أنه لم يعد وجود للحياة الخاصة. كان الأمر مختلفاً تماماً في صغري. البندقية اليوم صندوق زجاجي مليء بأشخاص يجلسون قرب النافذة، يغشّون ويكذبون ويحشون كروشهم ويتضاجعون على الملأ. هل ذهبتِ إلى البندقية من قبلُ؟ سآخذك إلى هناك في وقت ما؛ من السبت إلى الاثنين»، ثم أضاف كمن خطرت له الفكرة بعد أن أنهى كلامه. «لا يا طفلتي العزيزة، لا تصدقي ما يقوله أبناء البندقية. أنظري في عينيّ. أترين مدى الحزن فيهما؟... لقد حوّلتني النميمة إلى مزحة، فضحية في السوق، فصرت أينما ذهبت تستدير لي رؤوس الشباب الفاسدين والجواسيس، وقاطني حانات القمار، والنساء اللائي يجمعن ثرواتهن باستغلال نساء أصغر وأكثر خيبة منهن، ويراقبوني؛ يهمس باسمي الخجولون المساكين، والمتسكعون في صالات الرقص؛

يتتبعونني بعيونهم المتربّصة من الشرفات ومن العربات العابرة. تنظر لي النساء كأنهن يعانين من قِصر في النظر. يرفعن منظار الأوبرا المُذهب ويدرن رؤوسهن ويتمتمن «أوه! أهذا هو؟... ياللعار... لماذا يُسمح لهؤلاء بالدخول إلى البلدة، أدعه للمجيء إلى هنا.». ويواصلن ثرثرتهن. اقتربي عزيزتي. أنظري في عينيّ. أأنتِ خائفة مني؟.».

ـ «لست خائفة»،

تأمل في هذا الرد.

ـ «هذا ليس جيداً»، أجابها بصوت قلق قليلاً.

لكن تيريزا الخادمة في فندق الستاج وقريبة صاحبه، لم تكن خائفة منه حقاً. وقفت هناك تاركة يدها تُداعب وتُربّت على هذا النحو المميز الذي يبدو أنه يأخذ ويعطي في وقت واحد. لعله من الضروري أن نقول شيئاً عنها رغم كل شيء. فبرغم كونها فتاة ليست بذات أهمية، مجرد أنثى صغيرة لا تمت بصلة لأحد، كان ثمة شيء ما يلعب حول شفتيها اللتين يصدر عنهما صوتاً جهيراً كالرجال من حين لآخر. كانت في السادسة عشرة من عمرها، وقد درست وخبرت بالفعل الأسرار الدنيئة لغرفات ومخادع فندق الستاج، وفرش الأسرّة وتعريتها وإفراغ أحواض الماء بعد استخدامها من الضيوف. كان لديها تنورة من قماش أزرق داكن أهداها لها تاجر من تورين كتذكار، وقميص أخضر باهت خيط بعناية وقد نسيته إحدى الممثلات المتجولات في قاع خزانة الملابس، وكتاب صلوات بغلاف من الجلد الأبيض به صورة

لقديسة بادوفا المباركة. وفيما عدا هذا لم يكن لديها شيء آخر يمكنها ادعاء ملكيته، ما عدا مشط ربما كان من البندقية. كانت تبيت في العليّة فوق غرف الضيوف، بالقرب من مأوى بالبي، وكانت من جنوبي تيرول، من قرية بالكاد تتنفس الهواء عند قدم جبل كبير تسحقها قمته ووحولة الأرض والفقر. نزح منها أبوها ذات يوم ليلتحق بمرتزقة ملك نابولي ولم يعد بعد ذلك قط. نظرت تيريزا إلى الغريب ولم تكن خائفة.

زاولها الآن الخوف الذي تملّكها الليلة الماضية حين طلب منها صاحب الفندق ـ الذي يضربها أحياناً ويدعوها لفراشه أحياناً أخرى ـ أن تراقب الغريب؛ الخوف الذي جمّدها حين رأت الغريب نصف ناعس يشخر وينخر وهو يتناول وجبته، الآن، إذ يمسك الرجل بيدها، زاولها. اعتراها الخجل قليلاً من يدها المحمرّة من الغسيل وحمل الأخشاب، الخشنة والمشققة بسبب الرياح التي تعصف بـبولزانو طوال الوقت، والتي ظنت إنها لن تعتادها أبداً، لذلك كانت تتركها على مضض للرجل الذي كانت يده قوية وارستقراطية وناعمة الملمس مع ذلك، كجلد بارد مدبوغ بعناية. لكن ملامسة هذه اليد أراحتها، نعم، ثمة شيء ما في يده، في راحته، يأخذ ويعطي في وقت واحد، وينبعث من باطن يده البارد دفء غير عادي ينفذ من الجلد ويسري في الأوصال، دفء يختلف عن دفء الموقد، أشبه بالدفء الذي يشعر به المرء حين يجلس في الشمس. سرى هذا الدفء وتمدد، ثم بدا للحظة أو اثنتين، أنه ينسحب، كما يُطفئ تيار الهواء شعلة شمعة أو مصباح ـ كإحساس باقتراب نيران ودويّ رعد. ثم عاد الدفء مرة أخرى. لم تعد تيريزا خائفة. لم تكن تفكر

في شيء. كانت تسليتها المفضلة التحدث للجرو الأبيض الصغير ذي الأذن الحادة المنتصبة في حديقة الفندق، ولا أحد غيره. كانت تحب أيضاً أن تقضي ساعة أو اثنتين، صيفاً أو شتاءً، في أحد معابد الكنيسة، تحت صورة العذراء، أسفل المنبر مباشرة. في تلك اللحظات كانت تغمض عينيها دون أن تفكر في شيء، ومن حين لآخر كانت تفكر في الحب لكن فقط بقدر ما يفكر صياد في البحر. كانت تعرف الحب جيداً ولم تكن تخافه.

الآن وقد لمسها الرجل أخيراً ـ كان الرجل الغريب يمسك يدها بإصبعين كأنه يطلب منها أن تشرفه برقصة، بينما يرتاح رأسه على يده الأخرى ـ حدست تيريزا في نفسها إنها الأقوى، وفاجأها هذا الحدس. كان الغريب بالقطع، قوياً وأنيقاً، رغم وصوله في أسمال؛ وأهم من هذا أنه أكبر سناً، أكبر سناً منها بكثير. وباختصار كان شهيراً، وأي أمرأة تتمنى من قلبها أن تراه. كان حرياً بها أن تخافه، فقد وعدها بأن يأخذها إلى البندقية، وكانت تيريزا تخاف الوعود، لأنه من المعروف عن أولئك الذين يقطعون الوعود أنهم كاذبون: كل من منحها حقاً، أي شيء من قبل لم يقل شيئاً قبل أن يمنحه. لم تكن تعرف حتى ماذا يريد الرجل منها. لقد قابلت رجالاً قرصوها في ردفيها، أو ربتوا عليها، أو أرادوا تقبيلها، أو همسوا في أذنها بكلمات بذيئة، أكثرهم مقفزون وأجلاف. وقابلت من توسلوا إليها لتسدي لهم صنيعاً، أو عرضوا عليها عروضا تعافها النفس، أو دعوها لغرفهم في منتصف الليل بعد ذهاب الجميع للنوم. لا، تيريزا تعرف الرجال، تعرفهم جيداً، لكن هذا الرجل لم يقرصها ولم يدعُها لشيء ولم يقل شيئاً بذيئاً. كان ينظر إليها ببساطة وعلى

وجهه المهموم قليلاً تعبير تركيز حاد، كمن يحاول حانقاً تذكر شيء نسيه: اسم، ذكرى ما، فكرة ما مهمة عن تحسين الحياة.

ـ «لستِ خائفة»، تمتم الرجل فيما يتسارع تنفسه.

ثم وبحركة واضحة تماماً لكنها منتهى الرقة والدماثة والود تقريباً، أجلس الفتاة على ركبتيه. تركت تيريزا نفسها له، جلست على حجر الغريب بأدب كأنها في زيارة لمنزل شخص ما، مستعدة للركض في أي لحظة إن قرع أحدهم الجرس أو صاح عليها. كان كلاهما متجهّمين. نظر أحدهما إلى الآخر بانتباه، يغمض الرجل عينيه نصف إغماضة ليراها بشكل أفضل، وهو يدير وجهها ناحية الضوء بإصبعين. تركته الفتاة يقوم بهذا كأنها في عيادة طبيب؛ من المنطقي تلبية المطالب المنطقية.

قال بهدوء:

ـ «لم أنظر لعيني أمرأة منذ ستة عشر شهراً. عيناكِ لونهما لطيف تيريزا، كلون سماء البندقية. كنت أرى تلك السماء من نافذة حين كانوا يُخرجونني للتنزه في رواق السجن. كانت سماء زرقاء، زرقاء رمادية إن شئنا الدقة، زرقة باردة قليلاً، كأنها انعكاس للبحر بطريقة ما. لديك لون الأبدية في عينيكِ»، ثم أضاف برقّة. «لكنك لا تفهمين هذا. ليس أنه يهم في شيء سواء فهمتِ أم لا. ثمة سوء تفاهم بيننا، سوء تفاهم أزلي كالذي بين الرجال والنساء جميعاً، وأنا دائماً ما أخجل من نفسي حين أكون مع امرأة وأظل أثرثر طويلاً». ثم قال بود وعفوية:

ـ «قبّليني».

وحين وقفت ساكنة تحدق فيه بتلك النظرة الزجاجية ذات الزرقة الرمادية ورأسها مرفوع بتشنج، كرر بحيرة وود لم يغيبا:

ـ «قبليني، ألا تفهمي؟».

فيما بعد تذكرت تيريزا إنه كان يطلب هذا كأنه يطلب منها أن تأتيه بكوب ماء أو أن ترسل في طلب بالبي لأنه يشعر بالملل. كان طلبه بسيطاً وسهلاً: «قبّليني». لكنها لم تقبل رجلا هكذا من قبل، فظل يحدق فيها، وظلت عيناها زجاجيتين، خاويتين أكثر منهما ذكيتين، أحاط الرجل خصرها بما بدا أنه نصف يده، واستطاع أن يضفي على هذه الحركة أيضاً طابعاً عفوياً كأنه يمد يده ليتناول كتاب أو مشط، ثم، وببود، وباستغراب قليلاً سألها بمَ تشعر.

ـ «لا شيء»، أجابته الفتاة.

فقال منزعجاً قليلاً:

ـ «ألا تفهمين سؤالي. أنا لا أسألك بم تشعرين في الحياة عموماً أو بشأن الرجال أو الحب. اسمعي أيتها الطفلة، أنا أسألك بم تشعرين حين ألمسك، حين أضغط بأصبعيّ الاثنين على هذا الجزء من جسدك أعلى مرفقك، بم تشعرين حين ألمس قلبك ـ هكذا ـ بم تشعرين الآن، هذه اللحظة؟»

ـ «عذراً سيدي، لكنني لا أشعر بشيء». قالت الفتاة بتهذيب وهي تنهض واقفة وتهز رأسها للغريب وترفع تنورتها قليلاً بيديها كما تراهم يفعلون في المطعم.

عندئذ نهض واقفاً هو الآخر، موسعاً بين ساقيه، عاقداً ذراعيه، حانياً رأسه، وقال مندهشاً بصوت قاتم ومنزعج:

ـ «هذا مستحيل»، ثم غمغم مرتبكاً «مستحيل ألا تشعرين بشيء وأنا... انتظري، اِبقي دقيقة!»

وبحركة رشيقة عانقها ومال برأسه على وجهها الغض وحدّق بعمق في الزرقة الباهتة لعينيها الهادئتين اللامعتين بالعذرية والبراءة.

ـ «ولا حتى الآن؟ وذراعاي تحيطانك؟ ألا تشعرين بأنفاسي الساخنة؟ بضغط يدي على ضلوعك؟... ألا تشعرين بقربي منك؟ بأننا في هذه اللحظة بالذات نتعرف واحدنا على الآخر وأنني أهبك هبة رائعة، هبة الحب والحياة؟... تتملكك رعشة خاصة، أليس كذلك؟ رعشة تسري في كيانك كله من أعلى رأسك إلى أخمص قدميكِ، رعشة لم تختبريها من قبل أبداً. كأنك تدركين لتوك فقط أنك على قيد الحياة، وأن هذا هو السبب في بقائك حية حتى هذه اللحظة، أن هذا هو سبب مجيئك إلى العالم؟»

وحين لم يتلق رداً سأل:

ـ «ماذا يحدث الآن إذاً؟»

ثم أفلتها وهو ضائع تماماً في حيرته إلى حد أن ترك يده ترتفع لجبينه وبدا مذهولاً.

وقفت أمامه على بعد خطوة واحدة منه، ضئيلة، قذرة قليلاً، رثة، حافية القدمين، دمية صاحب الفندق في جميع الأحوال، من نوع الفتيات الذي يعرفه جيداً ـ وإن أراد الصدق مع نفسه، النوع

الوحيد الذي يعرفه حقاً ـ وكان واضحاً له تماماً أنها لا تشعر بشيء حقاً. كان مرتبكاً بشدة إلى حد أن بدأ يزمجر. لم يرتعش الجسد البض الفتي بلذة إثر لمسته الخبيرة، لم تغش العينين الصافيتين، الزجاجيتين إلى حد ما، سحبٌ كبحيرة جبلية تجمع أعلاها إعصار. ولا حين أحاط بخصرها، ولا حين أخذ نبض قلبها يتسارع حين تحسسه من أسفل قميصها الكتان ولامس بشرتها الدافئة البكر، ولا حين ضغط صدرها بيده الساخنة بقوة. ظلت تتنفس بهدوء وهي واقفة أمامه بذراعين متهدلين. رفع ذراعه ثم علقهما في الهواء. لطالما شجّعه تمنُّع النساء. وهل من لعبة أجمل منه؟، هل هناك ما هو أكثر إثارة من مبارزة امرأة تتمنّع، تنزلق من بين يديه، تحتجّ، تصد خصمها العاشق بتعجرف أو بجزع؟ في تلك اللحظات فقط كان يشعر بإنسانيته كاملة. حينها تتدفق الكلمات من فمه بسهولة شديدة. في هذه الأوقات فقط كان يمكنه أن يكون جسوراً ومذعناً في آن، سائلاً وشاكراً في آنٍ، متهيباً وجسوراً في آنٍ. لأن التمنع، حقاً، أحد أشكال التواصل، لعبة أُحرز فيها نصف الفوز؛ إنه أحد أشكال الاستسلام: من تتمنع تعرف ما الذي تتمنع عنه، وترغب فيه... لكن هذه الفتاة هنا في غرفة الفندق بقرية غريبة، تلك الخادمة النحيلة، سيئة التغذية بطبيعة الحال، أول امرأة يفتح لها ذراعيه بعد ستة عشر شهراً في السجن ـ والعزلة والبؤس وطيّ النسيان ـ لم تكن تدافع عن نفسها حتى. لم تكن تتمنّع. وقفت هادئة تماماً، كأنه ليس أمامها، دمية تافهة جميلة في مواجهة رجل مر وقت طويل منذ أن استأجر لأجمل راهبات البندقية شقة بـموارانو، رجل تعلم نظم الشعر الإباحي على يد كونتيسة في منزل أحد كاردينالات روما

المعنيين بالأدب... ها هي تقف أمامه من دون أن يدري ماذا يفعل معها لأنها لا تدافع عن نفسها ولا تطيع أوامره؛ وقفت كظل أمام ضوء، بلا غريزة أنثوية تدفعها للهرب. أخذ نفساً عميقاً ومسح جبينه المندّى بعرق بارد.

ما الذي حدث ولم يحدث من قبل؟ جال بنظره في الغرفة بشراسة كمن يبحث عن شيء. وقع بصره على الخنجر الذي تركه الليلة الماضية على رف المدفأة، فأمسكه بحركة رشيقة بكلتا يديه وراح يثني نصله بلامبالاة. لم يعد يعير الفتاة اهتماماً، أخذ يذرع الغرفة جئية وذهابا والخنجر في يديه، يحدث نفسه بهدوء: «حسناً إذاً»، غمغم قائلاً، ثم أردف «مستحيل!».

كان مفزوعاً حقاً. كممثل قدير لم يقف أمام الجمهور لسنوات، وحين جاء الوقت ليغني ثانية وجد مدرّجات جليدية وصالة صامتة، لم يقاطعه الجمهور ولم يطرده من على خشبة المسرح، لم يفشل، بل وجد صمتاً جليدياً ولامبالاة مميتة كانا أكثر رعباً من الفشل. أو كمغنٍ لاحظ مذعوراً أن شيئاً ما طرأ على صوته، وأنه كلما رفع صوته محاولاً ترديد الجمل الموسيقية المؤثّرة التي تدرب عليها جيداً، يجد أن الرنين الدافيء لصوته، النبرة المميزة الجذابة التي تجعل مستمعيه يرتعشون من اللذة وتغمض النساء عيونهن الدامعة ويحدق الرجال بجهامة في الأرض أمامهم، وينتبهون جميعاً كأن اللحظة المثالية للندم والحُكم قد حانت أخيراً... هذه النبرة، قد اختفت. كأنه قد نسى شيئاً ما، صوت ما، وضع ما، مهارة سرية ما كان وحده يمتلكها، وكانت هي سر نجاحه، سر وجوده نفسه.

لم يفهم ببساطة لماذا لم يعد الجمهور يصفق للعرض بينما كانوا بالأمس فقط يطلقون صيحات إعجاب تهتز لها العوارض الخشبية. يعلم أنه بالرغم من الموهبة والممارسة والخبرة، ثمة خطأ ما: تأثيره على الجمهور لم يعد كما كان!.. ماذا يفعل؟ أدرك في مواجهته للمدرجات الجليدية اللامبالية، أنه لم يعد يملك جاذبيته القديمة، فزمجر ورفع يده لحنجرته بجزع ليصدر صوتاً ـ آه أو إيه مثلاً! ـ لكنه فشل في إصدار أي صوت من أي نوع، فوقف هناك، والخنجر في يده، يحدق في الفتاة.

قال مرة أخرى، بصوت أعلى هذه المرة:

ـ «مستحيل! لا تشعرين بشيء؟ لا شيء البتة؟ لا تخافين؟ لا ترتعشين؟ لا تريدين الهرب؟..».

كان تقريباً يتوسل إليها لتقول شيئاً، وكان واعياً لمدى كونه مثيراً للشفقة بالخنجر في يده ونبرة التوسل في صوته. سأل بصوت أكثر هدوءً وأخشن قليلاً ومغموم تماماً الآن:

ـ «لماذا لا تنظرين لي في عينيّ؟»

رفعت عينيها إذ لاحظت نبرة صوته، استدارت ببطء لتواجه الرجل الغريب الواقف أمامها، وتركت عينيه الثاقبتين المتجهمتين تستكشفا عينيها.

ـ «آه، أترين»، تنهّد بارتياح وهو يغير وضعه كأنه يستعد للمبارزة أو للقفز.

قال بابتهاج، بصوت أكثر هدوءاً وراحة الآن:

ـ «لقد أثّر صوتي فيكِ، أريدك أن تشعري أني أكلمك أنتِ شخصياً. لأنني أعرفك، بإمكاني الآن أن أتعرف عليكِ من بين آلاف النساء، ولو كان ذلك في حفلة تنكرية. أترين، ها أنتِ تتجاوبين، عيناكِ تجيبان عينيّ. كنت أعرف هذا، وكيف لا؟»

أصدر صفيراً خفيفاً في غمرة نشوته ثم واصل كلامه بالصوت الدافيء العميق الحزين الذي يبدو أنه أحد أدواته كساحر:

ـ «هذا هو السر عزيزتي، هذا كل شيء: ليس ثمة خدعة ولا مقلب، الأمر دائماً بهذه البساطة. كلمسة شخص. لقد لمستِني حين دلفتِ الغرفة، أظن أحياناً أن هذا هو أكثر أشكال التواصل غموضاً. إنه سبب الحياة، مغزاها ذاته. هل تسارع نبض قلبك قليلاً؟.. هل يحمرّ وجهك؟.. أنتِ تعلمين جيداً أنه ليس بإمكانك الذهاب الآن. اقتربي، عودي حيث كنتِ».

وحين اقتربت، قال بهدوء وصراحة متناهيين:

ـ «ألا تتذكرين؟ لقد طلبت منكِ أن تقبليني».

ثم مد ذراعيه ببطء، وبحركة متمهلة وواثقة، أخذها من كتفيها برفق، وراقبها بحنان وهي تسند رأسها على ذراعه.

ebooks4arabs.blogspot.com

القبلة

هكذا، أخيراً، في اليوم الثالث بعد هروبه من سجن الليدز بعد ستة عشرة شهراً، قبّل خادمة الغرف في فندق الستاج بقرية بولزانو. كيف سار الأمر؟ في البداية قبّل شفتي الفتاة المتشققتين ببساطة فتقبلتا فمه بوداعة ووهن من دون أن تجيباه، ثم تباعد الفمان. بقيا هكذا طويلاً. ظل يراقب عينيها، يلتقط نظرتها، تلك النظرة الجامدة الواضحة لكائن حي آخر، ثم طرفت عيناه كأن ضوءاً قوياً غشاهما. أغمض كل منهما عينيه للحظة. كان موقفاً أدركه كل منهما بطريقته. كأنه الوضع الوحيد الأكثر طبيعية وحسية في الوجود الإنساني. وكان من المستحيل أن يفهما لماذا يهتمّان بأي شيء آخر أو بأي وضع آخر غيره، كأنهما ظلا وقتاً طويلاً يحضران لهذه اللحظة بالذات، يوجّهان كل جهدهما وكل رغبتهما في نومهما وفي يقظتهما، لهذه الغاية. تنقلت بين ذراعيه وعلى وجهها تعبير جاد ومستريح، كمن يتنهد أخيراً بعد ساعات طويلة من البحث والحيرة قائلاً: «أوه، لقد فهمت، هذا هو الأمر إذاً!» وفجأة صار كل شيء في مكانه. تنقلت بوزنها بين ذراعيه بحرص شديد،

بحركات صغيرة رقيقة، خجولة وواثقة مع ذلك، شاعرة بأن كل تغيير في وضع جسمها له معنى؛ وهكذا بدأ الحوار الثنائي الصامت العظيم الذي رسّخه الرجال والنساء عبر أزمنة طويلة، ويواصله كل عاشقين في عناقهما. كانت ترغب في الوضع الصحيح. إن شئنا الدقة، لم تكن تتحرك حتى بل تركت جسدها ليستقر ببساطة على ركبته في المنزلة المُعدّة لها بسلوك وسط بين التمنّع والانجذاب. أسندت رأسها على ذراعه ومال جسدها الشاب إلى الوراء بيسر، مستندة على ذراعيه المفتولتين المسترخيتين، اللتين حملتا وزنها بلا عناء، حتى بدا أنهما ترفعانها قليلاً، كأنهما، ولو لدقائق قليلة، تخرقان قانون الجاذبية. يمكن وصف وضع الفتاة في تلك اللحظة بالذات كأنها سقطت مغشياً عليها بين ذراعي الغريب: على أطراف أصابعها، رأسها للوراء، تترنح قليلاً، وخائرة القوى قليلاً من أحد الجانبين. إن كان أحدهم يتلصص عليهما من ثقب المفتاح، لظن أنها فقدت الوعي أو أنها تلقت طعنة خنجر من زاوية ميتة وهي الآن تحتضر بين ذراعي منقذها الذي سيسرع ليضعها في الفراش أو على الأرض ويرفع ذراعيها لأعلى ويدلك قلبها ليعيدها إلى الحياة. لأن وقفتها كانت توحي بالضياع أو فقدان الوعي، وبالنجاة مع ذلك. وهذا بالفعل ما كانت تشعر به في تلك اللحظة: كأنها حاولت الانتحار وكانت قد غرقت بالفعل في النهر حين جاء من أنقذها وهو يحملها إلى الشاطئ. كانت في الأساس تكيّف نفسها حسب موقفها الجديد.

أن تكون بين ذراعي رجل غريب، كان موقفاً جديداً ومؤلماً ومفرحاً ومألوفاً على نحو مدهش، فبالرغم كل شيء، يحب المرء

جدّاً أن يحتضنه شخص آخر. تذكرت تيريزا أمها على نحو مبهم ـ امرأة بوجه يغزوه النمش كبيضة تركية، قصيرة ومستديرة كبراميل توسكانا ـ وكيف حملتها ذات مرة هكذا. نعم كان هذا الموقف الجديد مألوفاً كما تكون الحياة مألوفة لمولود جديد؛ لم يكن ثمة شيء صعب أو ذكي لتفعله بشكل خاص. لا داعي للكلام: على المرء أن يتقبل الأحداث ويدعها تأخذ مسارها فحسب، أن يترك نفسه ويدع الجسدين يصلا لاكتمالهما الخاص معاً تحت ضغط ذراعيه لكن بقوى جذب تفوق هذا الضغط. وكان ذلك صحيحاً، كان كل شيء كما ينبغي: إن هذا الرجل، الذي لم تكن تعرف عنه شيئاً قبل يوم واحد فقط، الذي تحدث كثيراً وهو يلوّح بخنجره، والذي نهض من فراشه هذا الصباح بجزء هابط من شعره الأشعث، ونام وساقاه مفرودتان وعلى وجهه تعبير ملتوياً حانق، يحيطها الآن بذراعيه، وليس عليها سوى أن تعدل وضع رأسها قليلاً لتستقر في وضع أكثر راحة، وتترك فمها مفتوحاً بنعومة ورقة وتغمض عينيها، وما عدا هذا لا تفعل شيئاً آخر لتشعر أن كل شيء مثلما يجب أن يكون، صحيحاً وسليماً. لقد فهمت الكثير جدّاً. والآن وقد عرفت وفهمت كل شيء، ابتسمت، ومازالت عيناها مغمضتين وصار تنفسها خفيفاً وسريعاً.

وقفا أمام النافذة في الضوء البارد القوي. أدار ظهره للنافذة وراقب وجهها في الضوء، نظر للمرأة بين ذراعيه بطريقة مشجّعة ومنذرة بشكل ينم عن كونه المنقذ والمعتدي في الوقت نفسه. حركاته دقيقة ومحسوبة. وجد هو الموقف مألوفاً على نحو مطمئن. لم يعد يقلقه أن تكون شهور الوحدة والفراغ في الرطوبة

والعزلة قد أفقدته صوته. كان مطمئناً أن كل كلمة وحركة تصدر عنه تجد ترحيباً لدى الجمهور. نظر للفتاة برضا، بتأنٍ، لديه كل الوقت. كان وجهها الذي يتخذ شكل قلب والذي يحدد الضوء القوي ملامحه وظلاله، ببساطة، وجه امرأة، هذا هو كل شيء، هذا ما كان يعنيه حين قال إن باستطاعته أن يتعرف عليها من بين آلاف النساء حتى ولو كانت ترتدي قناعاً. وجه امرأة واحدة كوجوه مئات النساء اللائي مال عليها من قبل في مواقف مماثلة، بهذا الرفق الرقيق المتجهّم. كأن كل وجه من هذه الوجوه لغز عليه أن يكتشفه، نص غامض من كلمات مكتوبة بإشارات الكابالا، أو درب آخر من دروب السحر. كأن كل وجه من هذه الوجوه كلمة تضيف معنى ما للحياة. تفرّس في ملامحها بتأنٍ وكآبة. لأن هذه الإشارات على وجه امرأة: الأنف الأشم بالنمش الخفيف، الفم الغر كقلب ثمرة فاكهة ناضجة، الخط الذهبي أعلى الشفة العليا، الذقن، تلك الذقن الطفولية الضئيلة بين الإنثناءات، الخط اللامع الدقيق للعينين المغمضتين، والأهداب الشقراء الغزيرة، والخطين القاسيين حول الأنف والفم اللذان خلفتهما الحياة كدليل على الخوف والشك، التي تبدو كأنها تذوب وتلين في الضوء وبين ذراعيه القويتين، كانت كحروف الرون[1] السحرية، النص الغامض الذي عليه أن يفك شفرته. سبح الوجهان ـ وجه الرجل الجاد محدقاً، ووجه الفتاة المسترخي بعينين مغمضتين وابتسامة واهنة واحساس بالترقب ـ

(1) حروف أبجدية اسكندنافية قديمة تستخدم في السحر.

مقابل أحدهما الآخر ككوكبين مرتبطين معاً بقانون جاذبية لا سبيل لخرقه.

«لم العجلة؟» فكّر الرجل. وكذلك هي.

ماذا كان هذا؟ هل كان حباً؟... كان على يقين أنه ليس حباً. لكنه الآن إذ يميل على وجهها، يلمس وجهه نَفَسها الدافئ الخارج من فمها الصغير، الآن إذ تشده قوة جذب لا سبيل لمقاومتها للاقتراب من شفتيها ببطء شديد، بورع ديني تقريباً، وبجسده كله منحنياً كسجين هارب يموت عطشاً وصل لينبوع ماء وتعبّد شكراً، يسأل نفسه: «أيمكن أن تكون «هي؟»..»، كان يعلم بالفعل أنها ليست «هي»، أو بالأحرى أنها واحدة أخرى من كثيرات ممن لسن «هي»، أو حتى على نحو أكثر دقة، أنها هي أيضاً «هي». كان بوسعه حقاً أن يميز وجهها من بين وجوه آلاف النساء الأخريات، فقد كان لذاكرته قوة فريدة وخارقة تقريباً حين يتعلق الأمر بوجوه النساء، إذ يسخّر لهذا الغرائز نفسها تحديداً التي تسخّرها الوحوش الضارية لاقتفاء آثار وروائح فريستها في الغابة ـ لكنه يعلم أيضاً أن هذه العلاقة قد تكون غير فاصلة كالأخريات، إذ لم تكن ثمة علاقة واحدة فاصلة، بغض النظر عن قوة الصوت الغامض الأخرس واللحوح، ومع ذلك الذي ينبعث من نساء بعينهن، لم تكن ثمة أشارة تقول أكثر من: «ها أنا ذا: لدينا شيء ما مشترك يمكن أن نكتشفه معاً، أنا وأنت». لم يكن ثمة إشارة أخرى قط. لطالما سمع الصوت ولبّى النداء، كحيوان في الغابة. تنتصب أذناه، تلتمع عيناه، ويستقيم ظهره، ثم ينطلق في اتجاه الصوت، مقتفياً أثر الرائحة، متشمماً، متنصّتاً، يقظاً تماماً، واثقاً في

غرائزه دائماً وأبداً. هكذا كانت تستدعيه، الصغيرات والجميلات وذوات الأسمال والشابات والعجائز والوصيفات والأميرات والراهبات والممثلات المتجوّلات والخياطات والخادمات، ونساء يتقاضين أجورهن ذهباً، والنساء الأكثر نفوذا ممن يعشن في القصور (يتقاضين أجورهن ذهباً أيضاً بالطبع، وأكثر)، وهكذا سار الأمر مع أرملة الخباز، وابنة تاجر الخيول اليهودي الخبيثة، وم.م. محظية السفير الفرنسي، وس.س. الطفلة المدللة في الدير، وتلك المخلوقة القذرة الداعرة التي امّحى كل أثر لها مؤخراً فقط بعد أن أودعت بحريم قصر الفرساي الخاص بجلالة الملك لويس، ملك آل بوربون[1]، وهكذا سار الأمر أيضاً مع زوجة القائد الفرنسي الشابة، وزوجة عمدة كولونيا، وأميرة أورفيه التي تعي على نشأة التلال، كانت جلداً على عظم لحد أن يخشى المرء أن تنكسر إحدى عظامها وهو يشدّ على جسدها معانقاً... كلما سمع الصوت يلبى النداء وينطلق، دون أن يفقد ولو مرة واحدة الإثارة الوحشية لتشمم الهواء، ومن دون أن يخيب ولو لمرة واحدة في الشعور بالرعشة الشبقة والتركيز المهتاج حين يفرض السؤال الغامض نفسه مجدداً: «أيمكن أن تكون هذه «هي»؟.». لكنه يدرك ما أن يسأل نفسه هذا السؤال أن لا، لم تكن واحدة منهن «هي». وهكذا كان يمضي في طريقه.

وفي كل مكان كان هناك فندق، وعروض ليلية في المسارح. وكل يوم، على نحو ما مدهش، يأتي بشخص ما أو شيء ما، طالما لا

(1) عائلة ملكية أوروبية مهمة.

يخاف المرء شيئاً. «لا لم أكن يوماً جباناً»، فكّر بينه وبين نفسه برضا وهو يشد إليه جسدها المستسلم. «ولكن ألن يكون من الأفضل لو أنها هي المرأة التي انتظرتها، أليس من الأفضل أن أستريح، أن أكف عن التفكير السريع والتخطيط، أن تُختصر الحبكة يوما إلى شيء بسيط تماماً: أن يقضي المرء حياته مع امرأة تبادله الحب وألا يرغب في شيء آخر. سيكون ذلك جيداً جدّاً»، فكر بأسى. لكن بدا عند نقطة ما أن الحبكة قد ارتبكت على نحو خطير، وينبغي الآن تقويمها، كأن الصورة الهشّة للحقيقة التي ظل يسعى لها قد سقطت في مكان ما، في وقت ما في الماضي، وتهشّمت وتناثرت شظاياها عند قدميه، وعليه الآن أن ينحني ويعيد كل كسرة منها. هذه الفتاة، على سبيل المثال، لها أذنان جميلتان، ورديتان وطفوليتان، بتقوس لذيذ كالمحار، تشابك رقيق بين العظْمة والغضروف وشحمة الأذن الفكاهية قليلاً والبسيطة؛ نعم، كانت أذنيها متعة قابلة للأكل حقاً. بماذا عساه يهمس في هذه الأذن؟ أيقول «أنتِ رائعة ومميزة..». قال ذلك كثيراً من قبل، لكنه كان يخشى أن يفقد لمسته. لذلك، وعلى سبيل تمرين الذاكرة لا أكثر، مال على أذن الفتاة وهمس بأنفاسه الساخنة: «أنتَ رائعة ومميزة».

أحمرت الأذنان اللطيفتان الرائعتان لوقع الكلمات، بل أحمر وجهها كله حقاً، كانت أول مرة تشعر بالخجل، إذ كان في الكلمات شيء ما ماجن ووحشي وبذيء تقريباً، كما في كل كذبة يتفوّه بها أحدهم في لحظة مهمة. لكن فيها أيضاً شيء مألوف ومشجع، شيء ما يُذكر بالملاحم الشعبية التي يظل الناس يرددونها عبر القرون تحت الأطلال وفي الأماكن المقدسة الأخرى. «فريدة»، أحمرّ

وجهها لهذا كما لو أنها سمعت شيئاً فاسقاً ولذيذاً، لأنها كانت تحس بالكذبة. ثم صمت ثانيةً. أذهله ما حققه من نجاح، وأدهشته قليلاً حتمية الأمر كله، كان يعلم أنه لا سبيل آخر ليسير الأمر، أنه ليس ثمة كذبة أعظم من هذه ليهمس بها، وأدرك كلاهما أن هذه الكذبة، على نحو ما، بمثابة حقيقة سرية. بقيا صامتين، مشوشين قليلاً. أحس كلاهما أن كلمة «فريدة»، على نحو ما غريب وغامض، مثلها مثل سائر الحقائق الأزلية الأخرى، لابد من قولها. كما ينطق المرء كلمة «الوطن!» أو «القدر!» ويأخذ في العويل من أعماقه. وبصرف النظر عن ابتذال وصفاقة هذه العواطف، يشعر المرء بأن الكذبة المبتذلة، على نحو ما عميق، حقيقة، كشعوره بالوطنية أو إيمانه بالقضاء والقدر أو، حقاً، ككلمات مثل «أنتِ رائعة ومميزة». وهكذا، إذ لم يستطيعا التفكير في شيء آخر ليقوله أحدهما للآخر، بدأ التقبيل.

اندمج الفمان، وعلى الفور تقريباً، أخذت قوة ما تهدهدهما جيئة وذهاباً، كان لهذه الهدهدة أثر مهدئ كما يأخذ شخصُ بالغ طفلاً أجهد نفسه في اللعب طوال اليوم وأضجره الركض هنا وهناك ويقول له شيئًا ما مثل: «يكفي لعباً الآن، لقد أجهدت نفسك يا صغير، اذهب واسترح قليلاً، لا تفعل أي شيء، فقط أغمض عينيك واسترح، أترى كم أنت دافئ! وجنتاك متوردتان حقاً! ونبض قلبك سريع!...هذا المساء، إن هدأت، سأعطيك قطعة ويفر نابولي لذيذة». كانت تسحب شفتيها أحياناً كأن الطفل يعترض «لكنني لا أحب ويفر نابولي!». ثم يعاودا التقبيل.

حملتهما الهدهدة تدريجاً. تلك الهدهدة الغريبة الحزينة، إلى مجال للقُبَل يشبه البحر تماماً. البحر الذي يوحي تأرجحه بالاسترخاء والخطر والمغامرة والقدر. كانا كشخصين انزلقت أقدامهما عن غير وعي من على شاطئ الواقع، فذُهلا حين وجدا أنه ما زال بوسعهما التحرك في مجال جديد، في مجال مخالف حتى للقدر، وحين وجدا أن الابتعاد عن الواقع ليس مروّعاً حقاً بتلك الهدهدة البطيئة، أخذا يفقدان اتصالهما بالواقع ويتقدما ببطء نحو الفناء، بلا نية مسبقة ولا رغبة محددة. يلمحان ما حولهما بنظرات حالمة من حين لآخر فيما بين القبلات، كمن يرفع رأسه بين الزبد قبل أن يغرق مجدداً في موجات الهدهدة الخطرة والمرِحة واللامبالية. يفكر «لعل الفناء ليس مخيفاً، لعل هذه الهدهدة وهذا النسيان هما أفضل ما في الحياة، لحظة أن نفقد ذاكرتنا ويلف كل شيء الغموض والألفة والضباب». امتدت الآن الأذرع التي فتحاها من قبل بحركات البدء والدعوة، وأمسك كل منهما برأس الآخر.

كانا سيواصلان لولا أن دخل بالبي الغرفة في تلك اللحظة. تردد لدى الباب وقال بذعر: ـ «جياكومو، لا تفعل هذا!»

ابتعدا واحدهما عن الآخر ببطء، أفلتا قبضتيهما، ونظرا حولهما بارتباك وفضول. لاحظ بعد أن تركها أن الخنجر لم يزل في يده اليسرى التي كانت تحيط بخصرها.

كاتب

حين انصرفت الفتاة برأس مطأطأ وخطوات هادئة، كهؤلاء الذين تعودوا السير حفاة هنا وهناك، قال بالبي:

ـ «لقد ذعرت حقاً، كنت تحمل هذا الخنجر بيدك كأنك ستطعنها».

ـ «أنا لست مجرماً»، أجاب بكآبة وأنفاس لاهثة قليلاً وهو يعيد الخنجر إلى رف المدفأة. «أنا كاتب».

ـ «كاتب؟» شهق بالبي وترك فمه مفتوحاً لوهلة، ثم سأله متشككاً «هل كتبت شيء؟»

ـ «كتبت؟ بالقطع كتبت»، تمتم بتحفظ كأنه لا يرى جدوى من الرد على من هو أدني منه كثيراً لحد إنه يشك في إنه سيفهم. ثم أعلن بانتصار وثقة في حجته: «كتبت أشياء عظيمة كثيرة. قصائد مثلاً»،

ـ «مقابل المال؟» سأل بالبي.

ـ «مقابل المال من بين أشياء أخرى، دائماً ما يكتب الكُتّاب الحقيقيون مقابل المال أيها المأفون. لا أظن أن بوسعك فهم الكُتّاب يا بالبي. يؤسفني أنني لم أغرز هذا النصل بين ضلوعك على أطراف فالديبيادين حين أوشكت على جلب المتاعب لنا. حينها، لعلني حينها، كنت سأكون المجرم الذي ظننتني إياه منذ دقائق، وكان عدد الأشقياء الأغبياء في العالم قد قلّ واحداً وكان العالم سيشكرني! لن أتوقف أبداً عن الندم على هذا اليوم الذي أنقذتك فيه من ذلك المزراب الموبوء بالفئران».

ـ «لم تكن لتهرب بدوني أيضاً»، أجاب الراهب بهدوء. لم يكن من السهل إهانته. جلس على المقعد ذو الذراعين ممدداً ساقيه وعاقداً راحتي يده على كرشه السمين يطرف بعينيه ويلهو بإبهاميه.

ـ «حقاً»، أكد على كلامه. «قد يتشبث الغريق بقشة، وحتى بحبل المشنقة».

كان كل منهما يزن الآخر.

ـ «حقاً، للأسف». كرر، ثم رفع كتفيه في إيماءة توحي بأنه لا جدوي من الندم على خيبات سابقة. ثم أردف: «وأنت أيها السمين لا تفهم، وليس بوسعك أن تفهم، أني كاتب. ماذا كتبت أنت من قبل؟ خطابات غرامية للخدم ذوي الأحذية المخرّمة، تبيعهم الخطاب بقرشين، وعدة عقود مزيفة لمندوبي مبيعات عاطلين ومجرمين صغار، خطابات توسّل تزعج بها من هم أيسر منك حالا ممن تساهلوا وتسامحوا معك بما يكفي لئلا يرسلوك إلى القراقير».

ـ «أياً كان»، أجاب الراهب برفق وود شديدين، «إن الكتابة هي التي أنقذتني يا جياكومو. ألا تتذكر حين كنا نتبادل تلك الخطابات، كعاشقين. يالها من خطابات محتدمة وطويلة، ألا تتذكر الحارس لورينزو، المرسال. لقد تعارفنا عبر تلك الخطابات، أخبر أحدنا الآخر بكل شيء، ماضيه وحاضره. لو لم أعرف الكتابة لما استطعت مراسلتك ولما استطعت الهرب أبداً. أنت تحتقرني وتتعالى عليّ. وأعلم أنه يسعدك أن تقتلني. لكنك لست عادلاً، لأنني أعرف قيمة الكتابة مثلك تماماً، وأعلم إنها ينبوع قوة عظيم».

ـ «قوة؟» قال الهارب الآخر وهو ينظر للراهب بتعالٍ وريبة، مائلاً برأسه إلى الوراء وجفونه نصف مغمضة، ثم تابع: «إنها أعظم من هذا بكثير. إنها ليست «ينبوعاً» بالبي، بل إنها القوة في حد ذاتها. إنها القوة الوحيدة. أنت على حق، إنها التي حررتك. لم أفكر في هذا من قبل. حقاً، إن الكتب المقدسة والكتابة المقدسة، على حق حين يخبرانا أن الرحمة تشمل حتى الأحمق. إن الكتابة هي القوة العظمى في الوجود؛ الكلمة المكتوبة أعظم من الملك ومن البابا، وأعظم من الدوق. ونحن الاثنان دليل حي على هذا. لقد أعددنا خطة هروبنا عبر الخطابات، كانت الحروف بمثابة الأسنان التي قرضت أغلالنا، بمثابة السلّم والحبل الذي هبطنا بواسطته. إنها ما أخرجنا من الجحيم وأرشدنا إلى الأرض. يزعم بعضهم أن بمقدور الحروف أيضاً أن تخرجنا من الأرض وترشدنا إلى الجنة. لكنني لا أؤمن بقدرتها تلك».

ـ «بم تؤمن إذاً؟» سأل الراهب راغباً في تجاذب أطراف الحديث.

ـ «بالقدر»، أجاب دون تردد، «بأقدارنا التي نصنعها لأنفسنا ولذلك نتقبلها. أؤمن بالحياة، بتعددية الأشياء التي في نهاية المطاف، وعلى نحو ما إعجازي، تصل لانسجام. بالقطع الصغيرة المختلفة التي تتجمع معاً لتكوّن رجل أو حياة. أؤمن بالحب وبدائرة الحظ. وأؤمن بالكتابة لأن قوّتها تفوق القدر والزمن. إن كل شيء يذهب، ما نفعله، وما نرغب فيه، وما نحبه، وما نقوله، النساء، والعلاقات. يتراكم تراب الزمن على كل ما فعلناه، كل ما أثارنا ذات مرة. لكن الكلمات وحدها تبقى. كما أقول لك، أنا كاتب»، أعلن بسرور ورضا كأنه يكتشف تلك الحقيقة لتوه.

مرر أصابعه في شعره الملبد وألقي برأسه للخلف كعازف كمان عظيم يضع كمانه تحت ذقنه ويبدأ في التهام الأوتار بقوسه، وضع اتخذه من قبل كثيراً حين كان يعزف الكمان مع فرقة موسيقية في البندقية أيام شبابه. أخذ يذرع الغرفة مهتاجاً بخطوات عرجاء على نحو ما غريب، ثم أضاف بهدوء:

ـ «أحياناً يكون الأمر مدهشاً لي حتى».

ـ «ما الذي يدهشك؟» سأل بالبي بفضول طفولي.

ـ «يدهشني أن أجدني كاتباً» أجاب من دون تفكير. «ليس بيدي حيلة تجاه هذا الأمر بالبي، ليس بوسعي شيء فيه، لذلك أتوسل إليك أن تحفظ هذا الأمر سراً لأنني لا أحب أن أتفاخر وأتشكّى في آنٍ واحد. أنا أخبرك أنت وحدك بهذا لأنني لا أكن لك ذرة احترام. ثمة طرق كثيرة للكتابة: بعضهم يجلس في غرفة ولا يفعل شيئاً سوى أن يكتب. وهؤلاء هم السعداء. حياتهم حزينة لأنهم

وحيدون، لأنهم يحدّقون في النساء كما تحدّق الكلاب في القمر، ويشكون للعالم مراراتهم، ويتغنّون بويلاتهم، يخبروننا كم عانوا من أجل الشمس والنجوم والخريف والموت. إنهم أكثر الرجال حزناً لكنهم أسعد الكتّاب حظاً لأنهم يكرّسون حياتهم للكلمات فقط: يفطرون بالأسماء الصحيحة ويخلدون إلى النوم بنعت لحيم بين ذراعيهم. يبتسمون بوهن وحزن حين يحلمون. وحين يستيقظون في الصباح يتطلعون بأنظارهم للنعيم لأنهم تحت تأثير تعويذة دائمة ويعيشون في جذل أحول، يعتقدون أن الخبَّ سيراً والهمهمة بين كل تلك الأسماء والصفات سيجعلهم ينجحون في صياغة ما نجح في صياغته الرب نفسه مرة واحدة، واحدة فقط. نعم الكتّاب السعداء هم هؤلاء الذين يسيرون وعلى وجوههم سيماء الحزن، فتعطف النسوة عليهم ويولونهم رعاية خاصة كأنهم أعزاءهن أو أقاربهن، كأنهن شقيقاتهم الأكثر حظاً وحكمة اللائي عليهن إراحتهم وإعدادهم للموت. لم أفضّل أبداً أن أكون كاتباً لا يفعل شيئاً سوى الكتابة» أعلن بإزدراء قليلاً. «ثم هناك كتّاب يحملونك ويركضون بك بأقلامهم كأنها سيوفاً أو خناجر، يكتبون بالدم، وينثرون الصفحات بعصارة الكبد، هؤلاء تجدهم في المكاتب بقبعاتهم المزركشة على رؤوسهم، يعنّفون الملوك والصعاليك، والخائنين والمرابين، هؤلاء كتّاب التحقوا بخدمة أفكار وقضايا الإنسانية سواءَ طوعاً أو كمرتزقة. عرفت بعضاً من هؤلاء. قضيت ذات مرة بعض الوقت بصحبة خيال المآتة هذا، فولتير. لا تقاطعني، أنت لم تسمع به من قبل حتى. لم يعد لديه أسنان ومع ذلك لم يكف عن العضّ: يسعى الملوك والملكات

لنيل رضاه، وهذا الصعلوك الذي لا يملك أسنان، بل ريشة واحدة فقط بين أصابعه الناتئة الملطخة بالدم، بإمكانه محاسبة العالم بهذه الريشة. هل تفهم؟.. أنا أفهم. الكتابة، لهؤلاء، وسيلة لتغيير العالم، لكن الكاتب الذي يستغل قوة الكتابة لحساب قوته وفكره، يشقى، كرجل وككاتب على حد سواء؛ لأنه يفتقر للصمت والجلال، قد يطعن دستوراً بخنجر، أو يطعن ملكاً في قلبه بكلمة واحدة حادة منه، لكنه يعجز عن صياغة الأسرار العميقة للحياة، مثل الشعور العجيب بالوجود هنا تحديداً، متعة أن نعرف أننا لسنا وحدنا، أن النجوم تسهر علينا لترعانا، والنساء أيضاً، وشياطيننا كذلك، ناهيك عن المعرفة المفرحة بالحقيقة الرائعة بأننا يوماً ما سنموت. هؤلاء الذين يعتبرون القلم سيفاً أو خنجراً ليس بمقدورهم صياغة مثل تلك الأشياء، مهما سيطروا بقوّتهم في الأرض... هؤلاء الكتّاب قد يؤثّرون على ممالك ومؤسسات ومصائر، لكن ليس بمقدورهم تعليق إحساسنا بالزمن... ثم هناك كتّاب مثلي. وهم الأندر»، أعلن برضا.

ـ «قطعاً»، وافقه بالبي بخشية. «ولماذا هم الأندر سيدي اللورد؟»

حمل صوته الخشن العميق آثار السجن والخمر والمرض وأكواخ الطرق الجانبية الفقيرة وفرشات الطباخات. صار الآن مزيجاً من الفضول والحذر. جلس بفم فاغر وما يزال إبهاماه يتحركان، كما لو كان يشاهد عن طريق الخطأ عرضاً مسرحياً بلغة لا يفهمها تماماً.

ـ «لأنهم يكتبون ما يفقدونه، حياتهم الخاصة». قال بصوت عالٍ.

«هل تفهمني؟ أيها الكرش الأحمق ذو القدمين المتشققين، بطل الخرائب والمواخير، هل تفهمني؟ أنا هذا المخلوق النادر، كاتب له حياة يمكن الكتابة عنها. أتسألني عن ما كتبته. ليس بالكثير، اعترف بهذا، بيوت شعر قليلة.. مقالات قليلة عن الفنون السحرية.. لكن لا شيء من هذا كان الشيء الحقيقي. عملت مبعوثاً رسمياً، قساً، جندياً، عازف كمان، وأستاذاً في القانون المدني والكنسي، الفضل لـبيتينا التي عرّفتني على عالم الجسد حين كنت في الرابعة عشرة من عمري، ولأخيها الكبير أيضاً، دكتور جوزيه، جاري في بادوفا، لم يكن يعرف شيئاً عن ما علمتني إياه بيتينا لكنه عرّفني على عالم الفنون الجميلة. لكن هذا ليس مهماً، ما يهم ليس الكتابة، بل ما فعلته. ما يهم هو أنا، حياتي، هذا هو المهم. الأمر أيها المغفل أنه أن تكون أصعب كثيراً من أن تفعل. جوزيه لا يتفق معي في هذا. يقول إن الكتّاب السيئين فقط هم من يحبون الحياة بينما الجيدين يكتفون بالكتابة. لكنني لست معه في هذا؛ لأن ثمة صراعاً عظيماً واحداً فقط في الحياة، ذاك الذي بين الإصرار العنيد المُبرَّر من ناحية، والإنكار العنيد المُبرَّر من الناحية الأخرى. لا يهم أن يقصيني جوزيه من الكتاب الجيدين الآن، ما يهم هو وجودي أنا، حياتي. أريد أن أحيا. لن أكتب ما لم أعرف العالم، وقد بدأت لتوي أتعرّف عليه، ثم أضاف بهدوء أكبر وبذعر تقريباً: «أنا في الأربعين. بالكاد بدأت حياتي، ليس لديّ ما يكفي من الحياة، لم أرَ الفجر بما يكفي، ثمة الكثير من المشاعر والأحاسيس الإنسانية مازلت لا أعرفها، لم أكتف بعد من الضحك على عنجهية البيروقراطيين وأصحاب المقامات الرفيعة وكافة سلوكيات السادة المحترمين؛ لم أكتفِ بعد من حشر كلمات قسٍ ما في فمه، أعني هؤلاء القساوسة السمان

الذين يبيعون التوبة بالبنسات. لم أكتفِ بعد من الضحك على الحماقة البشرية، من الانغماس في بلاعات العالم بمتعة طاغية لأصل إلى غرور العالم وطموحه وشهوته وطمعه؛ لم أكتفِ من الاستيقاظ بين أذرع النساء لأعرف أي شيء يستحق المعرفة عنهن، أي حقيقة أكثر أصالة من تلك الحقيقة السوقية الحزينة تحت تنانيرهن، التي تثير خيال الشعراء والبالغين فقط... لم أكتف من الحياة، يا بالبي»، كرر بعناد ورعشة صادقة في صوته: «لا أرغب في التخلّي عن شيء، أترى! أنا لا أسعى لإشادة دنيوية، ولا لثروة، ولا لحياة زوجية سعيدة: سيتسع لي الوقت لاحقاً لأتجول بالخفين، وأتحقق من أشجار الكروم، وأسمع تغريد الطيور، وتحت ذراعيّ نسخة من «عزاء الفلسفة» الوثني بوئثيوس، أو أحد كتب الحكيم هوراس حتى الذي يُعلّمنا أن الرجل الطيب تصحبه دائماً أختان مقدَّستان: المعرفة والشفقة. وأنا لا أريد أن استسلم للشفقة الآن، أريد أن أحيا. وقد أكتب في نهاية المطاف. هذا ثمنه غالٍ جدّاً، اِفهم هذا أيها الرفيق تعس الحظ، يا تابعي في مطابخ السفن، اِفهم أنني يجب أن أرى كل شيء: يجب أن أرى الغرف التي ينام فيها الآخرون، أن أسمع أنينهم وهم يشيخون فلا تعود النساء تقدم لهم شيئاً إلا مقابل الذهب، يجب أن أعرف الوالدات والشقيقات الصغريات، والأزواج والعشاق الذين لديهم دائماً شيئا ما حقيقي ومُقبل على الحياة، أو أصافحهم بالأيدي على الأقل. أنا كاتب أحب الحياة، وجوزيه يقول إن الكتّاب السيئين فقط هم من يحبون الحياة، لكنه ليس رجلاً، ليس سوى دودة كتب كسول رعديد لن يكتب شيئا ذا قيمة أبداً».

سأله بالبي:

- «لكن متى سيكون لديك الوقت لتكتب يا جياكومو؟... إن أنت قضيت حياتك كلها في المشاهدة والسمع وتشمم رائحة كل ما ذكرته، لن يتسع لك الوقت لتكتب. أنت على حق، أنا لا أفهم مثل تلك الأشياء، لكنني مع ذلك أعرف شيئاً ما جوهرياً عن الكتابة، وأعلم من خبرتي أنه حتى كتابة الخطاب تستغرق وقتاً طويلاً. وظني أن الكتابة الحقيقية، العمل الذي يقوم به الكتّاب، تتطلب وقتاً أكثر حتى، عمر بأكمله ربما».

أجابه وهو يحدق في السقف، وشفتاه تتحركان بصمت كأنه يحصي شيئا ما:

- «سأكتب حين أكون قد عشت بالقدر الذي أعتبره ضرورياً، حين سأكتفي من الحياة سأرغب في الكتابة».

حينها تناهى لمسامعهما ضحكة أتت من الساحة أسفل النافذة. كانت ضحكة دافئة شبابية متقطعة، فأسرع إلى النافذة وانحنى على الشرفة. لوّح وانحنى وانفرجت أساريره بابتسامة واسعة ووضع أصبعين على شفتيه وطيّر قبلة في الهواء وصاح «جميل،غرامي الوحيد! الليلة!..».

ثم استدار وقال بصوت كئيب:

- «يجب أن أفعل كل شيء الآن لأكتب فيما بعد. أن أختبر الحياة وكل ما تأتي به. الكتابة تتطلب التزاماً جاداً.. يجب أن أرى كل شيء ليتسنى لي وصف العادات والبيوت والأماكن التي كنت فيها ذات

مرة حزيناً أو بائساً أو ببساطة، لا مبالياً. حتى الآن لا يتسع وقتي للكتابة. وهؤلاء..». صرخ بغضب عارم مفاجئ، حتى أن بياض عينيه بدا شاسعاً، «يتجرأون على الزج بي في السجن! تنكرني البندقية؟. ينكرون رجلاً كان، حتى في مطابخ السفن، بندقياً حقيقياً بقدر ما يكون أي صاحب مقام رفيع ممن رسمهم تيتيان[1]! يتجرأون ويحرمونني من حقي في أن أكون كاتباً، كاتباً مخلصاً يكرس كل يوم من حياته في جمع مادة عمله! يتجرأون ويصدرون حكماً عليّ، على كاتب، وكاتب من البندقية. هكذا! أخذ كبار البندقية على عاتقهم مهمة حرماني من الحياة من ضوء الشمس ونور القمر؛ لقد سلبوني جزءاً مهماً من عمري، من حياتي، حياة ليست سوى درب من دروب خدمة المجتمع... نعم، فهذا، في عُرفي، هو الخدمة التي أؤديها! أنا أخدم المجتمع!... وهم يتجرأون ويسلبونني ستة عشرة شهراً من حياتي! ليأخذهم الطاعون!» قالها بهدوء وحسم ثم تابع: «ليصب البندقية الوباء والطاعون! ليأتِ المغاربة والأتراك الوثنيون بقنزعاتهم ويمزّقون جميع السيناتورات إرباً، ما عدا السينيور براجادين بالطبع، كان أباً لي حين كنت يتيماً وأعطاني نقوداً. يسرّني أن تذكرته. في الحقيقة عليّ أن أكتب له حالاً، ليحل العار والدمار بالبندقية التي ألقتني أنا، ابنها الحقيقي، في زنزانة تشغي بالفئران! سأجعل الانتقام لنفسي منها مهمة حياتي!»

ـ «برافو!» صاح بالبي بحماسة، ووجهه الممتلئ، المصفرّ المليء بالبثرات مثل الكوسا، يومض. «معك حق جياكومو، أنا

---

(1) رسام إيطالي شهير من القرن السادس عشر.

أفهمك. أنا أشعر مثلك. قد لا أكون من البندقية على وجه الدقة، لكنني أيضاً أعرف كيف أكتب. لقد قلت الحق: ليصب البندقية الطاعون، أنا معك في هذا، صدقني».

لكنه لم يستطع إنهاء كلامه إذ جذبه الغريب فجأة من عنقه وبدأ يخنقه.

كيف تجرؤ على سب البندقية؟

ـ «كيف تجرؤ على سب البندقية؟» صاح لاهثاً. «أنا فقط من أفعل هذا! أتفهم؟... سأتولى أنا شأن البندقية!»

كان صوته مرعباً. ضرب صدره بيده اليسرى وتلوّى وجهه في سخونة اللحظة، لا شيء آدمي به، كالأقنعة ذات النصف المرح والنصف المرعب التي يرتديها أبناء البندقية في موسم الكارنفال. كان يقبض بيده اليمنى على ياقة وطية قميص الراهب وصدره بينما يده اليسري معلقة في الهواء كأحد الجوارح، بحث كالأعمى عن الخنجر الذي وضعه منذ قليل على رف المدفأة، فتراجعا معاً صوبها، جياكومو يجرّ الراهب الذي تحوّل لون وجهه تدريجاً من لون النخاع الطبيعي إلى الأحمر الداكن إذ تضيق القبضة عليه. وجدت يده الخنجر على الرف الرخامي، أمسكته، ورفعته عالياً في الهواء. كرر بهدوء هذه المرة:

ـ «كيف تجرؤ على سب البندقية؟»، ارتفع نصل الخنجر والتصق ضحيته بالحائط. «لا أحد غيري له أن يسب البندقية! لا أحد غيري له الحق في هذا! أتفهم؟ لا أحد!» كان يبصق الكلمات،

ليس مجازاً، بل بالمعنى الحرفي للكلمة، تورمت شفتاه، وسال من شدقيه المصفّرين زبد أبيض. كان يسقط رذاذاً على وجه الراهب إذ يتحدث. كان كأن شيئاً ما في مرجله الآدمي قد فاض فجأة ليجعل كل محتويات حياته تحتدم وتضطرم وتتفجّر. وجهه شاحب، أصفر يميل للرمادي، يفيض بالهوى والحنق. «سأسبّها أنا بنفسي!» كرّر وهو يهمس الكلمات في أذن الراهب الصامت المذعور، الذي صار الآن أزرق تماماً، كأنه يغويه بوعود بملذات آتية. «أنا وحدي! لأبناء البندقية فقط أن يسبّوها! ماذا تعرف أنت؟ كيف لك أن تعرف؟.... كيف لكم أن تعرفوا أيها الكسالي المتشردون التافهون المتسكعون؟ قد تزعمون أنكم تعرفون قصور الجنة لكنكم لا تعرفون أدنى شيء عن البندقية! تجلسون هناك في خمارات أزقة ميرسيريا ترشفون نبيذاً حامضاً وتظنون أنكم في البندقية! تحشون بطونكم بالسمك واللحم، ولحم الطيور، والباتيه، وخيوط المكرونة الطويلة، وتُحَلّون بلبن وأجبان أخرى ذات رائحة عفنة، وتظنون أنكم تعرفون البندقية! تتسللون لبيوت الهوى، تدغدغون خيال عاهرة قبرصية على ملاءات نتنة، وتصدقون أنكم جزء من البندقية لأنكم تستطيعون سماع أجراس سان مارك من على بُعد! تتوقفون عند شرفة قصر الدوج وتهللون مع الحشود أملاً في نفحة، أو تجولون بأنظاركم بحثاً عن صفقة، وتتصورون أنفسكم من أبناء البندقية! دعوا البندقية وحدها! هل تسمع! ليس لك أن تمس شعرة من رأسها! ما الذي تعرفه عنها على كل حال، ماذا ترى منها، ماذا تسمع منها؟ لا تتجرأ وتتحدث عن البندقية. لا شيء لديك لتقوله عنها. سيتغذى الدود على كرشك السمين، نتاج عمل خبازي

البندقية وقدورهم وطاساتهم، قبل أن يكون لديك شيء لتقوله في هذا! أبقِ فمَك مغلقاً بشأن البندقية كما يفعل يهود الشتات بشأن ربهم. اِلزم الصمت إن كنت تخشى على حياتك وتأمل في رؤية البندقية مرة أخرى! كيف لك أن تعرف البندقية؟ أنت لم تر سوى حجارة الطرقات، المقابض الحديدية للكسرولات، كعوب النساء البندقيات، وأفخاذ الخدم، والبحر اللامبالي الذي أتى بك مع كل شيء آخر إلى البندقية: مع الفرنسيين وأشعارهم وأمراضهم وأتيكاتهم الأنيقة؛ والألمان الذين يجولون في ساحاتنا ويحملقون في تماثيلنا وعلى وجوههم تلك النظرة القلقة، كأنهم لا تعنيهم الحياة بقدر ما تعنيهم محاضرة ما عليهم إلقاؤها إما عاجلاً أو آجلاً؛ والإنجليز الذين يفضلون الماء الدافئ على النبيذ الأحمر ويمكنهم التحديق بنظاراتهم لساعات للوحة مذبح في الكنيسة دون أن يلاحظوا أن الفتاة في اللوحة ليست سوى الابنة البكر لصاحب الفندق القريب، وأنها تصلي بجوارهم مباشرة عند المذبح، تستغفر لخطاياها التي تتحدث عنها البندقية لكنها غفرتها لها منذ وقت طويل؛ لأن البندقية ليست الدوج ولا القاضي الأكبر، ليست الكهنة ذوي الكروش المستديرة، ولا أعضاء مجلس الشيوخ الذين يتبعون مانحي أكياس الذهب. البندقية ليست فقط قارع الأجراس في ساحة سان ماركو، الحمَامات على الأحجار البيضاء، الآبار التي بناها البنّاءون البندقيون، أسلاف أمي وأبي، وحفظوها بأرواحهم الحارسة؛ البندقية ليست فقط ذرات المطر تتلألأ في الشوارع الضيقة أو نور القمر ساقطاً على جسر مشاة صغير، وليست فقط المومسات، العربجية، المقامرين، ولا النسوة الساقطات اللائي

يسجل عددهن وكلاء النيابة في مكاتبهم المتعفنة. البندقية ليست ببساطة ما ترى. من ذا الذي يعرف البندقية؟.. يجب أن تولد فيها لتعرفها. أن تتذوق نكهتها الرطبة الحامضة العتيقة في لبن أمك، أن تتشمم رائحة الخراب النبيلة التي تشبه رائحة نفس شخص يحتضر، أو تشبه ذكرى الأوقات السعيدة بلا خوف من الحياة أو الموت، حين يملأ سحر اللحظة، دوار الحقيقة، الوعي المأخوذ بأنك تحيا هنا الآن في البندقية، كل أنسجة جسدك وكل زاوية وركن من ذهنك. إني لأشكر طالعي السعيد وأخرّ على ركبتي شاكراً أقداري التي جعلتني أولد في البندقية. أشكر السماء لأن أول ما تنفسته على الأرض كان عبق الحكمة الفاسدة التي تحلّق فوق البحيرة! لقد ولدت في البندقية وهذا يعني أن كل شيء فيها لي، أن كل ما يجعل الحياة تستحق العيش قد وُهب لي: الحرية، البحر، الفن، الخلق الحسن... ولأني ولدت هنا، أعرف أنه أن تعيش يعني أن تكافح، وأنه أن تكافح يعني أن تكون بندقياً نبيلاً حقاً!». صاح وهو يُفلت عنق الراهب القرمزي من قبضته ويمد ذراعيه: «البندقية هي السعادة!».

ثم حدق فيما حوله بوجه شاحب وتعبير شارد كقس يعلن أخبار معجزة وجود نور النعيم بيننا هنا نحن الفانين، وقال: «إنه لمن دواعي فخري وسروري وجود البندقية، لأنها شيء ما يفوق الواقع السطحي الممل، إنها شيء ما تحلّق أحجاره بين السماء والماء، لا تسنده العواميد فقط، بل وأرواح أسلافي أيضاً. يسعدني أن الشوارع والساحات التي يخلع أقوام العالم أحذيتهم ليتجولوا فيها حفاة بوجوه تنضح خشوعاً، كانت هي أماكن لعبي وأنا طفل،

حيث كنت ألعب العسكر أو الحرامي، التركي أو المغربي، مع أبناء الكنّاسين وأبناء الأرستقراطيين! إن البندقية مدينة معجزات للجميع فيها، حتى اللقيط الذي يلهو بفضلات الحمام بالقرب من برج الأجراس، أن يطمح في أن يكون أرستقراطياً. سجّل كلماتي هذه يا بالبي: إن كل أبناء البندقية هم بالفعل من الأرستقراطيين، ولهذا عليك أن تخاطبني بالاحترام الواجب! إن اللبن الذي يرضعه ابن البندقية من ثدي أمه بأولى حركات شفتيه الجائعة له مذاق البحر والبحيرة: نكهة ورائحة البندقية، مالح قليلاً إن شئنا وصفه، فاتر ومألوف على نحو ما مدهش. إنها البندقية التي تخطر لي دائماً حيثما ذهبت وشممت رائحة البحر، البندقية وأمي. كانت أيام رخية في البندقية. كنت في الثالثة من عمري حين تعلمت المشي على الماء مثل المخلِّص. كنا نعيش في القذارة والأسمال، لكن كان كل شيء لنا. القصور الرخامية وبواباتها ومداخلها الحجرية المقوّسة كالشرائط الناعمة، والميناء، حيث كانوا يحمّلون الشحنات ويفرغونها ليلاً ونهاراً، ينقلون الذهب والعاج والفضة والعنبر واللآلئ وزيت الورد والحرير والمخمل والكتان. كل ما يمكن شراؤه من الأسواق الشرقية بالقسطنطينية وكل ما صُنع في ورش جزيرة كريت، أو في بيوت الأزياء الفرنسية أو في مصانع السلاح الإنجليزية: كان يُقذف بكل شيء هناك، في الميناء بالبندقية، وكان كل شيء لنا، ولي أنا أيضاً، لأنني من أبناء البندقية. كنت أعي ذلك وأنا ألعب في صغري، وحين صرت رجلاً، وحين وقفت على جسر ريالتو، ورأيت أقوام العالم يأتون بمتاعهم ويقذفون به عند أقدام البندقية، فهمت حينها أن ما يجلبونه من ذهب ولبان وشجر المر

إنما يأتون به عشقاً للبندقية. لقد اتهمني سعادة النائب العام، ذلك البيروقراطي، كلب محكمة التفتيشة البوليسي، بانتحال لقب نبيل زوراً، مع ذلك من في العالم أجمع يحق له أن يعي نبله أكثر مني أنا، المولود في البندقية؟... أرني من في العالم من باباوات أو أباطرة أو ملوك أو أمراء أجدر بمنح لقب نبيل من ملكة العالم أجمع البندقية مسقط رأسي؟ كان أمي وأبي من البندقية، وأنا وعشيرتي ولدنا جميعاً هناك، هل من عظَمة أو نبل أكثر مما لدينا؟... هل بدأت تفهم؟ ليس لك أن تسبّ البندقية!»

وقف شاحباً تحيط بعينيه هالات، كأنه في غمار نشوة. ظل بالبي يتحسس عنقه ويتنفس بصعوبة بعد الخوف الذي رآه. تمتم وهو يصر على أسنانه المتكسرة:

- «فهمت جياكومو، الآن فهمت، ليأخذك الشيطان. أدركت حقيقة أنك من البندقية. لكن إن لمست عنقي مرة أخرى سأنزع فمك من وجهك بأسناني».

أجابه جياكومو ضاحكاً:

- «لم أكن لأؤذيك. يمكنك الآن أن تذهب وتلعب إن شئت. سنقضي عدة أيام في بولزانو لأن لدي ما يجب أن أفعله هنا: عليّ أولاً أن أكتب لسنيور براجادين وأنتظر رده، وبينما ننتظر علينا أن نجد ملابس جديدة لأنه من دون الأناقة حتى نبيل البندقية يبدو كمتسول. نعم، لدينا ما نفعله هنا في بولزانو، لكننا سنستأنف سفرنا مجدداً في نهاية الأسبوع. سآخذك إلى ميونيخ لتزور النظام الذي أنت منه، ولم تعد منه للأسف. أقداري ككاتب تناديني لأبعد من

ذلك. لينتظر الانتقام، فهو في أعماق قلبي مع ذلك ولن يفتر. عليك أن تربّي الانتقام كما تربي أسداً حبيساً، تطعمه يومياً قطعة لحم نيئ، البقايا الدموية لما تذكره من إهانات، حتى لا يفقد ذائقته للدم. لأنني يوماً ما سأعود للبندقية! لكن حتى ذلك الحين لا يحق لأحد غيري أن يسبّها. ستظل نيران الانتقام مشتعلة، لكنه أمر خاص بيني وبينها: بيني وبين محاكم التفتيش، بيني وبين النائب العام، بيني وبين أبناء البندقية. إن كنت تخاف على حياتك ذرة، لا تمس البندقية، لأنني بالتأكيد كفيل بها، لا يغرنك الأمر. وسجّل كلماتي يا بالبي، إنني أعني البندقية وليس أبناءها. لا أحد يعرفهم أفضل مني أنا الذي ولدت بينهم، دمي دمهم، دم الذين أهانوني ونبذوني، من ذا الذي يعرفهم أفضل مني أنا الذي عرّفت الكاردينال على دعارة الذكور؟ وحصلت على قرض لعضو مجلس الشيوخ المسئول عن الشئون الفنية من أموال الدولة المخصصة لأيتام الجمهورية، وقدّمت المطرب الخصيّ لسعادة رئيس لجنة الإشراف؟ ورأيت أصحاب المقام الرفيع، وأصحاب الفكر، والمتدينين، يتسللون بعد غروب الشمس من باب منزل مدام ريتشي المشبوه وهم يرتدون أقنعتهم، وياقات قمصانهم مقلوبة؟ وأعرف أن سعر حياة الرجل في البندقية خمس قطع ذهبية، أحفظ عن ظهر قلب عناوين القتلة المأجورين الذين يقضون نهاراتهم في حانات الشوارع الجانبية بالقرب من سوق السمك يعرضون سمومهم وخناجرهم لخدمة أصحاب المقام الرفيع وأصحاب الفكر والمتدينين، بصراحة ووضوح كما يعرض الباعة الجائلون المتدينون شموعهم وأيقوناتهم؟ من غيري يعرف ما حدث لـلوتشيا، ابنة المبعوث البابوي المتبناة وعشيقته

السرية؟ كيف اختفى كل أثر لها؟ من هو الذي في موقف أفضل مني ليعرف مِن مَن ومن أين أتوا بالإبرة والخيط والخيش الذي خاطوه، في إحدى ليالي عيد القديس ميخائيل، حول جثة باولو، الابن الجامح لجلالة سموه؟... من باستطاعته أن يكشف عن العفن الذي مازال في أقبية منازل بعينها في البندقية، وأي رأس تخص أي جذع، فيما يطفوان على سطح القناة الكبرى عقب آخر أيام الكارنفال؟ هؤلاء هم!..». صاح وهو يخبط الطاولة التي اهتز سطحها البلوط الضخم. «هولاء هم الذين حكموا عليّ! قتلة آبائهم وأبنائهم، مرابون، شرهون، طفيليون، يتغذون بضرائبهم على دموع اليتامى ودماء الأرامل ـ ويجرأون على الحكم عليّ! مجرمون! لصوص! ظالمون! سجّل كلماتي يا بالبي، يوماً ما سأعود للبندقية».

ـ «نعم»، وافقه الراهب ورسم الصليب على نفسه وقال: «لكنني لن أذهب معك إلى هناك يا جياكومو!»

نظر أحدهما للآخر بسخط، ثم أخذا يضحكان فيما يحدّق أحدهما في الآخر، وسرعان ما جرفتهما نوبة ضحك صاخب لا سبيل للسيطرة عليها.

ثم قال جياكومو:

ـ «أرسل في طلب الحلاق، وكوب مشروب شوكولاتة، وحبر، وقلم بسن ناعم، وورق للكتابة. يجب أن أكتب لسنيور براجادين، الذي كان أباً لي حين لم يكن لي أحد. لربما استطعت الضغط عليه ليقرضني مائة قطعة ذهب أو نحو هذا. انتبه يا بالبي: لا تنس أنك سكرتيري وخادمي. وقد نضطر للبقاء لبضعة أيام قليلة أخرى في

بولزانو. سِر بحرص، ابقِ عينيك مفتوحتين، لا تقضِ وقتك في اللهاث خلف تنانير خادمات المطبخ، لأنه لحمامة سمينة مثلك، يوجد دائماً قفص مثل الليدز في الانتظار. وأنا لن أنتزعك من خلف القضبان ثانية. تحرّك. ثمة مصرفي في هذه البلدة، رجل يدعي مينش، مراب معروف. اعثر على عنوانه».

صرف رفيقه في السفر بإيماءة تعلّمها من البابا- مّد اليد الممهورة أصابعها بالخواتم لتقبيلها- ثم توجه صوب المرآة وبحركات حذرة ودقيقة أخذ يمشط شعره.

فرانشيسكا

أحضرت تيريزا مشروب الشوكولاتة وأخبرته أن جيسيبي، الولد الأشقر الحلو ذا الوجنتين المتوردتين والعينين الزرقاوين، قد وصل وهو في انتظار أوامره. أعطى جياكومو الفتاة نقوداً لتبتاع له جوارب بيضاء من محل الملابس الرجالي الحديثة القريب ـ وبالآجل ـ طلب زوجين من القفازات الضيقة وزوج من الأحذية بإبزيم أيضاً. باشر الخدم الآخرون عملهم على أطراف أصابعهم فيما يدلك الحلاق وجهه برغوة الصابون، غيّروا ملاءات السرير، سكبوا ماءً ساخناً في الأحواض، وكووا له ملابسه، ظل طويلاً يقنع تيريزا بأهمية تنشية كشكشات صدر قميصه جيداً. تحركت يدا الحلاق الناعمتين على وجهه تفرك رغوة الصابون، ثم، ككقائد الأوركسترا، غزل ومشّط كل تعريجة بخصلات شعره في مكانها.

قال الضيف وهو يمد أطرافه على المقعد وعيناه مغمضتان:

ـ «حدثني، ما الأخبار في البلدة؟»

ـ «الأخبار في البلدة؟» بدأ الحلاق الحلو الأشقر بصوت مغناج

مخنّث قليلاً، ولثغة خفيفة، « أنت الأخبار يا سيدي. لا شيء آخر في بولزانو منذ ليلة أمس. أنت فقط. هل تسمح لي؟» سأله وبدأ بمقصه يقصّ الشعرات البازغة من فتحتي أنف الضيف الواسعتين.

- «ماذا يقولون؟» خرج السؤال بنبرة رضا. «أخبرني بالأسوأ والأفضل».

- «لا يوجد سوى الأفضل سيدي». أجاب الحلاق وهو يطرقع بمقصه في الهواء، ثم أمسك مكواة الشعر الساخنة، ونفخ فيها، وأدارها في الهواء، وتابع: «هذا الصباح، كالمعتاد، كنت منذ طلوع الفجر مع سعادته. تجدني هناكَ كل صباح. يجب أن تعرف، سيدي، أن سعادته يخصّنا برعايته. ويشرّفني إنني أحلق له وأعد له باروكته؛ لأن سعادته - وهذا سر بيني وبينك - صار أصلع تماماً. إن رب عملي، بارباروتشيا الشهير - يقولون أن لا أحد، ولا حتى في فلورنسا، يضاهيه في قطع العروق أو استعادة الفحولة بوصفة أعشاب خاصة - هو حلاق سعادته وطبيبه. ووظيفتي، كما ذكرت، أن أحلق له. وزوجة السنيور «بارباروتشيا» تقوم بتدليك جسده مرتين في الأسبوع، وحين يشعر بالحاجة للتدليك أيضاً».

- «بالتأكيد لا، هذا غير ممكن!» قال ببرود. «هل يحتاج سعادته لمقويّات وتدليك؟..».

- «منذ أن تزوج فقط يا سيدي» أجاب الحلاق وبدأ تجعيد شعره الكثيف بمكواة الشعر الساخنة.

كان يستمع للأخبار بنصف تركيز، مدد جسده مستمتعاً بلذة

اللحظات الرائعة حين يسلم المرء رأسه لأصابع الحلاق الناعمة. كانت أصابع جيسيبي رشيقة لكن حديثه كان أكثر رشاقة. كان صوته ناعم خفيف ورقيق، كصوت الربيع، يملؤه لثغ، ونميمة تزوغ لها الأبصار؛ كان يتحدث على النحو الخاص بالحلاقين، الذين يصيرون فوراً أصدقاء وخبراء ومستشاري وأمناء سر هؤلاء الذين لا تخفى أسرارهم على أحد في البلدة. يعرفون عن الأجساد التي تتقدم في السن، وعن الحجامة، وفروات الرأس التي تفقد بريقها السابق، وعن ارتخاء العضلات، والصرير الواهن للعظام الهشة، واللثات الخالية من الأسنان ورائحة الفم الكريهة، وعن التجعدات حول العينين وعند الصدغين، يصغون بانتباه لكل شيء تنطق به أفواه زبائنهم الشاحبة. «ثرثر بعيداً!» فكّر جياكومو بينه وبين نفسه وهو يمدد جسده ثانيةً، مستسلماً للصوت المخنث، لرائحة احتراق الكحول اللطيفة للصبغة أعلى جبينه، ومسحوق الأرز المنثور على باروكته. يستمتع بنصف الساعة هذه في تلك البلدة النائية، كما يفعل في كل بلدة نائية، تلك اللحظات، حين يستيقظ ويرسل في طلب الحلاق، الخائن الرسمي بالبلدة، الذي يطرقع بمقصاته ويهمس بأسرار الأحياء والأموات. كان يشجع الشاب الرشيق بنظرة استغراب أو تعبير هامشي مثل «حقاً؟ أصلعاً تماماً؟»- يقولها باندهاش تهكمي كأن هذا هو أهم شيء في العالم، مع ذلك كانت لديه تساؤلاته الخاصة بشأن حالة سعادته التي صارت تتطلب تغذية وتدليك بعد الزواج. سأل بثقة وهو يضيّق عينيه:

- «لكن بالتأكيد تبقت له خصلات قليلة على قفاه على الأقل؟»

ـ «نعم»، أجاب جيسيبي بزهو، بطلاقة إيثارية لشخص على استعداد للكشف عن معلومات أكثر قتامة وكآبة. «لكنها خصلات خفيفة، خفيفة للغاية. إن سعادته راع عظيم لنا. إن رب عملي، سنيور بارباروتشي، أحد المفضّلين لدى سعادته، وأنا أيضاً. وهذا الأمر لا يضرّنا في شيء. نطلب له بطارخ من جرادو لفتح شهيته، وتعد له زوجة سنيور باباروتشي شراب مخمّر من جذور الشمندر والفجل الحار والبصل الأخضر لدرء السكتة الدماغية في حال داهمته أفكار شهوانية خاصة. لقد ذكرك سعادته سيدي».

ـ «ماذا قال؟» سأل وقد وسّع عينيه دهشة.

ـ «إنه فقط يريد أن يراك»، أجاب الحلاق كتلميذ مطيع. «إن سعادته، دوق بارما، يريد أن يراك، هذا كل شيء».

أجاب بلا مبالاة:

ـ «أنا ممتنّ جدّاً. سأقدم احتراماتي لسعادته إن اتسع الوقت».

هكذا ظلا يثرثران، إلى أن فرغ الحلاق من مهمته وانصرف.

«دوق بارما». تمتم ثم اغتسل وارتدى الجوارب البيضاء التي تركتها له تيريزا على حافة الفراش، شرب مشروب الشوكولاته، لعق أصابعه ومسّد حاجبيه الأشعثين وهو واقف أمام المرآة، وقلم أظافره بشفرة حادة، ارتدى قميصه، وعدّل الطيات المكوية جيداً بأطراف أصابعه فيما كان يمسّ عنقه من حين لآخر بسبابة وبنصر يده اليمني، كأنه يجرّب مقاس الياقة أو يتأكد من أن رأسه مازال في مكانه. «دوق بارما! يرغب في رؤيتي إذاً». لم يفكر في هذا وهو هارب أو حين

استأجر العربة لـبولزانو. صفّر بهدوء، أوقد الشموع الموضوعة أمام المرآة إذ كانت آخر خيوط النهار قد ألقت على الحجرة بظلالها البنية الزرقاء، جلس إلى الطاولة ذات الأرجل المنحنية، رتب الأوراق، الحبر، ورمال للنشاف، ومال بنصفه الأعلى للوراء قليلاً وهو يمسك قلم من ريشة أوزة ويرفع أمامه، ارتفع حاجباه بريبة، حدق النظر في المرآة بانتباه وفضول. لم ير نفسه هكذا منذ أمد طويل، في ظروف ملاءمة تماماً لكاتب. لم يجلس هكذا منذ أمد طويل، في غرفة بأثاث لطيف، أمام مدفأة، في قميص مُنشّى حديثاً، وجوارب بيضاء طويلة لامعة، بيده ريشة حقيقية، مستعداً للإنتاج الأدبي في أنسب أوقات العزلة والتأمل، مأخوذاً تماماً بالمهمة التي هو بصددها، التي لم تكن في هذه اللحظة سوى كتابة خطاب توسّل لسنيور براجادين، ليس أكثر أو أقل. «كيف يكون مثل هذا الخطاب!» فكّر بارتياح، كما يفكر شاعر في قصيدة ترن قوافيها الأولى بالفعل في أذنيه. «دوق بارما!» فكر في نفسه ثانيةً، تجذبه حزمة أفكار لم يستطع صرفها من ذهنه. «أمازال على قيد الحياة؟..». أخذ يحسب بصوت عال وهو يزم شفتيه.

قال بصوت عال: «أربعة»، ثم حدّق في السقف بشرود، يجمع ويطرح، ثم أعلن بدقة تاجر «لا، خمسة!». حدّق في لهب الشمعة بدهشة وشرود. «أنا شاعر سيكتب قصيدة»، فكّر: الريشة في يده، ظهره مستند على المقعد، أمامه طاولة الكتابة والمدفأة، شعره ممشط بخفة، ملابسه نظيفة ومنشّاه. كان يستمتع بالموقف. فكّر مرة أخرى: «خمسة» بشيء من قلق هذه المرة ورفع أصابع يده الخمسة كأنه يُري شخصا ما أو يؤكد له، كطفل يقول «ليس ذنبي!»

«خمسة»، غمغم وعضّ بقسوة على شفته السفلى وهو يهزّ رأسه. أشاح بعينيه ثم عاد يحدق في لهب الشمعة ثم في الظلال العميقة بالحجرة، ثم أخيراً في الأفق البعيد، في الماضي، في الحياة نفسها. أطلق فجأة زفرة خافتة كمن وجد شيئاً كان يبحث عنه ونطق الاسم: فرانشيسكا.

رفع الريشة وخط الاسم في الهواء بدهشة كأنه يقول، «ليأخذه الشيطان! ماذا عساي أن أفعل؟» مدّد ساقيه في الضوء القرمزي للنار، تنفس الدفء العابق، قام ألقى بالريشة وجلس يراقب النار مفكراً بينه وبين نفسه: «إنها «هي»، فرانشيسكا!» ثم عاد يكرر مرة أخرى: «دوق بارما! بولزانو! يالها من مصادفة!» لكنه يعرف أن لا شيء يُدعي مصادفة، وأن هذه أيضاً ليست مصادفة. رأى كل شيء بوضوح فجأة، كأن مئات الشموع قد أوقدت في الحجرة. سمع صوتاً وميّز الرائحة المألوفة لنبات راعي الحمام تنتشر في عقله، رائحة مبهجة لملابس داخلية أنثوية مكوية حديثاً. فكر بينه وبين نفسه مذعوراً قليلاً، نعم، مرت خمسة أعوام، كان السيل القذر المتدفق لتلك السنين الخمسة قد جرف كل ما قبله، كل شيء بما في ذلك «فرنشيسكا»، ومن ناحيته لم يحاول قط إنقاذ ما جرفه السيل. نعم مرت خمسة أعوام: تساءل هل مازالوا يتذكرون الأمر في بيستويا؟ في القصر الذي تخرج منه الكونتيسة العجوز وقت الظهيرة في عربة خيل مغطاة بالبلداشين (حرير بغدادي) متجهة إلى فلورنسا حيث يتنزه الشبّان الجذّابون والأمراء الصغار بالمدينة أمام المحلات الفاخرة بـفياتورنابوني؟ هل مازالوا يتذكرون مبارزة منتصف الليل في بيستويا حيث انتظره الارستقراطي الأصلع العجوز والسيف

في يده وتبارزا في الساحة المقابلة للقصر، في حضور فرانشيسكا الصامتة والكونت العجوز الذي ظل يفرك يديه؟ تبارزا في صَمت، لوقت طويل، يلمع سيفاهما في نور القمر بغضب أصيل يفوق سبب المبارزة نفسه، لم تكن رغبة في الانتقام أو غلاًّ بل مجرد الرغبة في المبارزة، لأن رجلين فانين اثنين يسعيان لنيل فرانشيسكا يعد عدداً كبيراً جدّاً. اعترف لنفسه: «لقد قاتل العجوز جيداً! لم يكن حينها في حاجة لمنشطات زوجة السنيور باباروتشي: نال فرانشيسكا من دون شيء من هذا». أغمض عينيه ليرى بوضوح، عاجزاً عن، أو بالأحرى لا يريد، طرد الصور التي كانت تتضح خلف جفنيه المغمضين شيئاً فشيئاً وتتخذ حجم الصور الحقيقية.

وقفت فرانشيسكا في نسيم الفجر أمام الحائط الحجري المتهدم بحديقة الكونت، نحيلة، في رداء النوم، في الخامسة عشرة من عمرها، شعرها الداكن يغطي جبهتها، وتقبض بيدها عند صدرها على شال حرير أبيض، تحدق بعينين واسعتين في السماء. أكان هذا منذ خمس سنوات؟ لا، بل صليل السيوف فقط هو ما حدث منذ خمس سنوات؛ أما لحظة أن رأى فرانشيسكا للمرة الأولى فكانت مدفونة في شق أعمق وأكثر سرية من شقوق الزمن. وقفت فرانشيسكا هناك أمام سور الحديقة في ظل شجرة سرو، وكانت السماء فوقهم زرقاء صافية، كأن جميع العواطف الإنسانية قد تحللت وذابت في الأزرق الصافي الذي أحاط بكل شيء. كانت الرياح تطوّقها، تلصق الطيات الناعمة لرداء نومها بجسدها الغض كلباس بحر. بدت كمن صعدت لتوها من حمام سباحة منحوت من الليل والأحلام، جسدها يتلألأ مبللاً بالندى، وفي زاويتي

عينيها سائل لامع يصعب تحديد طبيعته، هل هو قطرة دمع أم قطرة ندى خرجت على غير العادة من أعماق كأس الزهرة لتتخذ مهداً جديداً في أهداب فتاة شابة... وقف هو أمامها واستمع. يفكر الآن إنها الرغبة فقط ما جعلته يستمع بهذا التركيز. كنت أميل للتحدث كثيراً، كثيراً جدّاً في الحقيقة، لكنني حينها استمعت، في بيستويا، عند سور القلعة المتهدم، في الحديقة، حيث تنمو أشجار الزيتون باستهتار، وتقف أشجار السرو هنا وهناك متجهّمة كما يعنّ لها، كحاملي رماح الطبر[1] لملك منفي. انسلّت فرانشيسكا من فراشها في القلعة وخرجت في الليل، خارج طفولتها وخارج حياة آمنة، إلى الحديقة حيث كان هو ودوق بارما قد تبادلا بطاقتي المبارزة في الصباح. الآن يشعر ويبصر بكل شيء، التقط شذى هذه الصبيحة فاعتملت بداخله غيرة وانفعالات أخرى ثقيلة، ذكري لحظات لا يختبرها سوى الذين لم يعودوا شباباً بعد الآن. لأن فرانشيسكا كانت الشباب، وكذلك تلك الحدائق الصامتة: لربما كانت آخر لحظات شبابه نفسه في حديقة الكونت المفقَر ببيستويا؛ الركائز الرثة الكئيبة المبالغ فيها على نحو مسرحي لذاكرته المتداعية، ذاكرة تتحلل تحت ضغط السنين؛ مشهد آخر يمثّل شبابه كان منذ سنوات عديدة في حديقة بتوسكانا تحت سماء زرقاء وقف مع فرانشيسكا بجوار سور الحديقة والريح تتطاير بشعرها وملابسها، عيناها مغمضتان، وكانا يستمعان، مرتبكين وثملين بشعور، يظل حتى هذه اللحظة، ينشب مخالبه فيه ويضنيه. فكر بينه وبين نفسه

(1) سلاح قديم مؤلف من رأس فأس مركبة في رمح.

«كم كانت فائقة الحسن!» وضغط بقبضتيه على عينيه أكثر. كانت كأنها مروية بالضوء، تتدفق منها طاقة عذبة، ومع ذلك مزعجة، لتمسّ الرجل الواقف أمامها. نعم كانت مفعمة بالضوء. كان ذلك أندر إحساس طراً، اعترف لنفسه بقناعة ذائقة خبير. كان بها ضوء، كان المرء ليشعر وهو ينظر لعينيها كأن مصابيح العالم كله قد أُشعلت، وصار كل ما يحيط به أزهى، وأصدق، وأقرب لجوهر الأشياء. وقفت فرانشيسكا كالفاقدة الوعي، ولم ينبس هو ببنت شفة حين عبر غريمه العجوز بوابة الحديقة، ومد ذراعه لـفرانشيسكا واصطحبها ودخلا البيت. كان هذا كل شيء، وبعد ذلك بعام، في المكان نفسه، في أحد أركان الساحة المقابلة لبوابة القلعة، ولعله في الساعة نفسها من اليوم، تبارز رجلان بالسيوف.

فكّر ثانيةً وهو يزم شفتيه باحترام، لقد قاتل العجوز جيداً، وابتسم بمرارة. أكان هذا كل شيء؟... لعلها، ببساطة، مغامرة الشباب، آخر سنوات الشباب الحقيقي، تلك الفترة المثيرة الغامضة حين يترك، حتى الرحالة العصبي المزاج، اللجام على الفرس، وينظر حوله وهو يمسح جبينه ويري الطريق أمامه وعرة، والشمس في الأفق البعيد، وراء الغابات والهضاب، آخذة حقاً في الغروب. كانت الحياة مازالت بزهوها حين قابل فرانشيسكا لأول مرة، كان ذلك في عزّ الظهيرة. وقفا في أحد وديان توسكانا. كان قد وصل لتوه من روما، جيوبه مثقلة بذهب الكاردينال وخطابات التقديم. كان السفر مختلفاً حينذاك، فكر بينه وبين نفسه برضا وحنق قليل. قليلون من يستطيعون السفر كما كنت أسافر، قال لنفسه بكبرياء. كان يتمتع بثقة في النفس أصيلة ووقحة، كفنان بلغ قمة مجده: «ياله من عزف على

هذه القيثارة! رائع! هل من منافس؟... ليحاول!». قليلون حقاً من يستطيعون السفر كما كان يفعل، وأقل منهم من يمكنهم الوصول على نحو ما كان يصل، في تلك الأيام الرخيّة، منذ خمس سنوات! لأن انتزاع الأشياء على مسرح السلوك الإنساني خدعة، وهو على دراية بكل الخدع المسرحية؛ فهو يعلم أن ثمة طريقة لاختيار الجياد، المعدات، أبعاد العربة، ونعم، حتى لاختيار زي السائق؛ يعلم أن على المرء أن يتقن فن الوصول إلى قصر مضيفه أو إلى نزل فخم، كما يتقن فن العبور بالعربة عبر بوابات مدينة أجنبية وظهره مستنداً على ظهر مقعده في عباءة السفر الرمادية ذات الحواف الأرجوانية، ويرفع منظاره الذهبي بيدين في قفازاتهما، ويعقد الساقين بطريقة لامبالية ومثيرة قليلاً، مثلما يسافر أبوللو نفسه في مركبته الحربية النارية ذات الأربعة جياد فجراً حول عالم أقل ما يشعر به نحوه في الحقيقة هو الاحتقار.

تلك هي الخدع التي عليك أن تتقنها؛ هذه هي أفضل السبل للسفر والوصول! قليلون أولئك الذين يعرفون تلك الخدع! قليل جدّاً من الناس يفهمون ضرورة أن ينشغل جميع الخدم، خلال نصف ساعة فقط من وصول المرء إلى النزل أو إلى قصر المضيف، بخدمته هو! على هذا النحو وصل يوماً ما إلى بيستويا، نزل في دار الكونت الفقير قريب الكاردينال الذي كان بدوره، يرسل بركاته للأسرة، للكونتيسة السمينة ولفرانشيسكا، طفلته الغالية. أقام هناك شهراً، كان تسلية الأسرة، قدم هدية من مائتي دوقية (عملة ذهبية أوروبية) في صندوق ذهبي للكونت، وعاد مرتين في العام التالي، وبنهاية ذلك العالم في إحدى الليالي المقمرة، بارز غريمه الكهل،

دوق بارما. فتح قميصه وتحسس الجرح على صدره.

تحسس الندوب بأطراف إصبعه، يفصّلها ويتذكرها. خط من ثلاثة ندوب إلى اليسار، ثلاثتهم فوق القلب تماماً، كأن أعداؤه يصوبون نحو قلبه تحديداً بالغريزة وعن عمد مع ذلك. كان أهمها وأعمقها وأقساها هو الذي يدين به لسعادة دوق بارما وفرانشيسكا، وضع سبابته على الندب الميت الآن. كانت المبارزة بسيفين ذوي حدّين، التف حدّ سيف الدوق التفافة غادرة فوق قلبه، ظل الجرّاح يحاول تجفيف الدم والقيح من الجرح العميق لأسابيع؛ كذلك كان ثمة نزيف داخلي ما، قرر المصاب على إثره، بعد نوبات الحمى والهذيان شبه الواعي ووصلات الصراخ والألم الذي يفوق الإدارك، أن يودّع المغامرة. رقد في فلورنسا بمشفي راهبات الرحمة حيث نقلوه في عربة الدوق ليلة أن جُرح. لم ير فرانشيسكا منذ ذلك الحين، وقد وصله خبر الخطبة بعد ذلك بثلاث سنوات فقط حين كان في البندقية، في حفلة رقص تنكرية، على لسان السفير الفرنسي الذي كان يشير بأسف إلى ابن عم الدوق الأكبر، قريب من بارما لجلالة الملك، الذي ضرب عرض الحائط بمكانته وبمعارفه من ذوي المقام الرفيع. وقام ببله وحماقة أرذل العمر بالزواج من أوزة قروية صغيرة من توسكانا، شيء ما يشبه نصف فلاحة نصف كونتيسة. ابتسم حينها وبقي رابط الجأش. لم يعد الجرح يؤلمه، فقط حين تزيد رطوبة الجو كان يشعر بوخزة خفيفة فيه. هكذا مضت الحياة قدماً ولم يذكر أحد اسم فرانشيسكا ثانية.

لماذا ظللتُ واعياً بها طوال تلك السنوات؟ تساءل بينه وبين نفسه، وبعدها أيضاً حين تلقيت الجرح الثاني، هذا الخط المسنن

الطويل، أعلى بطاقة الزيارة التي تركها لي دوق بارما مباشرة، ذلك الخط الغاشم عبر الصدر، الذي تسبب فيه سيف القاتل المأجور الذي استأجره أورلي محترف النصب في القمار فجراً حين كنت أغادر حانة القمار بمورانو وجيوب معطفي مترعة بذهب كسبته بشق الأنفس من مصرفي محتال ومن محتالين آخرين. ذهب كسبته بالاستخدام الحصيف لسرعة البديهة وسرعة الأصابع، لماذا ظلت صورة فرانشيسكا واقفة عند سور الحديقة تحت سماء توسكانا الزرقاء تأتي لذهني خلال تلك الأيام التي قضيتها بين الحياة والموت بعد هذا الحادث؟ والندب الثالث، ذلك الخمش الغريب الذي سببته تلك المرأة اليونانية بأظافرها الحادة، ويؤلم أكثر من أي جرح أو شق تسبب فيه الرجال، ذلك الجرح الغامض الذي رشحت منه سموم الموت لجسده، كان أوهن من وخز الإبرة لكنه بلغ من الخطورة أن ظل السنيور براجادين وأفضل الأطباء بمجلسه يثيرون جلبة حول فراشه لأسابيع، ظلوا يعذبون المريض المسكين بالحقن الشرجية وجلسات الحجامة، إلى أن جاء يوما كان قد أضجره الاحتضار، فطلب عصير برتقال ومرق لحم، وأتم شفاءه ببساطة ـ لماذا ظل، في هذيانه تحت تأثير هذا السلاح الأنثوي المميت، يري صورة فرانشيسكا وينادي عليها؟ «لعلني أحببتها..». قال متأملاً بدهشة صادقة، طفولية تقريباً، وحدق في المرآة أعلى المدفأة. «السماء وحدها تعلم.. لعلني كذلك!.». فكر بينه وبين نفسه ونظر حوله بخدر ورع.

لكن الحياة أثبتت رسوخها، أقوى حتى من رسوخ ذكرى فرانشيسكا، فكان كل يوم فيها يأتي بشيء مدهش شريطة أن يظل المرء معافى ولا يهاب شيئاً. ماذا كانت فرانشيسكا خلال هذه

السنوات، حين كانت العملات الذهبية تسيل من بين أصابعه لموائد القمار، وراحات النساء، وجيوب الخياطين حديثي الطراز، وقبضات المعارف العاطلين، وأيدي كل من تصادف وجوده حوله، وحين كان في حاجة للعلاج من السفلس المريع أو لمن ينقذه من سأم سرّي مخيف؟ «أنا كاتب»، فكر بينه وبين نفسه، «لكنني لا أحب البقاء وحدي». أمعن فكره في هذه الظاهرة الغريبة. لعله لهذا عانى من قسوة الحياة في عزلة السجن الجبرية، لعل سادة المحكمة التفتيشية الحكماء الماكرين عرفوا رعبه السري، عرفوا أن الضجر والوحدة ضرب من ضروب تعذيبه كما يكون الحذاء الأسباني[1]، أو الكماشات الملتهبة، أو كسر الضلوع على عجلة للآخرين؟ ماذا سيكون الهدف من الحياة، إن انتزع المرء من زحام الحركة الدائبة في العالم. للمرء أن يحلم أو يتخيل أو يفكر أو يتذكر أو يتأمل، في المشاعر القوية التي أحرقتها الحياة حتى باتت رماداً ولا يعوّضه هذا قيد أنملة عن فقدان أكثر التفاصيل إذلالاً وحماقة في حياة يعشها مباشرةً! أي شيء إلا العزلة! فكر وهو يرتعش. الأفضل أن يكون المرء فقيراً بائساً، أن يهزأ به الآخرون ويحتقرونه، يظل بمقدوره مع ذلك أن يتسلل خلسة نحو الضوء ويجثم هناك حيث الأنوار والموسيقى، حيث يتزاحم البشر ويستمتعون بالشعور البهيمي اللزج كريه الرائحة والحلو على نحو مبهج للمجتمع الذي تشكله الحياة البشرية. كانت الحياة بالنسبة له هي الصحبة، ولا أكثر: كان دائماً برفقة أصحاب، دائماً يعرض متاعه في السوق

(1) أداة تعذيب لسحق القدم والساق.

بلامبالاة لأنه يريد أن يكون في السوق. عشق الضجة، القرب من الأجساد الأخرى، الإحساس الخالص بالمغامرة القرصانية فيها. كانت المساومة أحياناً بخشونة وفظاظة، وأحياناً أخرى برقيٍّ ودهاء، لكنها في أغلب الأوقات لعبة، منافسة يتقبل المرء فيها كل من يأتونه كما يتقبل أقداره نفسها. السوق هو مكانه الوحيد، مكان الكاتب الذي بداخله. السوق هو الحياة نفسها. هرش أذنيه وشعر بقشعريرة باردة تزحف في عموده الفقري.

لهذا أنزل به معذِّبوه الماهرون الأرفع مقاماً منه عقاب العزلة. قدرٌ أسوأ من الموت. فكر بينه وبين نفسه بتقزّز. اربعمائة وثمانية وثمانون يوماً! والذكريات! كل ذكرى منها روح مُدانةٌ أخرى. وأحياناً الصورة، تلك اللحظة الساطعة بالأزرق والأبيض في الحديقة بتوسكاني: فرانشيسكا! وجهها هو الوجه الوحيد الذي لم يتفرّس فيه بالفضول الصفيق الذي اعتاد أن ينظر به لوجوه النساء. كان وجهها يلحّ بعناد أشد وأقوي من الواقع نفسه، حتى في سجنه في العالم السفلي حيث رجال أحياء يبكون وينشجون. كانت مناسبة عادية جدّاً حين تقاطع طريقاهما للمرة الأولى. كان قريب الكاردينال يسليه في معطف بمرفقين باليين، في غرفة مزدحمة بمرايا غائمة وأثاث فلورنسي بأرجل مكسورة، ورياح شبه الجزيرة الإيطالية تصفر من خلال النوافذ المتصدعة، كما في البيوت التي يأخذ فيها ليس الجصص فحسب في التداعي، بل الآداب نفسها، إذ كان الخادم ماكراً وانتهازياً ومهذاراً، وسميناً. لم تعد الكونتيسة تهتم سوى بالرحلات العرضية إلى فلورنسا في عربتها الرثة، رحلات قصيرة قد تشتمل في مسارها على حفلات رقص صاخبة

حيث يمكنها أن تلمح شبحها وهي أجمل وأصغر. كان الكونت يربّي الحمام، وكعجوز مثير للشفقة، كما كان حقاً، كان ينتظر بندم وخوف وصول رسول من روما تعوّد أن يأتيه في الثالث من كل شهر بالذهب البابوي في كيس نقود من الحرير الأرجواني، معاشه المتواضع الذي يرسله له الكاردينال. كان البيت يعج بالأحلام والعناكب والخفافيش. وكانت كلمات فرانشيسكا الأولى له هي «ماذا في روما؟..». وهي تحدق فيه بعينين واسعتين وعلى وجهها تعبير رهبة. ولوقت طويل بعد هذا لم تنبس ببنت شفة.

نضج هذا الحب ببطء، استغرق وقتاً كالفاكهة، تغيير في الفصول، بركة ضياء الشمس وأريج المطر، سلسلة من طلعات الفجر حين كانا يسيران في الحديقة المنداة بين أجمات الزعرور المزهرة، تدور بينهما محادثات حيث كلمة واحدة قد تنير المشهد فجأة في قلبها الحنون الهادئ، كان كأنه ينظر إلى الماضي على أطلال، كرنفالات منتهية حيث تتسارع عربات ذات عجلات مذهّبة في ممرات حدائق منمّقة ومعتني بها جيداً مارة بأناس في ملابس زاهية الألوان ذوي ملامح خشنة، جبارة، وخبيثة. كان في فرانشيسكا ثمة شيء ما من الماضي. كانت في الخامسة عشرة من عمرها، ومع ذلك كانت كأنها قد خَطَت خارجة من قرن آخر مختلف، كأن إله الشمس قد رآها ذات صباح في المرج الأخضر بقصر فرساي تلعب بطوق مزيّن بورق ملوّن فاستدعاها لحضرته. كان في عينيها بهاء يُذكّر بنساء من أزمنة غابرة، ممن يخاطرن بحياتهن من أجل الحب. لكنه هو من كان يخاطر بحياته، هو الغريم، أحد نذر الشؤم، حين جرحه خصمه العجوز الثري على نحو مهيب، والارستقراطي على نحو مزعج، في

صدره العاري فوق القلب مباشرة. تابعت فرانشيسكا المبارزة من نافذة بالطابق العلوي. وقفت ساكنة، شعرها يتهدل في خصلات متموجة على كتفيها الغضّين الناعمين، في رداء النوم الذي طلبه لها دوق بارما من ليون منذ أيام قليلة، إذ كان قد تولّي بنفسه مهمة تجهيز عروس المستقبل، مكدّساً أكوام من الثياب الدانتيل والحرير والكتان في صناديق خاصة. وقفت بهدوء في نور القمر في نافذة بالطابق الثاني، ذراعاها معقودتان على صدرها تراقب الرجلين، الأكبر والأصغر، اللذين كانا على استعداد لسفك دمائهما من أجلها. لكن لماذا؟ لعلها سألت نفسها إذّاك. لم يكن أحدهما ليترك للآخر شيئاً ولا ليسلبه شيئًا، لكن ها هما، يتقافزان في الليل الفضّي، بجذعيهما، عاريين، يتلألأ نور القمر على حدّي سيفيهما، يلمع الصلب كلمعان الكؤوس الكريستال، وباروكة الدوق مائلة قليلاً في حمية المعركة لحد أن خافت فرانشيسكا على هذا الخصم النبيل، سعادة دوق بارما، أن يفقد عُرفه الصناعي. رأت بعدها الرجل الأصغر يسقط. ثبّتت نظرها لترى إن كان سينهض. شدّت الوشاح الحريري حول كتفيها. انتظرت وقتاً أطول قليلاً، ثم تزوجت دوق بارما.

غمغم جياكومو «يريد رؤيتي! ماذا يريد مني؟» تذكّر على نحو مبهم إشاعة كان قد سمعها ذات مرة: أن سعادته قد ورث بعض أراضي في بولزانو وبيت في الجبال. لم يكن يشعر بالحقد وهو يفكر في الدوق. لقد قاتل الرجل جيداً. كان ثمة شيء ما فخم واستبدادي في الطريقة التي نقل بها فرانشيسكا بعيداً عن منزل الأحلام والعناكب والخفافيش، ولم يسع جياكومو الآن سوى أن يعجب برفعته الأرستقراطية، إذ لم يعد يتذكر لون عيني فرانشيسكا

بوضوح. «كان إغواءً فاشلاً»، قال لنفسه وهو يحدّق في النار. «لكنه قد يعتبر أيضاً أحد أعظم انتصاراتي. لم تكن فرانشيسكا حبيبتي أبداً. لعلني كنت غبياً وشديد الحساسية وكنت فقط أشعر بالشفقة عليها. لعله كان خطأً جسيماً، لعله حتى، إثم لا يغتفر، لا نكران ولا نسيان، مع كل هذا كان فيها شيء ما غير عادي. لعله كان من الأفضل لي أن أعيش معها، أن نحتسي معاً مشروب الشوكولاتة في فراشنا في الصباح، أن نذهب إلى باريس لأريها الملك والسيرك الجوّال في سوق «سانت جيرمان»، أعدّ لها مدفئة السرير حين تنتابها آلام معوية، أشتري لها تنانير وجوراب ومجوهرات وقبعات من الطراز الحديث وأتقدم معها في السن فيما تخبو أضواء المدن والمناظر الطبيعية والمغامرات والحياة نفسها. أظن أني فكرت في هذا حين وقفتْ أمامي في الحديقة تحت السماء الزرقاء. «لهذا هربت منها!» كانت فكرة وليدة اللحظة، لكنه تقبّلها بهدوء. عليه أن يواجه قوانين حياته الخاصة. قال لنفسه «هذا ليس من طبعي» لكنه ترك القلم جانباً، ونهض، وأحس بنبض قلبه القلِق.

لعل قلبه ينبض هكذا لأنه تذكر الآن فقط أن الإشاعة كانت على حق، أن فرانشيسكا ودوق بارما كانا قريبين بالجوار. لأنه يعلم تماماً أنه رغم كل شيء فقد يكونان جيرانه، سكان أحد القصور المطلة على الساحة الرئيسية على الأرجح، لعلهما يأتيان في الشتاء من منزلهما في الجبال إلى القرية. والآن إذ يتذكر هزيمته السخيفة والإحساس بالانتصار الحزين الذي يصاحبها، لم يستطع كبح شعوره بأن اللحظة التي رأته فيها فرانشيسكا طريحاً جريحاً على عشب الحديقة بقصر توسكاني لم تكن نهاية ما بينهما، بأنها لحظة لم تحدد أي شيء

حقاً، ليس بوسعك رغم كل شيء أن تحدد أي شيء بمبارزة وقليل من الدماء. كان الدوق، مع أنه أصابه، مهذباً وكريماً ونبيلاً حين حمله بنفسه إلى العربة. كان حينها نصف واعٍ لكنه اندهش من قوة الرجل وهو يرفعه! كان هو، دوق بارما، من قادَّ الخيل التي حملت الجريح إلى فلورنسا، قاد بحذر، متمهلاً عند كل منعطف، يربت بمنديل حريري برفق على الجرح النازف، من دون أن ينطق بشيء، على يقين من معرفته بأن للأفعال صوتاً أعلى من الكلمات. كانت رحلة طويلة ومنهكة، ليلاً، من بستويا إلى فلورنسا، وكان ينزف بشدة، وكانت النجوم تومض من على بُعد، أعلاه، بوميض غريب. كان نصفَ جالس نصفَ مضطجع في المقعد الخلفي. وفي الحمى، كان يري السماء بشكل واهن وضبابي، بل للحقيقة كان كل ما يراه قبة سماوية ببساط قاتم تلمؤها نجوم منثورة هنا وهناك، وقامة الدوق النحيلة المستقيمة تقود الجياد بلجام قصير. قال الدوق ما إن وصلا إلى بوابات فلورنسا في اللحظات الأولى من الفجر:

ـ «ها قد وصلنا. سآخذك لأفضل جرّاح. سيكون لديك كل ما تحتاجه. وما إن تتعافى سترحل من هنا. ولن تعود ثانيةً أبداً، وإن عدت.». ثم تابع بصوت أعلى قليلاً، دون أن يتحرك، ومازال يمسك باللجام: «إما سأقتلك بنفسي أو سأستأجر أحدهم ليقتلك. كن على يقين من هذا».

تحدث بسلاسة وود وصراحة تامة. ثم دخلا المدينة، ولم يكن دوق بارما لينتظر منه رداً.

أداءات مسرحية

في نهاية المطاف جلس وكتب خطاباً لسنيور براجادين. كان خطاباً أنيقاً، من النوع الذي يصوغه كاتب. يبدأ بـ «أبي!» وينتهي بـ«أقبل قدميك»، ويزيد عن ست صفحات، إذ قصّ عليه كل شيء بتفصيل لا بأس به: الهروب، الرحلة، بولزانو، دوق بارما، خططه الذي ينتويها، وذكر السكرتير، ومينش أيضاً، المرابي الذي قد يُرسل له المال. كان بحاجة لأكثر من المعتاد، إن أمكن، أو الأفضل حتى، خطاب توصية ليأخذه معه إلى ميونيخ وباريس، لأن مساره قد يذهب به بعيداً الآن وقد تكون مغامرة عظيمة يختبر فيها أقصي حدوده، وقد يكون هذا الخطاب فرصته الأخيرة ليودع صديقه وأبيه، إذ من يعلم متى سترقّ قلوب السلطات بالبندقية لتغفر لابنها الضال الطريد. كان سؤالاً تهكمياً، إذ كان يجاهد ليمزج العبارات الطنانة بالمضمون العملي القاسي. سأل: «ماذا لديّ، أنا المنفي الطريد، لأقدمه للبندقية؟ تلك المدينة المتكبرة القوية الجبارة». ثم أجاب فوراً، «لدىّ قلمي، وسيفي، ودمي، وحياتي». ثم، وكأنه أدرك أن لا قيمة لكل هذا، أشار لفهمه لطبيعة الأماكن والعلاقات

البشرية ولمخزن معلوماته الجاهز دائماً عن كل شيء وكل شخص يعِنّ لمحكمة التفتيش المقدَّسة أن تعرف عنه شيئاً. فلأنه بندقيّ حقيقي، يعلم تمام العلم أن الجمهورية ليست بحاجة لا لقلمه ولا لسيفه، وأنها تفضل دائماً استغلال الآذان الحادة السمع، والألسنة المعسولة والعيون المدرّبة جيداً. إنها تريد عملاءً ماهرين من ذوي الحسب قادرين على تحري أسرار أبناء البندقية وخيانتهم.

لم تكن لديه أدنى رغبة في العودة للبندقية، فمازالت الإهانات التي وجّهتها له تستعر في قلبه ويتصاعد منها دخان كثيف يحيط بكل ذكرى غالية وساحرة قد تدور بخلده برفق عن المدينة. كان قانعاً بالكراهية والسفر. سيتفهم سنيور براجادين هذا بالطبع، بروحه الحكيمة الطيبة النبيلة النقية. كان سنيور براجادين، عضو مجلس شيوخ البندقية النبيل هذا ـ من ذا الذي يصدق أنّه حتى هذا اليوم، ظل عازف الكمان البندقي الذي أرقده ذت فجر في قاربه برفق وهو نصف واعٍ، ثم أنقذ حياته فيما بعد بمزيج عجيب من الرقيّات والجرعات، منتزعاً جثته الباردة المحتضرة من قبضة الأطباء ومن قبضه الموت نفسه ـ هو على الأرجح، صديقه الوحيد في العالم، وفي البندقية كلها على وجه اليقين. من المستحيل وصف هذه الصداقة كما يستحيل وصف المشاعر الإنسانية إجمالاً. الحقيقة أنه منذ بداية تعارفهما، وهو يخدع السيد النبيل ويحتال عليه ويهزأ به، بينما ظل سنيور براجادين كريماً معه منكراً لذاته على نحو لم يعامله به أحد من قبل قط؛ كريماً للغاية، لحد يشك أنه سيجد له مثيل في حياته المرقّعة المضطربة المتزعزعة. كان كرمه لا ينفد ولا ينضب؛ كرماً صامتاً صبوراً. أمعن جياكومو فكره في هذا الحدث

الإنساني لوقت طويل، بعين الريبة، وعجز عن سبر غوره، لأنه رغم كل شيء، ثمة ألوان معينة ليس بمقدور من يعاني من عمى الألوان تمييزها. أمعن النظر في الطيبة من تحت جفون مهدلة، بؤبؤا عينيه يتحركان بسرعة جيئة وذهاباً، متسائلاً متى سينضب معين تلك الطيبة نفسها وتظهر بألوانها الحقيقية، متى سيحين الوقت ليرد هذا العطف الأبوي الخالص الذي غمره به العجوز، متى سيخلع العجوز المحترم الشغوف قناعه عن وجهه ويكشف عن محياه الحقيقي المرعب. لم يعد ثمة متسعٌ من الوقت، مع ذلك تمضي الشهور والسنون وصبر سنيور براجادين لا ينفد. كان السنيور براجادين يعاتبه من حين لآخر على تبذيره، أو يرفض له طلباً غريباً ووحشياً ووقحاً، يحذره من قيمة المال، ويبشره بثواب العمل الخالص، ويذكّره بالشرف في السلوك الإنساني، لكنه يفعل كل هذا بلا غرض ظاهر أو خفي، بلباقة وأناة ذوي الأصول الحسنة، دونما منّ، وبمعرفة تامة بأن المنّ طالما كان أب الانتقام والبغضاء.

ظل جياكومو عاجزاً عن فهم السنيور براجادين لوقت طويل. لعل العجوز بصداره الحريري وأنفه المعقوف وشعره الرمادي الخفيف وجبهته الملساء بلون العاج وعينيه الزرقاوين بهدوئهما ورقّتهما، قد هبط من لوحة مذبح في إحدي الكنائس بالبندقية؟ أحد أصحاب المقام الرفيع الهامشيين، شاهد وشهيد في شملته[1]، أحد مراكز زلزال الحياة. فكر جياكومو بينه وبين نفسه بصبر نافد «لابد أنه يريد

(1) الشملة رداء كان أهل روما دون العبيد يرتدونه.

شيء ما!». كان يشعر أحياناً بالقرف من تلك الطيبة التي يستحيل سبر غورها وهذا الصبر اللا إنساني تقريباً. تساءل في نفسه: «من ذا الذي قد يحبني بلا رغبة أو غرض في نفسه؟»

كان هؤلاء نادرين، أندر كثيراً من الأصدقاء والعشاق، وكانوا يقطنون عالماً مختلفاً عن عالمه؛ عالم، كان يشعر بغريزته، أنه لن يمكنه دخوله أبداً. بوسعه فقط الوقوف على عتبته لينظر فاغراً فاهه لعالم السنيور براجادين الهادئ الصبور المستقيم. «ماذا يعرف عني؟» كان هذا السؤال يحيره من حين لآخر وهو في طريق عودته فجراً للقصر المطل على البحيرة، ماراً بالمنازل الناعسة، قاربه يترنح على المياه الحالمة الداكنة، في الصمت المطبق لأول خيوط الصباح، لا يزعجه سوى قطرات الماء التي تثيرها المجاذيف، والتي تأتي بها البندقية فقط كتحية لظهور المتجول الليلي ساعة الفجر، مبحراً في الليثون[1] إلى قلب المدينة الغامض. كانوا في بيت السنيور براجادين ما يزالون نائمين، وليس سوى ضوء مصباح خافت يأتي من شرفة العجوز. يصعد الدرجات الرخامية على أطراف أصابعه، يدخل حجرته، الابن المتبنّى والمسرف لهذا البيت النبيل، يفتح نافذته لسماء البندقية، يتهاوي على الفراش، ويشعر بالعار. لقد قضى ليلته على مائدة القمار كعادته، يعيش على صكوك الدين وعلى نفقة راعيه، عاد من جولات الغطس بالقرب من أرصفة الميناء بصحبة رفاق سكارى وبنات ليل البندقية اللائي يقهقهن في ثيابهن الحريرية، وها هو قد وصل الآن، فجراً، لهذا المنزل الهادئ،

(1) نهر النسيان في الميثولوجيا الإغريقية.

حيث ترعاه هذه الروح الموحشة وتستقبله بلا لوم... «لماذا؟» سأل بقرف أشد من نفسه. «لماذا يسامحني؟ لماذا يغفر لي زلاتي؟ لماذا لا يسلمني للسلطات، وهو يعرف، بالتأكيد، كل شيء عني، تلك الأشياء اللعينة التي يكفي منها أدني هفوة لتزوغ أبصار قضاة البندقية قبل أن يرسلوني للقراقير..». كان السنيور براجادين من نوع الرجال الذين لا تقرأ عنهم في الكتب، النوع الذي يقدم تضحياته من دون أن ينتظر جزاءً أو شكراً، ولعله أيضاً، على غرابة هذا، ينظر بعطف وحلم فوق إنساني تقريباً لشتى الزلات والعواطف الإنسانية. كان أحد ركائز القوى بـالبندقية، لكنه يمارس قوته بحكمة، على دراية تامة بأن من الأفضل أن تحكم بالذكاء والتفهم، وليس بالإرهاب.

كتب الخطاب للسنيور براجادين وهو يبتسم. فكّر بينه وبين نفسه وهو يحدق في اللهب المتراقص للشمعة «لعله لهذا تحديداً يغفر لي. لأنني أفتقر لكل ما تتطلبه منّى شتى القوانين، البشرية والإلهية، ما عدا قوانين الرغبة». أعاد قراءة السطور بتركيز أشد، يشطب نعتاً بحذر، ويطلق زفرة، أنفاسه قصيرة وسريعة. إن حكمة السنيور براجادين سامية للغاية، ناضجة للغاية، كأنه متواطئ عن بُعد مع كل ما هو منحرف وشهواني وبشري فيه. فكر برضا عن نفسه: «إنه مثل البابا، ومثل فولتير، والكاردينال. أمثال هؤلاء قليلون في إيطاليا، ولاية جلالة الملك المسيحي الأعظم. إنهم موجودون، لكن ليس بكثرة مع هذا. لأن ما أعرفه بالغريزة، بقدري، في نخاعي، أنهم يعلمون، بقلوبهم وعقولهم، أن القانون الذي ولدت تحت مظلته هو قانون الجروح والندوب وليس قانون الفضيلة. يدركون أن ثمة قانوناً آخر، هو في حد ذاته فضيلة، قانون يحتقره حُماة الأخلاق

لكن يتفهمه العليّ القدير: قانون صدق المرء مع نفسه، مع قدره، ومع رغبته». سرت في جسده رعشة من منبت شعره لأخمص قدميه لدى نطقه لهذا الخاطر. رعشة خفيفة كالإحساس ببرودة مفاجئة. فكّر «لعله لهذا وقف السنيور براجادين إلى جانبي. يقعد في المجلس مع الآخرين يستمع للتقارير السرية، يقر المكافآت والجزاءات، لكنه يعلم في أعماق نفسه أن وراء القانون ثمة قانوناً آخر غير مكتوب، وأن عليه أن يقيم القانون الآخر أيضاً». شعر بسعادة غامرة. نظر للهب الشمعة المتراقص بعينين لامعتين، أضاف بشعور صادق وبحروف حاسمة وواضحة «يجب أن ترسل المال إلى بولزانو، عناية السنيور مينش».

ثم خطر له، «مع هذا لم يكن لي أن أبيع الخاتم الزمرد»، كان صديقه ووالده قد اختار له، من بين كنوز عائلته، خاتم زمرد أعاره إياه لليلة واحدة فقط، حين كان ذاهباً لحفل لامع في إحدي تلك الليالي الخطيرة والفاتنة لكرنفالات البندقية، في زيّ ملك من الشرق. كان لخاتم الزمرد ذكرى عزيزة عند صديقه الكريم إذ كانت زوجته الراحلة تفضله بشكل خاص. «كان خطأً مني أن رهنته تلك الليلة حين كان المصرفي يوزّع الورق. ولم استرده بعدها... حتى أنني بعت صك الرهن. حسناً، للبشر أخطاؤهم»، فكر وهو يبرر لنفسه برفق. وحين جاء رجل تعرّف على النبيل بعد أن توارى جياكومو في غياهب السجن وعرض صك الرهن، سدد صديقه الدين! لعل تسديد تلك الزلات الورقية كان لها تأثير منفر على أبيه وصديقه، لكنه لم يذكرها قط. «لقد دفع الثمن وسدد الدين» فكر بينه وبين نفسه ورفع كتفيه. لقد سدد الثمن بلا غنوة أو رقصة،

سنيور براجادين الذي لا نظير له، كان يرسل له الطرود إلى السجن في أعياد الميلاد ورأس السنة، قلبه العجوز مشحون بغضب عنين، كان جلياً أنه ليس بمقدوره العيش من دون أن يحب أحد، حتى في سنّه المتقدمة هذه، حتى وإن لم يستحقَ من يحبه مشاعره النبيلة، حتى وإن قامر بخاتم الزمرد الأثير لديه، وإن زوّر توقيعه على أوراق متداولة في صفقات تجارية، لم يكن شيء من هذا ذا قيمة كبيرة بالنسبة له. كان أحياناً يكاد يحسد السنيور بريجادين على إنكاره لذاته على هذا النحو الذي لم يكن بمقدوره استيعابه سوى بالعقل وليس بالعواطف. خامره الشك لفترة أن وراء حب الرجل النبيل دوافع منحرفة يعجز عن البوح بها حتى لنفسه، بيد أن حياة العجوز كانت كتاباً مفتوحاً، فلم يغادر موطنه ولو لمرة واحدة منذ أن ولد: قضى حياته كلها في المستنقع الذي هو البندقية، ونجا منها كما ينجو نبات طاهر معافى من أبخرة السباخ. مع كل هذا وذاك، لم يكن بوسع جياكومو أن يصدق أن أحداً ما قد يحب آخر بدون غرض خفي أو باعث حسي: لم تكن الفكرة لتتفق مع منطقه العقلي ببساطة. ظل طويلاً يظن أن ثمة خطأ ما فيه هو. كان في العالم الكثير للغاية من الروابط والميول السرية، وقد رآها جميعاً على أرصفة موانيء البندقية، حيث تتمازج رغبات الشرق والغرب. بوسعك معرفة ما يحدث من طريقة نظر الناس لبعضهم البعض، كان يكره هذا الحب الآخر المنحرف: فمع أنه هو نفسه نال شرف الغوص في أعماق الحرمان؛ تلك الأعماق التي تتثاءب دوماً بين الشاطئين المتقابلين للرجال والنساء؛ إلا أنه كان هكذا، وظل دائماً هكذا، وسيظل دوماً هكذا. تفتح البندقية سوقاً يمكن فيه بيع وشراء

الخصيّ والشرقيين وعبيد الشهوة الآخرين كما يباع اللحم ويشترى على طاولات الجزارين؛ وكان هنا تحديداً، في البندقية. إن لم ينحرف هو ـ من بين الجميع ـ عن الدرب المألوف للرغبة، كان يقابل الغرائب الجنسية بأنف متغضّن وابتسامة ازدراء تنم عن قدر متساوٍ من التهكم والقرف وهو يرقب المرضى التعساء يتوسلون بركات إيروس على شطآن وراء عالم النساء. «آه. ياللنساء» فكر بنشوة هادئة وقاتمة، كأنه يقول «آه. ياللحياة!»

لكنه لأنه عاش في البندقية، فقد ارتاب حتى في السنيور براجادين لفترة؛ لأن بسوق البندقية سلعاً شتى، جلبة ضخمة، نطاقاً شاسعاً من الألوان. مع ذلك، فحتى القوادون البندقيون بألسنتهم القذرة، لم يجدوا أدنى شيء ليقذفوا به سمعة السنيور براجادين الطيبة. لم يكن بوسع أحد في ساحة سانت مارك أن يتفاخر بتقديم خدماته لعضو مجلس الشيوخ المبجّل نقداً أو مقابل امتيازات. كان السنيور طفلاً مدللاً للبندقية كجياكومو نفسه، لكنه ليس نتاج الأزقة الضيقة القذرة للمسرح، بل ابن فراش زواج ارستقراطي شهير، عاش دائماً في البندقية، تزوج بها وماتت زوجته بها، وظل حتى أواخر عمره يرثي موت حبيبته مبكرا. عاش حياة وحيدة بلا أقارب، ليس له صحبة سوى عدد قليل من الأصدقاء الحكماء رفيعي الثقافة، وخدمه العجائز. لم يكن ليفتح باب بيته، الذي كان أحد أكثر البيوت احتراماً وخصوصية في الجمهورية، سوى لصفوة من الأرواح يحصى عددها على أصابع اليد، حين كان ينظم حفلات عشاء للأصدقاء: كانت الدعوة لإحدى تلك الحفلات مزية خاصة للقليلين أن يتفاخروا بها. رفعه هذا الرجل النبيل النيّف على نحو

خاص، هذا الكيان النقي الصافي، من ظلال وجوده المعتم، انتشله من الدوامات الموحلة بالبحيرة، هو من بين الجميع، في اللحظة نفسها التي أفَلَت فيها بشكل ما أو بآخر كل نجوم سماءه. ولماذا؟ ليس لشهوة أو لشعور سري ما، بل محض تعاطف واحترام لا يكل أبداً.

حقاً، حين يتعلق الأمر بسلطة محكمة التفتيش، لم يكن بوسع أحد، حتى السنيور براجادين نفسه، إنقاذه من زنزانة الليدز، لا من الزنزانة، ولا من المنفى كذلك، ولا حتى بمنصبه كعضو في مجلس الشيوخ. كانت الاتهامات التي أدان بها ذوو القلوب الرحيمة جياكومو مضحكة. كان يعلم أنها لا تمت بصلة لممارسة الفن الأسود، ولا بالحفلات الباخوسية، ولا بالمجون، وليس لها أدني صلة بالعاطفة المشبوبة التي يدير بها رؤوس سيدات وخادمات البندقية، «لا حاجة لالتفاتة ملحوظة»، تذكّر «لن يفهم الناس هذا أبداً. لم أكن أنا الذي قمت بالخطوة الأولى أبداً». لم يكن ليناقش هذا مع السكرتير الأول. كان على الناس أن يكذبوا بشأن تلك الأمور كما يكذبون بشأن كل ما يعد مهماً في الحياة. وهكذا صار يشار إليه بالـ «مُغوي» المشين، المعروف رسمياً بالعاشق الخائن، مثال الأهواء المتقلبة، رافع التنانير: الخطر المحدق دائماً، والمسجَّل كذلك عند السلطات... فقط لو يعلمون! لم يكن ليخبرهم بأنه ليس هو من يختار ضحاياه، بل هم من يختارونه، لم يكن ثمة من طريقة لكتابة حقيقة أن آراء النساء في الفضيلة والطريقة التي يتصرفن بها في الحياة لا تتفق البتة مع ما يُعلن عنه في المكاتب العامة أو يروّج له على منابر الوعظ بالكنائس. لم يكن بوسعه أن

يخبر أحداً، بل لم يكن بوسعه أن يخبر نفسه هو حتى، سوى في لحظات الوحدة النادرة، بحقيقة أنه، في ذروة صراع الحب، كان هو الطرف المستضعف، المهجور، الضحية... لكن هذا لا يهم. سداد صكوك الدين، حلقة الخاتم الزمرد، الحفلات الصاخبة، ليالي وأيام المقامرة، العهود المنقوضة، التبجح، التحمل العنيد: لا شيء من هذا كله تهمة أصيلة؛ لأن هذا ببساطة يمثّل الحياة في البندقية.. لكنهم لم يسعهم العفو عنه، لهذا زجوا به في السجن حيث لا يمكن حتى لنفوذ السنيور براجادين أن ينقذه، لأن الخطر والفساد اللذين يمثلهما ينبعان من شيء آخر، شيء ما ليس له صلة بأي جريمة أو طيش شباب قد يكون ارتكبه: بل هو أسلوب وجوده نفسه، روحه، وجهه الذي يقابل به العالم. «هذا هو ما لم يسعهم العفو عنه»، رفع كتفيه حين أدرك هذا؛ لأن العالم يتطلب الهرمية والطاعة، الفصل المؤلم للاستسلام، القبول غير المشروط للنظام الأخلاقي المقدس. كانت ألسنة اللهب المنذرة لمقاومة هذا النظام تضطرم في صميم أعماقه، ولم يكونوا ليعفوا عن هذا.

لم يكن بوسع أحد فعل شيء إزاء هذا: حتى السنيور براجادين لم يكن بيده حيلة. أرسل له في عيد الميلاد معطفاً مبطناً بالفرو، وصرة ذهب وكتباً ليقرأها في السجن. كان هذا كل ما استطاعه فعلاً. لا شيء يسمى إنقاذ المرء من العالم؛ فذات يوم سيقتحم العالم حياتك ويجعلك تخرّ على ركبتيك. لكن هذا اليوم، يوم حسابه الخاص، لم يأت بعد. لقد هرب من السجن، هرب منهم، وعليه الآن أن يقاتل كجندي، أن يختار أسلحته ويعدّ العدّة للقتال. هكذا إذاً، كتب الخطاب ثم ارتدي ملابسه، وانطلق يبحث عن ذخيرة مناسبة في بولزانو.

فكّر أن يقوم بمسح سريع ومجهول للبلدة، رفع ياقة معطفه وسار بأسرع ما أمكنه. كان المساء قد خيم بالفعل، والشوارع يغطيها ركام رقائق الثلج. لم يتعرف عليه أحد. مضى في طريقه بصورة عادية، يدقق النظر في الأشياء بانتباه وهو يمسح المنطقة بناظريه. لم يكن ثمة شيء جذاب على نحو خاص ليغريه. لم يكن المكان كأنه يحيا في ظلال الجبال فحسب، بل وفي كراهاته الخاصة أيضاً: كانت البيوت لطيفة بما يكفي، مع ذلك كان ثمة نظرة شك في عيون الناس، وقد وجد هذا غير مريح. ككل عظماء الفن الرواية، كان يتحرر حقاً فقط في صحبة أرواح رحبة المعشر. فكر بينه وبين نفسه بنفور وحشي «مكان متواضع»، وعبر الساحة الرئيسية متجهاً صوب الشوارع الخلفية. كان كل شيء في المنزلة الوسطى بالضبط بين العالي والمتدني: وضع للخروج من مستواه المعتاد. كانت القرية في جزيرة مجهولة بين كل ما أحبه في الحياة وكل ما تجنبه منها، رصينة ومنظّمة جيداً، وهذا أرعبه. أسرع الخطو في الشوارع ومنديله على فمه خشية أن يصيبه الهواء الغريب بالتهاب في حلقه وسحب قبعته لأسفل على جبينه متخوفاً من تحديق أبناء البلدة، مع ذلك كانت عيناه نصف المغمضتين تدب فيهما الحياة كلما التقط نظرة رجل أو امرأة من المارة. ظل يلقي بنظرات قلقة على مداخل البيوت ويختلس النظر للنوافذ المضيئة محاولاً أن يعرف أي من هذه المنازل ذات القمم المثلثة قد يكون منزل دوق بارما. فكر بينه وبين نفسه بمرارة حين انتهى من جولته «إنها بلدة لطيفة ونظيفة. مكان أجنبي، أجنبي للغاية». كان يعني أجنبي بالنسبة له هو: لم يكن يشم في هوائه التواطؤ المغري المألوف له، لا هوس بالحياة،

لا شغف، لا أبهة، لا شيء من اللمعة الغامضة المنبعثة من الرغبة في المتعة التي يميزها بسهولة في المدن كما في البشر. كانت بلدة أخلاقية كئيبة، فكر بينه وبين نفسه، وأقشعرّ جسده.

أخذ يحسب الأيام. لن يأتيه رد سنيور براجادين قبل خمسة أيام حسبما يظن. لكنه مع ذلك دخل المحلات ذات المداخل المقوسة وبدأ يتسوق. كان يحتاج لأشياء فخمة كثيرة، يحتاج لها حقاً، إن أراد أن يقف على قدميه ثانية ويرسّخ لنفسه مكاناً مرة أخرى. «لابد أن أُبعث مجدداً من رمادي كالعنقاء» فكّر بينه وبين نفسه ساخراً من العبارة الأدبية، «وماذا تحتاج العنقاء؟» سأل نفسه. وقف في زاوية الشارع تحت مصباح زيتي كانت الرياح الشمالية تعصف بلهبه المتراقص الواطئ. وقف ملقياً معطفه على أحد كتفيه، مخبئاً نصف وجهه به، ومحدقاً في المارة بعينين مضطربتين تقذف بضوء كلهب مصباح الزيت الذي تعصف به الريح. يحتاج أكثر من أي شيء آخر لقمصان من الدانتيل المطرّز، دستة منها مثلاً، وجوارب باريسية بيضاء، وأطراف أكمام من الدانتيل، ومعطفين من الفرو، أحدهما أخضر بحواف ذهبية، والآخر أرجواني بكتافيتين رماديتين؛ يحتاج أيضاً لحذاء بأبزيم فضي، وقفازين كروشيه للمساء، وقفازين من الجلد الرقيق للنهار؛ ومعطف شتوي ثقيل بياقة من الفرو، وقناع بندقي من الحرير الأبيض، ومنظار للأوبرا ـ بدونه يشعر انه عاجز عن الدفاع عن نفسه ـ وقبعة بثلاث زوايا، وعكاز بقبضة فضية. أدرج كل هذا بينه وبين نفسه في صمت. لابد أن يحظى بكل هذا قبل ليلة غد. كان يشعر انه عارٍ وبائس على نحو لا يقبل الجدل من دون الملابس الصحيحة والأزياء والحلي اللائقة. لابد أن يرتدي

ما تعوّد على ارتدائه وفقط. رأى محل يانصيب في الجهة المقابلة فأسرع يدخله وراهن على ثلاثة أرقام: تاريخ ميلاده، وتاريخ دخوله السجن، وتاريخ هروبه. واشترى كذلك حزمتي ورق لعب.

خبأ حزمتي الورق بحذر وهو يتوجه إلى منزل سنيور مينش. وجده خلف الكنيسة، منزل ذو طابق واحد. جلس السنيور مينش في حجرة معتمة تطل على الفناء محاطاً بالصناديق والموازين. بدا من النظرة الأولى أنه لم يكن له حظ كبير من معنى اسمه [مينش بالعربية تعني إنسان]. مخلوق قصير وهزيل، يجلس في رداء النوم إلى طاولة طويلة رفيعة، نمت أظافر أصابع يديه الرقيقتين الصفراوين بحدة والتواء فبدا وهو يمسك بالأشياء كطير من الجوارح يقبض على فريسته. تتهدل خصلات شعره الرمادية الهزيلة على جبهته. حدقت عيناه الصغيرتان الذكيتان اللامعتان في أعماقهما من تحت جفون مجعدة، بفضول متحرّق في الغريب. حيا جياكومو وهو جالس في قفطانه القذر، لاثغاً ومنحنياً بتصنع، دون أن ينهض من جلسته، مازجاً في حديثه كلمات فرنسية وإيطالية وألمانية، لكنه ظل يغمغم بها طوال الوقت، كأنه لا يصغي لضيفه حقيقة ولا يأخذه على محمل الجد تحديداً لأنه يفكر في شيء آخر. ما إن أعلن الضيف عن اسمه، رفع حاجبيه حتى التقتا بالخصلات القذرة أعلى جبهته وقال:

ـ «آه!». ثم طرف بعينيه سريعاً، كقرد مشغول ببراغيثه وتابع: «هل سمعت هاتان الأذنان العجوزان جيداً. هل يثق في أذنيه المسكينتين؟»

كان يتحدث عن نفسه بضمير الغائب، بنوع من الحميمية الرقيقة، كأنه ابن أخيه. لثغ بتملق:

ـ «إن مينش رجل عجوز جدّاً، لم يعد أحد يزوره هذه الأيام، عجوز وفقير كما كان دائماً»، ثم أضاف مغمغماً: «لكن ها هو غريب يأتيه» وسكت.

أجاب الغريب بأدب:

ـ في الحقيقة أنت أول من أزوره.

تحدثا بهدوء عن المال، كما يتحدث العشاق عن عواطفهم. لم يكن ثمة ديباجة: دخلا في الموضوع مباشرة، بشغف وفضول كخبيرين التقيا في حفلة، كضيفين انعزلا تحت مظلة في الحديقة، بينما ينشغل المضيف بالعزف على البيانو أو يلقي أحد الضيوف شعراً، ليناقشا أسرار تجارتهما المشتركة، أو ليتجادلا في شأن من شئون الماسونية أو في علم وظائف أعضاء طائر «الإمو»[1]. كان المال هو موضوع حديثهما. خطابهما صريح تتردد فيه مصطلحات فنية من حين لآخر من دون الحاجة لمسرد للمعاني، لأن كل منهما يقضي نهاره في البحث في هذا الشأن.

قال مينش:

ـ «الضمان»، لافظاً الكلمة من فمه بفوران كأنها قسَم.

ـ «الائتمان»، أعلن الآخر بحرارة، مقنعاً وتلقائياً، على يقين أنه

---

(1) طائر استرالي.

لا شيء أبسط من هذا، وكأن وقع الكلمة ولفظها الصارم بالتأكيد سيمسّا شغاف قلب العجوز.

ناقشا الكلمتين بسهولة لوقت طال قليلاً. لو رآهما أحد من بعيد لظن أنها مجادلة مبهمة بين فقيهين. كان كل واحد منهما يؤكد عقيدته التي يعتنقها من أعماقه، التي تتعلق بالحقائق الباطنية الأساسية وحقيقة كيانه، عقيدة يعتصمان بها بإخلاص لحد أن ارتبطت بها حياتهما. لأن ما يمثله «الضمان» لأحدهما هو ما يمثله «الائتمان» للآخر، ليس فقط في تلك اللحظة تحديداً، في ذلك الغسق بالذات، بل في الأوقات الأخرى كلها كذلك، في كل ظروف الحياة. لأن ما يفهمه أحدهما من كلمة الضمانِ، يطلبه الآخر من العالم بالائتمان، مطلب صادق ومتقد يتجاوز ماديات الحاضر، مطلب هو في حد ذاته دليل على الإيمان. أحدهما لا يرى العالم سوى بقدر ما يمنحه من ضمان، والآخر يريد الحياة كلها ائتماناً: السعادة، الجمال، الشباب، وفوق كل هذا وذاك، المال، الذي يعتبر امتلاكه من أساسيات الحياة. كان جدلهما حول الأفكار وليس المبالغ المالية.

ظهر جلياً الأثر الذي أوقعه اسم السنيور براجادين على المرابي. قال وعيناه تطرفان أسرع حتى من ذي قبل:

ـ «رجل نبيل وشريف. اسم لا غبار عليه، يستحق وزنه ذهباً!»

كان ثمة شك ما في صوته، كان واثقاً أن الغريب يخدعه، يبيع له شيئاً ما مشكوك فيه، شيء ما ليس له وجود، أو يبيع له شخص السنيور براجادين نفسه.

- «خاتم! ربما!» غامر المرابي بالقول وهو يرفع سبابته بظفره الأسود الطويل ويعقفه ليؤكد أن أي شيء تقريباً سيكون أفضل وأكثر قيمة وملاءمة للأغراض التجارية من إنسان. «خاتم صغير»، ردد بتملق وبنبرة توسل منغَّمة، كطفل يريد حلوى. ثم أضاف وهو يغمز ويكشر: «خاتم صغير بحجر نفيس»، وفرك سبابة وإبهام يده اليمنى ليوحي بجمال وفتنة شيء مثل خاتم صغير، خاصة لو بحجر نفيس، خاتم قد يوفر للمرء بعض الضمان. أغرورقت عيناه الحسيرتان بالدموع لمجرد التفكير فيه، مع ذلك ظل يراقب ضيفه بحرص، مشغولاً بالنظر إليه خلسة طيلة الوقت، يجاهد رغم قلقه ليعطي انطباعاً بالمرح، كمبارز يدرك رغماً عنه أن مبارزه خصماً أصيلاً، ينبغي الانتباه له. كان يفضل أن يكون فوق مستوى المنافسة، لكن الإثارة كانت تدغدغ أصابع يديه وقدميه: إحساس مثير وحار، يشبه الرغبة. كان مهتاجاً لعلمه بأن اللحظة قد حانت، تلك اللحظة النادرة التي يجد نفسه فيها في مواجهة ضارية مع خصم حقيقي، خصم يليق به إذ يعرف الطقوس السرية للتصرف واستراتيجياته، خصم هو في الحقيقة جزء من معنى حياته نفسها، خصم من نوع تاق للقاءه كثيراً. جذب أكمام قفطانه أعلى ذراعيه الناتئتين بالعظام كأنه يقول: «ها نحن الآن وحدنا! لتبدأ المعركة!» ونظرا أحدهما للآخر بإعجاب.

أدرك مينش إنه سيعطي الرجل المال في نهاية المطاف لأنه لا مناص من ذلك، وعرف الضيف أنه في النهاية سيأخذ المال حتى وإن حدث على غير المتوقع ولم يرسل له سنيور براجادين الذهب الذي توسله بأسلوبه الأدبي المقنع: «سيعطيني مينش المال» كان

قد فكر بينه وبين نفسه حتى وهو في الليدز يَخطط لتفاصيل هروبه، حين كان الاسم وحده كافياً ليثير خياله حتى ليرة مينش هو نفسه، كأنه رؤية، وقد تثبت الآن وهو يقف وجهاً لوجه أمام المرابي، أنها كانت رؤية قريبة جدّاً للحقيقة، وأن الواقع لم يخذله. كانت الغريزة نفسها هي التي همست في أذنه أن مينش، الذي سبق وسمع اسمه عدة مرات من تاجر أقمشة هولندي، سيكون خصماً وشريك عمل لائق، وأن أقدارهما ستتقاطع، وأنه سيقف أمامه ذات يوم، وأن مينش رغم قهقته وندبه لن يؤذيه في شيء. «هاك عنوانه» قال الناس، «ها هو، اُكتبه» ومع ذلك، ماذا كان بوسع عنوان؟ ماذا كان يعني؟.... كان يعرف جيداً أنه يعني أمراً عظيماً: العنوان ـ عملياً ـ هو شخص، حدَث، تحرّك؛ عليك فقط أن تنفخ فيه وتدفئه وتبعث فيه الحياة بنفثات الخيال والرغبة، وحينها سيتخذ العنوان، مؤقتاً، وجوداً مستقلاً، ويصير واقعاً، يصير شخصاً مهما صرّ على أسنانه، بوسعه في النهاية أن يُسلِّمك مال. كان على دراية بعناوين مثل هذه في ليون وباريس وفيينا ومانشيستر أيضاً. يتم تناقلها في العادة شفاهةً كملاحم أمّة: في نابولي مثلاً ثمة مرابي ليس عليك سوى أن تقول له «ليأتِ «شارون» ويطرق بابك!» فيأخذ لفوره في البكاء ويعقد الصفقة. وهكذا تعامل مع مينش بهدوء، مندهشاً فقط من التوافق التام بين الواقع والخيال، كان هادئاً للغاية لحد حافة الرفق. وكان مينش ينظر له نفس النظرة، يغمز ويطرف بذعر، وسعادة مع ذلك، لأن الأقدار جاءت له بهذا الرجل.

في النهاية أعطاه مينش المال ـ ليس بالكثير، فقط ما يكفي للظهور بمظهر لائق في بولزانو حيث ينتظر الجمهور ظهوره، كما

حدسته نفسه، بفارغ الصبر. أعطاه مينش ثلاثين دوكية، عدّ القطع الذهبية على الطاولة المطلية وهو مذهول ويديه ترتعشان، بدون خاتم أو رهن، قرض بضمان، لا شيء سوى قطعة ورق تطمئنه أن الدين بضمان سنيور براجادين، سيد محترم قد يكون أحد سكان القمر، حسب علمه، أوعلى الأقل من منطقة بعيدة عنه تماماً كالمال الذي أمامه على الطاولة هنا. لفّ العملات الذهبية في ورق برشمان وتخلى عنها، نهض عن الطاولة وانحنى بورع ديني لقس رفيع المقام، قاد ضيفه إلى الباب، وقف عند الباب يراقبه لفترة حتى تلاشى ضيفه في الضباب.

غذّ الرجل الذي أقرضه المال، بلا ضمان، سيره في الشارع المغبش ولم ينفك مينش ينحني ويغمغم مبهوراً بكلمات إيطالية وألمانية وفرنسية. كان جياكومو الآن يسرع الخطى، يركض بالفعل صوب أضواء الساحة الرئيسية. إذ يقترب من الكنيسة، مرّت به عربة يقف على خلفيتها خادمان يحملان مشعلين. لمح خلف زجاجها وجه شاحب عرفه، فصاح:

ـ «فرانشيسكا».

كان الثلج قد بدأ يتساقط فجأة. مرت به العربة وهو يقف وحيداً في الساحة تحت الثلج. أذهله الألم الذي يشعر به المرء دائماً حين تتحقق أمنياته. ثم استدار وتوجه صوب فندق الستاج، يداه معقودتان خلف ظهره، مطأطئ الرأس، تثقله الأفكار. شعر حينها بوحدة أشد وطأة من تلك التي شعر بها في العالم السفلي، في سجن الليدز.

استشارات

بقي هذا المساء في مطعم الفندق يحتسي نبيذاً معتقاً في انتظار وصول رفقة للعب الورق. ظهروا بحرص: الكيميائي الذي دعاه بالبي، كبير الكهنة الذي يزور نابولي، ممثل ومحارب قديم، وضابط فرّ من الجيش في بولونيا منذ يوم واحد. لعبوا بمبالغ قليلة، متمهلين في اقتراحاتهم ويتعرفون واحدهم على الآخر. أُمسك بالكيميائي وهو يغش وطُلب منه المغادرة. لاحق الضابط الرجل السمين بمظهره الأحمق حتى الباب ودفعه إلى الشارع حيث كان الثلج مازال يتساقط. عند منتصف الليل كان جياكومو يشعر بالضجر. صعد هو وبالبي لغرفته حيث أشعل شمعة وجلسا إلى طاولة، وبدآ وهما مستندان بمرفقيهما على الطاولة، يُعلِّمان أوراق حزمتي ورق اللعب اللتين اشتراهما من قبل من النوع الذي يحمل نقش مطابع نايبي مباشرة أسفل صورة للموت والرجل المشنوق[1]. كان الراهب ماهراً في العمل على نحو مدهش: عملاً في صمت، كان

(1) إحدى بطاقات التاروت.

يطليان أركان أوراق اللعب المهمة بالشمع ثم ينقشا بأظفريهما في طبقة الشمع الرفيعة رموزاً تعريفية.

ـ «ألا يقلقك أن يجلب لنا هذا المتاعب؟» سأله الراهب عرضاً وهو مستغرق في مهمته.

ـ «لا». أجاب وهو يرفع الديناري لأعلى نحو الضوء ويدقق النظر بعينين نصف مغمضتين قبل أن يغمز ويعلّم الورقة بعناية، «وما الذي يدعو للقلق؟ السيد المحترم لا يقلقه شيء أبداً».

ـ «سيد محترم؟»، استغرب بالبي وحشر لسانه بين شفتيه المزمومتين، عادته في التعبير عن دهشته. «وأي سيد محترم هذا؟»

ـ «أنا»، قال وهو يلمس الورقة المُعلَّمة بالشمع بطرف ظفره برفق. ثم أضاف بصرامة: «من غيري قد أعني؟ نحن في الغرفة اثنان فقط، وبالتأكيد لا أقصدك أنت».

ـ تساءل الراهب وهو يتثاءب: «هل يغش السادة المحترمون؟»

ـ «بالطبع»، أجابه وألقى بورق اللعب ثم تمطّى فطرقعت عظامه، وأضاف: «الفوز صعب للغاية ما لم تغش. إنها طبيعة لعب الورق، التقلُّب، قليلون من يمكنهم الفوز بدون مساعدة، في جميع الأحوال»، تابع بنبرة توكيدية «الجميع يغشون. أكثرهم احتراماً في «الفيرساي» يغشون: حتى الجنرالات والقساوسة».

ـ «هل يغش الملك أيضاً؟» سأل بالبي مأخوذاً بطريقة ما.

ـ رد جياكومو بكآبة «لا. فقط يتوقف حين يخسر».

تناقشا قليلاً حول طبيعة غضب الملك، وسرعان ما صار جياكومو وحده، وأخيراً تنهد هو الآخر وتثاءب وذهب لفراشه. استمر لثلاثة أيام على هذه الحال من العزلة النائية، صحبته بالبي وجيسيبي والصغيرة تيريزا فقط. كان يلعب الفارو[1] مع صبية المراسلة وتجار الزيت في بار فندق، وكان يفوز تكراراً بفضل الشمع على أطراف ورق اللعب، الذي ساعده بالتأكيد، مع ذلك كان يخسر من حين لآخر لأن الجميع يشغون في نفس الوقت، خاصة في حانات القمار بلندن وروما وفيينا وباريس؛ حيث يعرض المقامرون المحترفون المتجولون «فتح البنك» [بالفرنسية في الأصل] للجميع بدون استثناء. تذكر حين تعارك ذات مرة مع رجل يوناني لاحظه وهو يُخرج ورقة وراء الأخرى من كمّه بحذق، لكنه حينها لم يكن غاضباً، بل يتمرّن.

حتى هذا الوقت لم يكن قد رأى فرانشيسكا ولم يبذل جهداً خاصاً للبحث عنها. كان الأمر كأن الحياة نفسها كانت تغفو في النسيم الرقيق أعلى القمم الجبلية.

ثم جاءت ثلاثة أيام من الرياح الثلجية فغطى الثلج نوافذ فندق الستاج كلها. وكانت السماء مثقلة بغيوم تشبه الصوف رمادية كالقطنتين القذرتين اللتين كانتا في أذني مينش. وصلت البذلات والقمصان والمعاطف والأحذية والقناع البندقي من الحرير الأبيض والعصا ومنظار الأوبرا، وكان قد طلب معطفاً لبالبي أيضاً، لدواعي النظافة والاحترام فحسب، إذ كان الراهب يتجول في أنحاء

(1) لعبة قمار فرنسية انتشرت في أواخر القرن السابع عشر.

القرية في ثوب لا تراه سوى على جثة معلّقة شُنقت على الملأ منذ وقت قريب. لكنه هو كان يقضي أغلب الوقت وحده في غرفته أمام المدفأة، وهو في حالة ذهنية فاترة وسوداوية ظلت تنتابه تكراراً خلال السنوات القليلة الماضية، هو من دون الجميع، بصرف النظر عن فضوله الحيّ، ودرايته الجيدة بالموسيقي، والترحال، والأضواء، ومتعة المطاردة، كأن كل ما كان قد خطط له وحلم به وهو سجين ـ الحياة والسعادة والترفيه ـ قد فقد شيئاً من جاذبيته الآن بعد أن صار بمقدوره أن يتمطّي ويمد يده ليمسك به. فكّر جدياً في العودة إلى روما ليركع على ركبتيه أمام صديقه الكريم، الكاردينال، ويسأله الصفح، أو يتوسل إليه ليلحقه بالدير أو بالعمل كأمين إحدى المكتبات البابوية. فكّر في المدن التي لا ينتظره فيها شيء سوى الفنادق والأسرّة الباردة، وأذرع نساء يحرر نفسه منها ناعساً، وأروقة مسارح يتجوّل فيها بأكاذيبه، والصالونات والبارات التي قد يمدّه فيها ورق اللعب الذي أعده بحرص بحفنة لا بأس بها من الذهب: فكر في كل هذا وتثاءب. أَلِف في نفسه حالته المزاجية تلك ويخشاها. «ستنتهي سريعاً بأنف ينزف دماً». قال وهو يشد طرفي قميصه ليغطي صدره إذ كان يرتعش. بدأت تلك الحالة في طفولته، كان يتملكه فجأة ودونما إنذار خوف واشمئزاز ينتهيا بنزيف أنفه، لم يكن بمستطاع أحد علاجه سوى نونا، جدته القوية الشريفة، كانت تعالجه بالأعشاب والكمادات. يفكر في نونا كثيراً هذه الأيام، ليس في أمه ولا في أشقائه، بتاتاً، فقط في تلك المرأة القوية التي ربّت ثلاثة أجيال في البندقية، وكانت مغرمة بجياكومو على نحو خاص؛ ظلت تأتيه في أحلامه الحزينة والمقلقة بشكل

ما. اعتادت نونا أن تضع كمادات الثلج على رقبته وتطهو له جذور الشمندر إذ كانت تؤمن أن جذور الشمندر تعالج كل أنواع النزيف، وفي نهاية المطاف كان النزيف والحزن يمرّان. «نونا!» ناداها في فكره الآن، بحنين ثقيل أشد وطأة من أي شعور شعر به نحو أخريات.

تعيش فرانشيسكا في مكان ما قريب منه: يعرف الآن أي منزل، يعرف الحارس السويسري برمحه ذو السن الفضي ومعطفه المصنوع من جلد الدب، رأى الحاشية، والقنّاصة، والخيالة الذين يصحبون دوق بارما في جولاته في القرية، وكان يمر في سيره ليلاً بالقصر الذي تضيء نوافذه العلوية ـ يقضي الدوق حياة اجتماعية نشيطة للغاية، يستقبل ضيوف ويقيم حفلات ـ كان يتخيل روعة قاعات الاستقبال في الضوء المنثال من النافذة إلى الشارع. أخبره بالبي، الذي تحدث مع الخدم، أنهم يزودون الثريات الذهبية كل مساء بثلاث دست من شمع من أجود الأنواع، مصنوع من دهن الماعز، يرسله صناع الشمع في سالزبورج خصيصاً للدوق. أقر وهو يرفع كتفيه «يجب أن تعيش فرانشيسكا في الضوء»، لكنه لم يتحدث عنها مع بالبي، نعم، يجب أن تعيش فرانشيسكا في الضوء، في قصر، وأن يسهر على راحتها خدم. سمع أيضاً ذات ليلة أو اثنتين صهيل وقعقة خطوات خيول الأسقف إذ تقترب عربته من المدخل، تخيّل الخيل وهي تبرق بالفضة وغيرها من الشارات الرسمية. كان دوق بارما يُبقي منزله مزدحماً خلال شهور الشتاء، كما يليق بمكانته، وبكرامة زوجته الشابة أيضاً، ربما. مع كل ذلك، لم يكن أسهل عليه من أن يدخل هذا المنزل ويقدم احتراماته لفرانشيسكا،

لن ينزعج الدوق من مجاملاته بعد الآن، فقد أعرب عن رغبته في رؤيته رغم كل شيء ـ أو هذا على الأقل ما قاله جيسيبي. لقد ذكر هذا حقاً مرة واحدة فقط، في زيارته الأولى، ولم يأت على ذكره ثانيةً أبداً، كان يأتي يومياً ليُعمل أصابعه الرقيقة المتوردة في خدّي جياكومو ويفرك صدغيه ويصفف تعريجات شعره. وفي كل صباح، كان يقص أحداث الليلة السابقة بقدر معقول من التفاصيل: طريقة الاستقبال، طبيعة ألعاب الحفلة، الرقص الجذل في منتصف الليل، وكل صغيرة وكبيرة في جلسات لعب ورق التي الممتدة حتى الساعات الأولى من الفجر. انتبه جياكومو لكل شيء. في منزل دوق بارما، كل ليلة؛ رقص ولعب الورق وإلقاء أشعار وألعاب حفلات، ومآدب ومشروبات. سأل جيسيبي ذات مرة باستغراب حقيقي «ألا يتعب الدوق؟ أقصد ألا يمل من كل هذه الحفلات كل ليلة؟ والسهر لوقت متأخر كل ليلة؟ أليس هذا مرهقاً لرجل في مثل سنه؟»، رفع جيسيبي كتفيه ولم يقل شيئاً.

لقد ذكر الحلاق الدعوة للزيارة مرة واحدة فقط، في اليوم الأول، ولزم بعدها صمتاً بليغاً بخصوص هذا الأمر، ملتفاً حول أسئلة الضيف الساذجة:

ـ «ألا يتعب الدوق؟» ردد السؤال وهو يلثغ بحساسية مفرطة، وأضاف وهو يختار كلماته بحرص. «لديه كل الأسباب ليتعب، حسب ظني. إن سعادته يستيقظ دائماً مبكراً ويذهب للصيد فجراً، مهما طال سهره الليلة السابقة، ثم يتناول فطوره في غرفة نوم زوجته، حيث يستقبلان الضيوف في غرفة الاستقبال

الصباحية. هل يشعر الدوق بالتعب؟» كرر السؤال ورفع كتفيه؛إن تعب أصحاب النعم مختلف تماماً عن إجهاد الفقراء، إن أولاد الموسرين يتعبون من أكل الكثير من اللحم. يقول جيسيبي إنه، عن نفسه، لن يتعب أبداً من الرقص والمغازلة أو من لعب الورق، بل من التفكير، والمجاملات، وقواعد السلوك التي تفرضها الطبقات العليا، هذا ما يتعب الدوق غالباً. همس بحذر «إن الدوق أسير الفِكر!»، ثم غمز وارتعشت أهدابه كأنه يفشي أحد أسرار الدوق المكنونة، نقيصة أساسية، أو ميل منحرف ما؛ غمز كمن يوحي بأن بإمكانه بالمزيد لكنه لا يحبذ ذلك، لأنه رجل عاقل، ويعرف كيف يسير العالم. سمع الغريب الخبر وانحنى. سأل بصوت خفيض ينم عن حميمية:

ـ «أسير الفِكر، هه؟»

كان يفهم أحدهما الآخر تماماً. يتحدثان بلغتهما الأم بكل معنى الكلمة، لغة من لهم، دون أن يدركوا هذا، ذائقة واحدة، أو سمات شخصية متماثلة: لغة العالم السفلي التي لن يفهمها أبداً سكان العالم العلوي. رغم كل هذا لم يذكر جيسيبي دعوة الدوق ثانيةً أبداً. كأنه شيء تفوه به في اليوم الأول على سبيل المجاملة، ثم لزم الصمت، وكان صمته في حد ذاته يعلن بقدر ما تعلنه ثرثرته.

سأله الزائر ذات يوم بلامبالاة وبسرعة كأنه ليس سؤالا مهماً:

ـ «هل الدوقة جميلة؟»

اعتدل الحلاق في وقفته ليجيب. وضع مكواة الشعر والمقص

والمشط على رف المدفأة. رفع يده الأنثوية بأصابعها الطويلة كقس يمنح بركاته للجموع. تنحنح وبدأ يتحدث بغنائية ومرح:

ـ «للدوقة عينان داكنتان، وعلى جانب وجهها الأيسر بالقرب من حوض فكها الأملس بثرة ضئيلة عالجها الكيميائي ذات مرة بـ«الزاج»[1]، لكنها عادت تظهر ثانيةً. والدوقة فنانة في إخفاء هذه البثرة».

سرد كل هذا وغيره تفاصيل ثانوية أخرى كثيرة كأنه قسٌّ يلقي قداساً، أو رسام مبتدئ يناقش جماليات ونواقص تحفة فنية. نمّت موضوعية حكمه عن تقدير يفوق الحماسة، إذ كان يراها يومياً قبل الاستقبالين الأصغر والأكبر، حين كانت الوصيفات يقمن بإزالة شعر ساقيها بقشور الجوز الحمراء الساخنة، ويلمّعن أظافرها بعصير الفاكهة، ويدهّن جسدها الرائع بالزيوت ويعطّرن شعرها بالعنبر ثم يسرِّحنه. أعلن جيسيبي بصرامة:

ـ «إن الدوقة جميلة!»، وكان وجهه الطفولي المخنث يحمل تعبيراً جاداً مضحكاً، وجه ريان إلى حد غير آدمي، من تلك الوجوه التي قد يرسمها فنان رفيع الثقافة على جدار غرفة نوم سيدة ارستقراطية في الفرساي لراعي في مشهد ريفي ساذج وعاطفي ومغيَّب تماماً وماجن على نحو فاتن.

انتظر حتى فرغت الأصابع الطويلة الرقيقة من وجهه وشعره، ظل يستمع لأخبار أخرى مختلفة وشيّقة بعدما عرف أن الدوق أسير

(1) حامض كبريتي.

الفِكر، وأن الدوقة جميلة رغم البثرة الضئيلة التي عادت للظهور في وجهها ثانية. لزم الصمت وجيسيبي يتحدث. قد يكون بينهما لغة مشتركة، لكنهما الآن يتحدثان عن أشياء مختلفة. وبقت الحقيقة أن الدوق لم يكرر دعوته للزائر.

هكذا مكث في تلك القرية الأجنبية الغريبة على نحو ما، حتى بعد أن أرسل له سنيور براجادين الذهب الذي طلبه، مرفقاً برسالة أخلاقية حكيمة مليئة بنصائح عملية نبيلة يستحيل الأخذ بها. ابتهج مينش بضمان سنيور براجادين، وعدّ المال بحماسة وأصابع مرتعشة مطمئنّة وظل يردد مزيجاً من التعبيرات الألمانية والفرنسية والإيطالية، يفصل بين الفائدة والأصل، ويكرر كلمتي الضمان والائتمان.

أرسل سنيور براجادين مالاً يزيد على ما طلبه ابنه بالتبني، لا يزيد كثيراً، بل زيادة قليلة، كافية لتعلو برد القرض الرسمي مع امتنان قلبي كذلك. «قلب نبيل». فكر الهارب بتأثر، وأومأ مينش: «اسم لا غبار عليه، ذهب خالص!» أما بالنسبة لرسالة سنيور براجادين، فقد اشتملت على كل ما يمكن أن يقوله رجل عجوز وحيد في خضم تلك المشاعر غير المألوفة، لأن المشاعر درب من دروب الاستكشاف، وكان السنيور براجادين يدرك أن هذه العلاقة لا تضيف لسمعته الناصعة واحترامه الذي لا تشوبه شائبة. ليس معني ذلك أن ثمة من يجرؤ على إثارة النميمة أو الشكوك حول اسم السيناتور، لكن، حين يصل الأمر لهذا، لأي مدى ستتفهم البندقية أخلاقياته العميقة الكامنة في مشاعره؟ لأن أي رجل عادي

من البندقية قد يتساءل ما إذا كان هذا الشعور، حتى في شكله هذا الخالي من اللوم، هو كما يبدو عليه حقاً، ولن يتفهم لِمَ قد يهدر رجل نبيل، سيناتور من البندقية وليس أقل، مشاعر قلبه الهرِم العليل على مستهتر سيء السمعة. «لماذا؟» قد يسألون في البندقية، ويضع الأكثر سوقية منهم قبضة يدهم في أفواههم ويغمزون ويهمسون: «ماذا يريد منه؟». لكن معرفة السنيور براجادين أعمق من معرفتهم: فهو يعرف أن الالتزام الأكثر إيلاماً بالإنسانية هو ألا تخجل من حقيقة شعورك حتى لو ضاع هدراً على أشياء لا تستحقه. لهذا أرسل مالاً يزيد عما طلبه صديقه الهارب وكتب رسالته الطويلة الحكيمة. «ابني العزيز، لقد حظيت ببداية جديدة للحياة»،هكذا كتب بخط راسخ مسنن، «ولن يمكنك العودة لمسقط رأسك لفترة من الوقت، فكر في وطنك بوجدانك». كتب قدر لا بأس به عن مسألة الوطن، صفحة ونصف الصفحة. نصحه أن يغفر لوطنه لأن وطن المرء، وعلى نحو ما غامض، دائماً على حق. وعلى الهارب، أكثر من أي شخص آخر، خاصة هو جياكومو، الذي يواجه الآن أركان العالم الأربعة، أن يفكر باستمرار في حقيقة أن وطنه يظل وطنه دائماً وأبداً، حتى وإن كان على خطأ. كتب بكياسة، بيقين لا يكتب به سوى الذين تقدموا كثيراً في السن من ذوي الحس المرهف، الذين يعون جيداً معني كل كلمة يستخدمونها، ويعلمون أنه يستحيل الهروب من الذكريات وأنه لا جدوى من محاولة نقل خبراتنا للآخرين. ويدركون أننا نعيش وحدنا، ونرتكب الأخطاء وحدنا. ونموت وحدنا، وأننا قلما نستخدم النصح أو الحكمة اللذين نتلقاهما من الآخرين. كتب عن الوطن كأنه إحدى القريبات

التي كانت أماً روحية متسلطة تارة وعادلة تارة، مؤكداً على أنه مهما زادت الضغوط علينا ألا نقطع أواصر صلاتنا العائلية. ثم كتب عن المال، وبشكل أكثر إيجازاً وعملية، عن صديق له في ميونيخ يرحب بمساعدة مسافر في أوقات معينة مقابل مبالغ معينة. كتب عن محكمة التفتيش التي كانت أعظم من أعظم محاكم التفتيش في العالم أجمع، أو كما صاغها هو، «توحد قوتي الكنيسة والدولة معاً في قبضة يد زعماء هذا الكيان الذي لا نظير له». كان عليه أن يكتب هذا؛ لأنه لا يمكن حذف جملة كهذه، كما أدرك المرسل إليه، من رسالة مبعوثة من البندقية، ولأن الجميع تحت رقابة القاضي الأكبر حتى السنيور براجادين. ثم تمنى له التوفيق في الرحلة وفي الحياة نفسها التي نعتها بالمغامرة. قرأ «جياكوموط الرسالة مرتين ثم مزقها وألقي بها في النار. أخذ القطع الذهبية من مينش وكان بإمكانه الانطلاق على الفور إلى ميونيخ أو أي مكان آخر، لكنه لم يتوجه لأي مكان، كان يومه الخامس في بولزانو وقد بدأ يعرف الجميع، بما في ذلك قائد الشرطة الذي أرسل يستفسر منه بأدب عن طول الفترة التي ينوي مكوثها في البلدة. لم يجبه جياكومو، وسبّ البلدة بعد مغادرة المبعوث الرسمي. سدد ديونه وقامر بالباقي في بار فندق الستاج وشقة الكيميائي الذي طردوه من قبل من الفندق لكنه الآن يعقد في بيته جلسات للعب الفارو. كان لديه ما يكفي من الأسباب ليمضي قدماً في طريقه حين كان مفلساً وليس في جيبه سوى عنوان صديق السنيور براجادين في ميونيخ، لكنه الآن بعد أن دفع لصاحب الفندق وللمتاجر، واشترى هدية لتيريزا، ومنح جيسيبي إكرامية سخية. الآن وقد أضفي عليه الذهب بريقاً

بندقياً، صار بوسعه أن يبقى. استمتع بالائتمان، ليس فقط مع مينش، الذي ذهب إليه مرة أخرى في الأيام القليلة الماضية، والمتاجر التي لم يسدد لها سوى مرة واحدة، بل كذلك مع صحبة أكثر تعقيداً من المقامرين. قبل منه سيد إنجليزي محترم ـ يدرس جيولوجيا الجبال المحيطة في الأوقات التي لا يقامر فيها ـ صك دين عنوانه في باريس. بهذه الخسائر والمكاسب نتاج بعض الخبرة وخفة الأصابع، وبعد أن سدد ديونا قديمة وراكم غيرها جديدة، بدأت الروابط الطبيعية لموقفه الجديد تترسخ ببطء على أساس اهتمام عام بظروفه الجديدة واسترخاء عام فيها كذلك. أصبح الجميع يسرّهم أن يقرضوا الغريب الآن وقد صاروا يعرفونه، فقد أدركوا أن تفرّده يكمن في استحالة اعتباره خاسراً أو رابحاً: تقبلوه لأن القرية سرعان ما اعتادت عليه وتعايشت مع حضوره خلف جدرانها كما يتعايش المرء مع درجة معينة من الخطر.

وهل لهذا السبب مكث هناك؟ لا، كان السبب فرانشيسكا بالطبع، ولأن الدوق عبّر عن رغبته في رؤيته. انتظر الدعوة كشاب قروي يقف خارج حانة قريته في انتظار من تحداه للمواجهة، ويديه في وسطه كمن يقول: «ها أنا ذا، تعال خذني!» اتخذ جياكومو الوضع نفسه: انتظر في صمت. ماذا أراد من فرانشيسكا؟ إن اسمها في حد ذاته يزعجه، مفعماً بالندم على شأن لم ينتهي. بالطبع كان بمقدوره أن يرحل إلى ميونيخ مفلساً؛ حيث كان أحد أمراء ساكسونيا قد وصل هناك لتوه وتعد الأسابيع القادمة ببذخ ولهو وأبّهة، ومسرح راقٍ، وألمع المقامرين الأوروبيين وأكوام من الثلج المتساقط من السماء. كان بمقدوره أن يرحل في أي وقت، لا أن

يتسلل في جنح الظلام والضباب، بل في وضح النهار، في عربة فخمة، برأسه مرفوعاً، لأنه سدد ديونه لصاحب الفندق وصاحب المتجر على الأقل مرة واحدة، ولأن مينش كان لايزال تحت تأثير تعويذة ضمان السنيور براجادين ومن ثم في خدمته. لكنه بدلاً من أن يرحل، مكث في انتظار رسالة الدوق. كان يعرف أنه في النهاية سيتلقى الدعوة ليذهب للقصر الذي يحرسه حارس سويسري متجهم برمح ذي طرف فضي. كان يعرف أن انقطاع الاتصال في حد ذاته جزء من الحوار السري، وأن ثمة غرضاً من مجيئه لبولزانو، وأن عليه أن يقوم بأشياء. لذلك كان لكل يوم معنى؛ لأنه كان يترقب حدوث شيء ما، لأنه أن تعيش ـ يعني أحياناً ـ أن تنتظر.

في ظهيرة أحد الأيام، حين كانت الساحة الرئيسية تعج بالظلال الرمادية الزرقاء والريح تنعق وتزعق كالبوْمة في مداخن مدافئ فندق الستاج، كان يجلس بلا عمل على المقعد المجاور للمدفأة، تسري في جلده قشعريرات بينما يتصفح مجلد لـ«بوئثيوس»(1) وضعه على حجره، حين انفتح الباب ودخل بالبي يتعثر ويلوح بذراعيه قائلاً:

ـ «لقد جاءوا!..».

شحب وجه جياكومو، قفز من على مقعده، سوّى شعره المرشوش ببودرة الأرز بأصابعه العشرة، وهمس بصوت خفيض كعواء واهن:

---

(1) فيلسوف روماني من القرن السادس عشر.

- «آتني بمعطفي الأرجواني»!

- «لا تقلق»، قال بالبي وهو يخب نحوه. «يمكنك استقبال هؤلاء بأكمام قميص إن شئت. فقط لا تبخس سعر نفسك!». حين رأى نظرة الخوف وعدم الفهم على وجه صديقه الهارب، سكت واستند على الحائط، وضم راحتيه أمام كرشه. كان يتحدث بغموض ويقهقه بارتباك ومعدته المتخمة تهتز، مستمتعاً بالفرحة السرية لمعرفته أنه جلب مصيبة بمهارة رائعة. قال:

- «جاء ثلاثة فقط هذه المرة، لكن كلهم أثرياء، أحدهم عجوز جدّاً، الخباز، إنه الأول في الصف، وهو عجوز وأطرش، لذلك عليك أن تتحدث معه في مشاكله الحميمة بلغة الإشارة وإلا سمعت بولزانو كلها عن عاره. يتبعه بتروشيو، قائد شجاع، لكنه ليس شجاعاً الآن، بل ينتظر بهدوء مستنداً على الدرابزين عاقداً ذراعيه ومحدقاً في الفراغ، ويبدو بائساً جدّاً لحد أنه قد يراوده التفكير في ارتكاب جريمة أو في الانتحار. إنه رجل غبي، لعبة سهلة. أما الثالث فهو سكرتير القس، وصل في الوقت الذي حددته له بدقة، شاب صغير ويبدو كأنه سينفجر في البكاء في أي لحظة. وسيأتي المزيد. إسمح لي بقول هذا سيدي العزيز، إن صيتك يخيف الناس ويجذبهم في آن واحد. منذ أن وصلت والجميع يغمرونني بالأسئلة، على انفراد وفي الحانات، وعند المداخل، وفيما بعد في المحلات والمستودعات، وفي الشوارع أيضاً، في أي مكان يمكنهم فيه اصطحابي جانباً ودسّ بضع قطع فضية في راحتي أو دعوتي لمشروب أو لأوزة محمّرة، إنهم يتوسلونني لتعريفك بهم، سواءً كان اسمك يخيفهم أم يجذبهم يبدو أنهم لا يستطيعون نسيانه».

ـ «ماذا يريدون؟» سأل بحزن.

ـ «النصح. قال بالبي ووضع أصبعيه على شفتيه ثم رفعهما في الهواء، ودوّر بؤبؤي عينيه واهتزّ كرشه بضحك مكتوم.

ـ قال جياكومو: «فهمت». وابتسم بمرارة.

ـ حذّره بالبي: «الآن كن حذراً»، لا تعرض خدماتك مقابل ثمن بخس. كم تريد أن تمكث هنا؟ يوم؟ أسبوع؟ سأعمل على أن آتيك كل ظهيرة بزوار وزبائن: سأجعلهم يقفون طابورا على السلم كما يفعلون مع مشاهير الأطباء حين يتوفى أحدهم أو ينزل به طاعون. لكن تذكّر ألا تبخس من سعرك: اطلب قطعتين ذهبيتين على الأقل مقابل كل استشارة، واطلب المزيد لو كانوا في حاجة لوصفات. لقد تعلمت الكثير في البندقية، أتعرف. أثناء عزلتي»- كان بالبي يشير لفترة سجنه بهذا النحو الرقيق- «تعلمت أن الفكرة الذكية مثل المبرد وقد يكون ثمنها ذهباً. أنت رجل ذكي جياكومو. هناك في الخارج ثمة محافظ تفيض بالذهب، دعهم يزنون حكمتك بالجنيه. ما رأيك؟ هل أرسل لك الخباز؟»

وهكذا بدأوا يتوافدون بأناة ودعة كقطيع من الغنم يسرح به بالبي كل يوم من الظهيرة حتى المساء. استمتع جياكومو بمهنته الجديدة. لم يلعب هذا الدور من قبل قط. جاءه الناس بأجساد مرهقة وأرواح متعبة ووقفوا صفاً أمام بابه تماماً كما توقع بالبي، مثلما يقفون صفاً أمام عيادات الجراحين في المدن الكبرى، لكن بدلاً من الأذرع المعلقة في حمالات الأكتف والسيقان المكسورة، كانوا يأتون لمعالجة قلوب جريحة ونفوس كسيرة. ماذا أرادوا؟

أرادوا معجزات. في كل مكان يريدون المعجزات: أرادوا حباً مقابل تفاخرهم الزائف، قوة بلا جهد، تضحية بالذات لا تكلف أكثر من قطعة أو قطعتين من الذهب، أرادوا عطفاً وتفهماً من دون أن يبذلوا قصارى جهدهم لقاءهما... يريد الناس الحب، مجاناً، وبدون التزامات إن أمكن. وقفوا في طابور عند بابه، في رواق فندق الستاج، الأعرج والذليل، الضعيف والجبان، المتعطش للانتقام، والذي يريد أن يتعلم الصفح، كانت رغباتهم شتى، وكان حاذقاً في تقديم المشورة الشخصية بمعرفة بأسرار الحب التي لم يتعلمها قط. إذ يولد أبناء البندقية بمعرفة فطرية بطرق الحب، تسري هذه الحكمة التقليدية في كل عصب من أعصابهم كنبض كهربي. كان الفن الذي ورثه قديماً أيضاً، وما إن تغلّب على دهشته الأولى وأدرك العلل التي يأتي بها مرضاه، وتعلم الكشف عن الأماكن الدفينة والندوب السرية، ترك نفسه بوعي تام وبكل شغفه لمشروع الدجل والشعوذة. سرعان ما ذاع صيته وصار معروفاً أنه يقوم بعملياته الجراحية من الظهيرة حتى المساء. تناول بالبي الجانب العملي من الأشياء بحنكة وأبقى عينيه مفتوحتين على المرضى في الانتظار.

جاء الجميع لرؤيته، ليس من القرية فحسب بل ومن مناطق نائية كذلك. كان الخباز العجوز أول من يدخل، في عقده السابع وصريع الحب. دخل يعرج محني القامة وهو يستند على عكازه، وكرشه السمين يتدلى حتى أعلى ركبتيه يغطيه معطفه البني اللبادي بالكاد.

ـ «دعني أخبرك بما حدث». قال الخباز لاهثاً وهو يقف في

منتصف الحجرة ليرسم حلقة في الهواء بعصاه القصيرة الخشنة، ثم بدأ يصف له ما حدث، كما يفعلون جميعاً في نهاية الأمر بالرغم من أنهم يبدأون بفترة سكوت عنيد أو رفع الكتفين بتجهّم. ثم تحمر وجوههم وتتعثر الكلمات القليلة الأولى خارجة من أفواههم، ويتمتمون باعتراف أو اثنين ليتغير سلوكهم بعد ذلك ويزول عنهم الخجل تماماً ويخبرونه بكل شيء. كان الخباز غاضباً وتحدث بصوت عال، على نحو ما يفعل رجل أطرش حين يستشيط غضباً وتملؤه الشكوك؛ كان عليه تهدئته بإيماءات بارعة وخاطفة. بصوت عميق بقدر ما هو عال أخبر جياكومو الخباز بشأن لوتشيا وكان سؤاله الوحيد هو هل عليه أن يبلغ عنها محكمة التفتيش أم يخنقها بيديه ثم يحرق جثتها في فرنه الفسيح حيث يخبز الصبيان أرغفة الخبز الطويلة الهشة كل صباح. إما هذا أو ذاك، كانت تلك هي طريقة جريلي الخباز ذي السبعين عاماً ورئيس طائفة الخبازين، للتعبير عن أمره مع لوتشيا. جلس المخاطَب، المرجو الأخذ بمشورته ورأيه الخبير، صامتاً يستمع. يمسد ذقنه بإصبعين، كما يفعل العلماء، يعقد ذراعيه أمام صدره ويلقي بنظرات ماكرة حادة من تحت حاجبين معقودين على العجوز الغاضب وهو يستمع لشكواه بذهول قليل.

ـ «تلك مشكلة شائكة»، قال بهمسة ذات نبرة عالية لتصل لمسامع الخباز. «شائكة حقاً!». وفجأة أمسك بالعجوز من ذراعه وسحب الجسد المذعور المقاوم إلى النافذة، أخذ الوجه المبذور بالثآليل بين يديه، أداره ناحيه الضوء، وأمعن النظر طويلاً في عينيه السقيمتين. استغرقت الاستشارة بعض الوقت. بكي الخباز. كان

بنحيبه ونشيجه القليل من المسرحة، لم يكن صادقاً تماماً، ربما، لكنه لا إرادي، ولو فقط لأنه لا يدري ماذا يفعل غير هذا. لقد وقعت مصيبة عاطفية رهيبة ولم يستطع مصالحة نفسه على العار الذي سيلازمه حتى القبر.

ـ «لديّ اقتراح». غامر الغريب بالقول بعد تفكير دقيق. «اشترِ لها قرطين، رأيت بعضها عند مينش، أقراط جميلة حقاً، بالياقوت الأزرق والأحمر».

نخر الخباز لأن كان قد اشترى لها بالفعل قرطين، وسلسلة ذهبية، وصليب صغير مرصع بالماس، وتمثال فضي صغير للقديسة بادوفا مُطعم بالمينا. ولا جدوي من كل هذا.

نصحه: «اشتر لها حرير يكفي لثلاث تنورات. سيحل الكرنفال قريباً».

لكن الخباز أشاح بيده للنصيحة ومسح دموعاً شحيحة من على وجهه. كانت خزانات الملابس في المنزل مليئة بالحرير والقطن واللباد والقماش المطرز. فكرا قليلاً في صمت ثم قال جياكومو بقوة وحسم جديدين:

ـ «ارسلها لي»

همهم الخباز وأحجم عن الرد ثم بدأ يتراجع ببطء نحو الباب. فقال الغريب

ـ «قطعتا ذهب». أخذ العملتين المصقولتين وألقاهما على مكتبه ثم اصطحب ضيفه بأدب إلى الخارج، وأضاف كأن الفكرة خطرت له ثانية أو كأنه يقوم له بخدمة مميزة:

ـ «ارسلها غداً صباحاً، بعد القداس. سيكون لدي متسع من الوقت حينها. سأتحدث معها، ورجاءً لا تقتلها حتى ذلك الحين».

وفتح الباب وانتظر بينما يخرج العجوز مهموماً ومذعوراً قليلاً من الاستشارة ومن قلة حيلته.

صاح جياكومو في الرواق المظلم:

ـ «التالي من فضلكم!» متظاهراً بعدم ملاحظة الظلال المحتشدة في الضوء الخافت.ثم تابع بجذل وهو يشير للقامة المتجهمة إلى الداخل: «آه. نعم. القائد! من هنا يا رفيقي الشجاع!».

وهكذا قام بجراحاته. لم يدهشه تنوّع العلل؛ كان يعرفها وكان يفهم أنه الداء القديم نفسه، لكنه يتخفّى فقط تحت أقنعة شتى. ماذا كان الداء؟ فكّر في السؤال بينه وبين نفسه وما إن صار وحده في الغرفة، نطق باسمه: الأنانية. كان القناع المبتسم للأنانية يقف خلف كل مشكلة، تبخل بما يمكنها منحه وتطلب كل شيء يمكنها طلبه من الآخر، وغالباً من دون أن تمنح أي شيء في المقابل. كانت الأنانية هي من اشترت للحبيبة قصراً وعربة بأربعة خيول ومجوهرات، على اعتقاد بأنها بقبولها تلك الهدايا ستتغاضى عن شيء ما سرّي، أثمن قيمة، شيء ما بدونه لا يتحقق الانجذاب الحقيقي ولا سلام القلب.

كانت الأنانية هي التي تريد كل شيء باعتقاد أنها أعطت للآخر كل شيء حين أعطت وقتاً ومالاً وحباً وحناناً، بينما أمسكت عن التضحية النهائية المتمثلة ببساطة في استعداد المرء، عَرَضاً في أغلب الأحيان، لأن يترك كل شيء ويكرس حياته وروحه للآخر

من دون أن ينتظر مقابلاً لهذا. لأن هذا ما يريده العشّاق حقاً، هؤلاء الطغاة على النحو الخاص بهم. يسعدهم كثيراً أن يمنحوا وقتاً ومالاً وأقراطاً وحليّاً، وأسماءهم وأيديهم حتى، لكنهم في فوضى كل هذه الهدايا، يصرون جميعاً على الاحتفاظ بشيء واحد، هذا الشيء هو نفسهم، سواء كانت تلك النفس لوتشيا أو جيسيبي أو القائد الهُمام، بتروشيو، الذي يقف في منتصف الحجرة الآن، ممسكاً سيفه بكلتا يديه بكآبة كمن يقف في انتظار إعدامه.

سأله جياكومو بود وسحر شديدين:

ـ «ما المشكلة يا قائدي العزيز؟»

التفت القائد برأسه حوله بحذر، كحيوان يتفحّص قفصه، ثم مال على أذن الغريب وهمس بسرّه. وقف هناك بعينين حمراوين، قابضاً على سيفه، قلبه المحارب ينبض بقوة، وهمس بسره. لا. لم يكن باستطاعة جياكومو إسداءه النصح في أمر كهذا. هز جياكومو رأسه بتفهم تام وتأفف بسخط، ثم قال بصوت خفيض:

ـ «ربما، يجب أن تهجرها. أنت رجل، جندي». لكن القائد لم يجبه. كان كالموتى حين يدركون أن لا شيء سيتغير ثانيةً أبداً، وهم محشورون في هذا الوضع غير المريح في القبر، تحت الأرض، تحت النجوم. لم يكن من المولعين بأخذ النصائح، لم يكن يحب أن يعالج الأمر كما تفعل الرتب الدنيا: القائد العظيم لا ينسجم مع الرتب الدنيا. كرر جياكومو برقة وتعاطف صادقين:

ـ «اتركها. حتى وإن لم تتحمل تركها، فهو أفضل من معاناتك هذه».

تذمّر القائد. كان يفهم أنه لا نصح ولا عزاء ولا علاج لمصابه. كان تذمره الجريح اليائس كمن يقول: «حتى معاناتي هذه أفضل من عدم رؤيتها، الأفضل لي أن أعيش هكذا من أن أتركها». مِن الناس مَن يستحيل مساعدتهم.

جاء آخرون كثيرون ممن يصلون عادة عند المساء. جاء سكرتير القس، شاب بوجه أرقط، قرأ «بترارش»[1] ولم يستطع كتابة خطاب للسيدة التي ملكت عليه قلبه، دفع مقابل الاستشارة قطعة ذهبية واحدة، كتب له الغريب الخطاب، ورافقه إلى الخارج بطريقة رسمية ثم أغلق الباب وانفجر في ضحك حتى أوجعته خاصرتيه، رمى القطع الذهبية في الهواء قبل أن يسلمها لـبالبي الذي شدّ على يده وهما يتصافحان بسعادة، وصاح وصوته الأجش يصلصل بالضحك:

ـ «طبيب المعجزات! إنهم يأتونك من كل مكان الآن، حتى من الريف!»

كان الثلج ينهمر ويتراكم بغزارة، لكنهم ظلوا يتوافدون بالرغم من ذلك. جاءه نساء أيضاً، كن يحجبن وجوههن، يضعن القطع الذهبية في يده، ينزعن البروشات الثمينة من على صدورهن ويرفعن أغطية وجوههن ويتوسلن إليه قائلات: «استخدم سحرك جياكومو، تحدث معه، حضّر لي سائلاً سحرياً، قل لي رأيك، هل من أمل؟...».

---

(1) عالم وشاعر إيطالي عاش في القرن الرابع عشر.

جاءته ذات يوم امـرأة، لم تعد شابة، لها شخصية رصينة ومحترمة، كانت عيناها السوداوان تتقدان بالحب والألم. قالت له بصوت جمّده البرد وهي تقف بجانب المدفأة وتفتح معطفها الفرو وتهز رأسها في انتظار ذوبان ذرات الثلج اللامعة العالقة بغطاء وجهها ووشاحها:

ـ «جئت في الثلج.. مات أحد الجياد وكنا على وشك أن نتجمد بحلول المساء. لكن ها أنا ذا لأنهم يقولون إنك تسدي النصح، وتفهم في السحر وفي قلوب الناس وأرواحهم، فهيا باشر عملك».

كانت تتحدث بسخط كمن تؤلمه إهانة ما. عرض عليها مقعداً وجلس يستمع إليها بانتباه. لقد خَبُرَ النساء في كل مواقف وحالات الحياة، وكان لديه ما يكفيه من الأسباب ليحذرهن ويبقي عينيه مفتوحتين لأي تغيير في مزاجهن. تجاهلت عرضه. كانت فوق الأربعين، لها قامة طويلة ووجه أحمر، وجسم ممتلئ بالصحة، من هؤلاء النساء اللائي يسعدهن الوقوف في المطبخ والإشراف على شواء اللحم، ويغسلن وجوههن بمياه المطر وتفوح من خزانة ملابسهن الكتانية رائحة حلوة من دون أن يستخدمن العطور. من هؤلاء اللائي يسعدهن إعداد حتى الحقنة الشرجية للرجل الذي يعشقنه. نظر إليها باحترام إذ كان ثمة ما يكفيَ من عواطف مضطرمة أسفل غطاء الوجه في ذينك العينين المتقدتين لإشعال النيران في غابة بأسرها. كانت تألف إصدار الأوامر وعلى الأرجح تحتفظ بأهل بيتها تحت سيطرة محكمة. قد يستمع الخدم والضيوف والأقارب والمعجبون بإخلاص لأي شيء تتفوه به ويجرون متشرذمين أمام

غضبتها. حتى حنانها قد يحتمل بداخلها بنكهة لاذعة، كنار تشب في دغل في الغابة نسي الرعاة إطفاءها بعد أن انتهوا من اللعب. كانت امرأة قوية بغضب يسري بداخلها في تيار جبار من المشاعر، وقد وقفت الآن بأسلوب رئاسي على استعداد لتوجيه عدة لكمات عنيفة، قد تقوم بعدها بحركة حنون من ذراعيها الحازمتين بضم المختارين من أحبائها لصدرها في عناق مميت، كانت تنبعث من حضورها روائح الثلج وحقول لومباردى الباردة ونهر تيرول. قالت بصبر نافد قليلاً بالكاد تسيطر على صوتها:

ـ «ها أنا ذا. لقد جئت لك. لقد جئت، رغم تراكم الملابس التي يجب غسلها هناك في البيت، رغم أنهم يدخّنون السلامي، ورغم قولهم إنه في نوفمبر في الجبال المحيطة بهذا المكان قد تأكل الذئاب المسافرين حتى». ثم أضافت بهدوء وحسم: «أنا من توسكانا».

انحنى وحدّق بعمق أشد في عيني ضيفته للمرة الأولى، قائلاً:

ـ «وأنا من البندقية سيدتي».

أجابته:

ـ «أعلم». وبلعت ريقها ثم أضافت. «لهذا أنا هنا. اسمع جياكومو أنت هربت من السجن وتعرف في شئون الحب، هكذا يقولون. أنظر لي. هل أشبه النساء اللائي يتضرعن للرجل ليبادلهن الغرام؟ أو اللائي ينظفن البيت؟ أو اللائي يعملن في الحقول في شهر يوليو وقت الحصاد؟ أو اللائي يشترين أثاثاً جديداً من فلورنسا ليكتسبن

احترام العالم؟ أو اللائي يعتنين بالخيول ومعداتها؟ أو اللائي يرقّعن جوارب أسيادهن المتعجرفين وملابسهم التحتية؟ أو اللائي يتأكّدن من وجود الزهور على الطاولة ظهيرة يوم عيد ميلاد أحدهم ومن وجود موسيقيين يلهون بزماراتهم في الحجرة المجاورة؟ أو اللائي يحتفظن بكل أدراجهن منظمة؟ أو اللائي يغتسلن بالمياه الباردة كل صباح وكل ليلة؟ أو اللائي طلبن ملاءات كتان من رامبرج لتكون رائحة الفراش الذي يحضنها فيه رجلها منعشة كرائحة حقول توسكانا في أبريل، أو اللائي يبقين أعينهن على المطبخ إرضاءً لكافة متطلبات معدته الرقيقة وذائقته الرفيعة؟ أو اللائي يتفحّصن لحم الديك الصغير قبل ذبحه ليتأكدن من أن دهنه وطراوة لحمه كما يحبه تماماً؟ أو اللائي يتشممن رائحة فخذة العجل التي يرسلها الجزار من المدينة؟ أو اللائي يهبطن إلى القبو على درجات السلم المنحدر ليدهنّ براميل النبيذ التي وصلت من الكرم بالكبريت؟ أو اللائي يحرصن على وضع ملعقة من السكّر في كوب الماء الذي يضعنه على المائدة الصغيرة بجوار فراشه لأنه بعد كل هذا الإسراف في الخمر واللهو، يحتاج قلبه الضعيف لقطرة من السكر قبل النوم؟ أو اللائي ينهينه عن تناول الكثير من الزنجبيل أو الفلفل، أو اللائي يغضضن الطرف عن حالاته المزاجية الشهوانية حين تعجز الحبال والسلاسل عن تقييده بالبيت؟ أو اللائي يحافظن على رباطة جأشهن حين يتشمّمن رائحة عطر المرأة الأخرى العطن على ياقته أو في ملابسه التحتية؟... هل أنا من النسوة اللائي يتحملن كل هذا؟ اللائي يعملن ولا يتفوّهن بشيء؟ انظر لي جياكومو. يقولون إنك حكيم فيما يخص النساء، طبيب غرام ألمعي. أنظر إليّ. أنا أم

لطفلين وفقدت ثلاثة، لم يجدِ تذلّلي وأنا راكعة على ركبتي أمام صورة السيدة العذراء وتضرّعي لها لتبقيهم على قيد الحياة. انظر إليّ. أعلم أن الزمن قد ترك علاماته عليّ، أن هناك من هم أصغر مني سناً، من يبتسمون أطراف عنّي، وأفضل في رجرجة أردافهن، ومع كل ذلك، ها أنا ذا. هل أنا من النسوة اللائي ترفض قبلاتهن؟ فقط أنظر إليّ!»

كانت تصيح بصوت له رنين قوي وهي تخلع معطفها الفرو. ترتدي ثوباً من الحرير الأرجواني وتغطي شعرها البني الغامق بإيشارب من قماش الدانتيلا البندقي وعلى صدرها مشبك ذهبي يضم طرفي شالها حول صدرها الناضج الممتلئ بلطف، قوامها طويل وعضلي دون أثر لسِمنة زائدة، لحم مشدود ودم سليم، أربعينية رصينة بذراعين بضتين، رأسها يميل للوراء بكبرياء. وقفت أمامه فانحنى لها بأدب رجولي تلقائي، بإعجاب أصيل.

قالت بصوت خفيض ومرتبك قليلاً:

ـ «لا حاجة بك للانحناء». ترددت قليلاً ثم تابعت بصوت أكثر وهناً وتهدجاً: «لم أترك عزبتي في العاصفة الثلجية وأقطع هذه المسافة لبولزانو لينحني لي غريب. لست أطلب المواساة. أنا أعرف ما أعرفه. أنا امرأة. أحس بنظرة الرجل إليّ، أدرك الرغبة الصريحة في النظرة الفاسقة المبتذلة، وأشعر أيضاً بالعاطفة الحذرة في اللمحة خاطفة. أعلم أنه لم يتبق لي سوى سنوات قليلة يمكنني فيها أن أسعد الرجل الذي يحبني».

شدت فراءها حول صدرها مرة أخرى كأنها تشعر بالبرد أو بالإحراج وسألت بصوت هادئ تماماً:

ـ «لماذا ليس بوسعي أن أحظي بما أريد؟...».

ابتعلت ريقها عدة مرات في محاولة لكبح دموعها، ثم تابعت بخنوع وبلا أدنى أثر للكبرياء التوسكاني قائلة:

ـ «ماذا كان عليّ أن أفعل؟.... منحته كل ما يمكن أن تمنحه امرأة لرجل: الحب والصبر والأطفال والمتعة والسلام والأمن والحنان والتحرر من الرعاية... كل شيء. يقولون إنك تعرف في الحب كما يعرف الصائغ في الذهب والفضة: اِطرح أسئلتك إذاً، اِفحص قلبي، قل حكمك، انصحني! ماذا كان عليّ أن أفعل؟ لقد ذللت نفسي. كنت عشيقة زوجي ورفيقته. كنت أتفهم أنه لابد من وجود أخرى في حياته، لأنه هكذا بطبعه. كنت أعرف إنه يحب أن يكون لديه سر، وإنه يعود إليّ ركضاً، هارباً من ضغوط العالم، ومن غرامياته ومغامراته، وإنه يظل يهرب لأنه مذعور، لأنه لم يعد شاباً، لأن الموت يتنفس أسفل عنقه، كنت أحياناً أتمنى أن يشيخ ويصيبه داء المفاصل، ليكون لي مرة أخرى، لأغسل له قدميه المتألمتين... نعم، تمنيت الشيخوخة والمرض، لتشفع لي سيدتنا العذراء ويغفر لي الرب خطاياي. لقد منحت كل شيء. قل لي ماذا كان عليّ أن أمنح غير هذا..».

كانت تتوسل الرد بوضاعة، صوتها واهن وعينيها مغرورقتين بالدموع. فكّر الرجل في الرد، وقف أمامها وذراعاه معقودتان أمام صدره وقال حكمه بتهذب وحسم:

ـ «كان عليكِ أن تمنحي السعادة سيدتي».

طأطأت رأسها ورفعت منديلها تمسح عينيها، وقفت تبكي في صمت ثم أطلقت زفرة هائلة وأجابت بخنوع وصوت كسير:

ـ «نعم، معك حق. السعادة هي ما عجزت عن منحها له».

وقفت مطأطأة الرأس تربت على مشبك صدرها الذهبي بأصابعها الرقيقة ومشتتة الفكر، ثم أضافت، ومازالت تحدِّق بنظرها في الأرض:

ـ «ألا تظن أيها الغريب أن ثمة رجالاً بعينهم ليس بوسعك منحهم السعادة؟ أن ثمة نوعاً من الرجال تكمن كل قوة جاذبيته، كل مميزاته وكل سحره، في عجزه عن أن يكون سعيداً؟ رجال ليس لديهم قابلية للسعادة: يتحولون أمامها لأحجار صلدة، عاجزون عن سماع صوتها العذب كما يعجز الصم عن سماع الموسيقى،... لأنك على حق، فهو لم يكن سعيداً أبداً. لكن، أترى، هذا هو الرجل الذي اختارتاه لي السماء والأرض، والأمر ليس أنه قد عثر على سعادته في مكان ما آخر، أيضاً، مهما طال بحثه، أكثر من خمسين عاماً حتى الآن. بل لأنه يشبه من دفن كنزه في الحقل، ثم نسي أين دفنه، وظل يحفر في كل بقعة يراها، فقلب حياته كلها رأساً على عقب. لقد بعت مصوغاتي ليتسنى له السفر بعيداً بحثاً عن السعادة، لأنني، صدقني، لم أرد سوى رؤيته سعيداً. ليبحث عن السعادة عبر البحار، في مدن غريبة، بين أذرع نساء سوداوات وصفراوات، إن كانت تلك أقداره... لكنه كان يعود لي دائماً، يجلس بجانبي ويطلب النبيذ أو يقرأ كتبه، ثم يقضي أسبوعاً مع عاهرة ما بشعر متقصف، غالباً ما تكون ممثلة. إنه من هذا النوع من الرجال. ماذا أفعل؟ أطرده؟ أقتله؟ أذهب أنا بعيداً؟ أقتل

نفسي... أنا أركع كل صباح بعد القداس أمام المخلّص في كنيستنا الصغيرة، وصدّقني، لقد بحثت في أغوار قلبي بحرص قبل أن آتي إليك بمصابي وكبريائي الجريح. الآن سأعود للبيت ولم تعد كبريائي جريحة. معك حق: لم أمنحه سعادة. من الآن فصاعداً سأتفانى في خدمته، لكن أرجوك أخبرني، لأني بحاجة ماسة لأن أعرف، الآن وقد عرفت أن ثمة رجالاً عاجزين عن السعادة، هل تظن أن هذا خطئي وحدي؟ إنه مضطرب وكئيب ويبحث عن السعادة عند كل منعطف: في أحضان النساء، في الطموح، في الشئون الدنيوية، في المعارك الدموية، في رنين العملات الذهبية؛ يبحث عنها في كل مكان وهو يعرف طوال الوقت أن الحياة ستمنحه كل شيء ما عداها. أريد أن أعرف هل من أحد آخر مثله؟».

لفظت الكلمات الأخيرة بتحدٍ كأنها تطالبه أو تتهمه بشيء.

جياكومو هو من طأطأ الآن رأسه قائلاً:

- «نعم. اهدئي بالاً. أنا أعرف بالفعل أحد آخر مثله. إنه يقف أمامك».

بسط ذراعيه وانحنى بشدة كما لو ليعلن انتهاء الزيارة. حدقت فيه لفترة، شبكت إبزيم فرائها بأصابع مرتعشة وتحرّك كلاهما صوب الباب، ثم قالت كأنها تحدث نفسها أو على سبيل الوداع:

- «نعم، شعرت بهذا بمجرد دخولي الغرفة، شعرت أنك أيضاً من هذا النوع من الرجال. لعلني شعرت به حتى قبل أن أنطلق في العاصفة، لكنه وحيد وحزين على نحو مريع. ثمة لون من الحزن

لا يمكن تعزيته: كأنما فاته موعد إلهي ما ولم يجد منذئذ شيء يثير اهتمامه. انت لديك معرفة بالنفس أكثر منه، بوسعي تمييزها في صوتك وعينيك، أشعر بها في وجودك نفسه. قل لي، ما خطب هؤلاء؟ هل هذه عقوبة من الرب لأنهم حين منحهم قدراً كبيراً من الذكاء خبروا المشاعر والعواطف الإنسانية بعقولهم وليس بقلوبهم... خطرت لي هذه الفكرة تواً. أنا امرأة بسيطة جياكومو، ولا حاجة بك لهز رأسك أو لمجاملتي. اعلم لماذا أقول هذه الأشياء. لست أبرر بساطتي. أنا أعرف أن ثمة ألواناً من الذكاء تتجاوز تلك التي يقدّرها الأذكياء المختالون، وأن للقلب معرفته الخاصة، وأنها معرفة مهمة أيضاً، مهمة للغاية... أترى، جئت إليك طلباً للنصح لكني الآن وأنا راحلة، أنا من أشعر بالأسف عليك. بكم أدين لك؟».

أخرجت من بطانة معطفها كيس نقود من الكروشيه الفضي ومدّته له بعصبية. انحنى الرجل مرة أخرى كأنه في نهاية رقصة، ركبتاه مثنيتان قليلاً وذراعاه مبسوطتان على وسعهما قائلاً:

ـ «لن أقبل نقوداً منكِ أنتِ سيدتي». أعلنها بروح كريمة ومتواضعة لكن بقدر من الكبرياء في صوته جعلها تستدير صوب عتبة الباب. ثم سألت من أعلى كتفها:

ـ «لماذا؟ فهذا مصدر دخلك رغم كل شيء».

رفع كتفيه وأجاب:

ـ «لقد دفعتِ كثيراً بالفعل يا سيدتي العزيزة. وبودي أن يسعك أن تقولي إنكِ قابلتِ رجلاً أعطاك شيئاً بلا مقابل».

صاحبها حتى سلم الفندق حيث نظر كل منهما في عيني الآخر ثانيةً في العتمة وعلى وجهيهما تعبيرات جادة وحذرة قليلاً. رفع الشمعة عالياً لينير لضيفته طريقها، إذ كان الظلام قد خيم بالفعل وبدأت الخفافيش تعيث في بئر سلم فندق الستاج.

ebooks4arabs.blogspot.com

الاتفاق

كان الظلام قد خيّم، وأجراس كنيسة سانتا ماريا تقرع، ورنين أدوات المائدة من فضة وزجاج ينبعث من مطعم وبار الفندق أثناء إعدادهم الموائد. حين سمع أجراس زلاجة، وقف جامداً للحظة، مستنداً على الدرابزين، يصخي السمع. كان هو أيضاً خفاشاً معلقاً فوق العالم عاليه أسفله، أحد المخلوقات التي توقظها أضواء الليل وأصواته البليدة فقط. توقفت الزلاجة أمام مدخل الفندق، صاح أحدهم فهرول الخدم بمصابيح للإنارة ثبتوها على عواميد طويلة مستدقة، وسكتت ضجة المطعم والبار المحببة، التي ألِف سماعها وهو يمر بأروقة الفنادق في المدن الغريبة، حين خرج من غرفته بخطوات سريعة، ينتعل حذاءه الأسود المبطن ذا الإبزيم الذهبي، وجورباه القطنيان الأبيضان مشدودان بإحكام حول ساقيه بكاملها، ومعطف فراك بنفسجي، يتدلى من خصره سيف رفيع بقبضة مطلية بالذهب، أسفل عباءة حريرية سوداء تصل لكاحليه، شعره مرشوش ببودرة الأرز بعناية، أصابعه تبرق بالخواتم، وفي جانبه محفظة نقود مصنوعة من مثانة سمكة تحوي العملات الذهبية، وفي جيبه حزمة

ورق لعب. وبهذا كله يكون على استعداد لقضاء الأمسية، على استعداد لمواجهة العالم. لا يطيق صبراً للمغامرة، قلبه مترقّب ومنقبض، كأن الترقّب والانقباض هما الشيء نفسه. يهبط السلالم بسرعة، قاذفاً بنظرات حادة هنا وهناك. يفكر أنه في حجرات شتى في المدينة نفسها، تجلس نساء بجوار شموع ينبعث دخانها برفق أمام مرآتهن، يحكمن ربط صدارتهن، يشبكن زهورا في شعورهن، يدهنّ أنفسهن ببودرة الأرز والعطور، يعدّلن شامة الحُسن على وجوههن، يفكّرن أنه ربما يكون العازفون في المسارح قد بدأوا بالفعل في ضبط آلاتهم الموسيقية، وخشبة المسرح وصالته تعجّان بالدخان الحامض المر لزيت المصابيح، والجميع يُعدّ للحياة، للأمسية، التي ستمسي احتفالية وسريّة وحميمة: يحب حينذاك أن يتوقف على سلالم الفندق الغريب ويصخى السمع للضجة الخفيفة لمرور النّدل والخدم، ورنين أدوات المائدة من زجاج وفضة وفخار. لم يكن شيء في الحياة في أي مكان في العالم، بالنسبة له، أمتع من مشاهدة الإعداد للاحتفال: الدوزنة، الهرج والمرج، كل تفصيلة مشبعة بالإحساس بالترقب لكل ما هو مدهش وما لا يمكن تصديقه. يا لها من متعة أن تبدأ بارتداء ملابسك في الثامنة! بعد أن تتوقف أجراس الكنيسة، وتمتد من النافذة أيادٍ شاحبة لتحكم إغلاق مصاريعها، وبحركات خفيفة وغامضة تبعد العالم الخارجي عن البيت، في ما يمثّل تبادلاً دائماً على نحو ما؛ وقت ما بعيداً عن الأمور الدنيوية؛ ليرتدي المرء ملابسه ويستعد للأمسية بضربات القلب السريعة المحببة التي تخبرنا أننا قادرون على أي شيء: على السعادة وعلى الشقاء؛ على السير بعيداً عن البيوت بخطوات

ثابتة وخفيفة، إلى الشطآن المعتمة لسويداء الأمسية. كان هذا هو أحب أوقات اليوم إليه، حين تتغير مشيته، ويُشحذ سمعه، وتلمع عيناه ويصير بمقدوره الرؤية في الظلام. كان في تلك الأوقات يشعر بإنسانيته في كيانه كله. لكن أيضاً، وبالمعنى المعقد للكلمة من دون أدنى إحساس بالعار، كمخلوق من البرية، يقف في دغل، بعد الغروب، وقد أوت المخلوقات الداجنة للظل أو اقتربت من فتحات المياه. يقف ساكناً صامتاً، يستمع لأصوات الغسق، رأسه مرفوع بانتباه جذل. هكذا بدا الآن وهو يستمع للجلبة المنبعثة من المطعم وهم يعدّون الموائد، وبدا العالم بأسره في تلك اللحظة احتفالاً. هل من شعور آخر يضاهي هذا الشعور في إسراع وإقلاق ضربات القلب، كترقب بدء الاحتفال؟

توقفت تلك الجلبة الآن. توقف صوت الهرولة وتلاه صوت نقر خطوات أخف وأسرع، ثم سمع صوت دق نعال أحذية خشبية تندفع راكضة. «ضيف مهم!» فكّر بينه وبين نفسه وهو يمد لسانه خارج فمه ويلعق شفته السفلى بترقب سريع ومتعطش. سرى اهتياج الفندق في جسده. كانت كلمة «ضيف» بالنسبة لأذنيه، المدرّبتين جيداً، إحدى أكثر الكلمات سحراً في العالم، معها كلمات أخرى مثل «الفوز»، و«فريسة»، و«بغتة»، و«الحظ»: تلك الكلمات، باختصار، من أفضل الكلمات التي يتمنى المرء سماعها. «ضيف ذو قدر كبير!» فكر باستحسان وتشوّق فرح ممتع. تحركت أضواء المشاعل على أرضية الطابق العلوي. كانت الأصوات تتصاعد من أسفل في كلمات قصيرة خشنة: لا بد أن الضيف على الباب بالفعل. صاحب فندق الستاج ينحني أمامه، يصدر أوامر صارمة ويعد من يعرف ماذا

يفعل بكل نعم السماء والأرض. «ضيف صعب!» فكر جياكومو كزميل مهنة، لأنه هو أيضاً ضيف «صعب» يحب إرباك مضيفه بسلسلة مطوّلة من الأسئلة الاختبارية، أن يدخل المطبخ ويتحقق بنفسه من حجم السلمون أو الديك المخصي أو لحم ظهر الحيوان أو لحم الغزال، ليرى مدى جودتها، يحب أن يأتوا له من القبو بنبيذ معتّق ممتاز فيظل يتشمم السدادة، بعد نزعها، لوقت. أو يشيح بها بعيداً بإزدراء ويطلب زجاجة جديدة، وحين تصل الجديدة، يتذوق القطرات الحمراء الدموية، التي لها كثافة الزيت، للعنب الفرنسي أو الجنوب إيطالي، بجهامة وتركيز شديدين. ثم يوافق أخيراً، بسماحة وخشونة قليلاً، على نبيذ معين، ويستدير مبتعداً عن الدرجات العليا للقبو أو عن باب المطبخ بإصبع نصف مرفوع ليذكّر صاحب الفندق بنبرة جافة وآمرة أن يتأكد من غلي الكستناء التي يحشون بها صدر الديك الرومي في اللبن والفانيليا أولاً، وأن تُدفّأ زجاجة النبيذ في القش أربعين دقيقة بالكامل قبل تقديمها. ثم، وليس قبل أي من هذا، يجلس إلى المائدة ويمسح صالة الطعام بنظرة متعالية، ويفرك عينيه ليوحي ببعض السأم والرضا، ناظراً لقطع الأثاث واللوحات التي لا يثير ترتيبها أو طابعها المحلي أو الدولي انتباه الضيف «الصعب» حقاً. حينها يكون الجزء الأصعب قد انتهى، فتجد طاقم الخدمة يقف دائماً على بعد نحو خطوتين. بعيداً بما يكفي لئلا يسمع المحادثات التي تدور همساً، لكن قريباً بما يكفي للقفز إلى المائدة استجابة لأي طرفة جفن والقيام بأي عمل فوراً. «إنهم يتفاوضون بشأن ما!» فكّر بينه وبين نفسه وهو يستمع للمحادثة المستمرة بين صوت الضيف الأجش وصوت

صاحب الفندق الذليل المتملّق. «ضيف من خارج البلدة!» فكّر بينه وبين نفسه، وتذكر أن ثمة حفلاً تنكريًا الليلة في قصر فرانشيسكا. حفل تنكري دُعي إليه جميع نبلاء البلدة، دار عنه الكلام كثيراً في البلدة خلال الأيام الماضية، وكان جميع الترزيّين والإسكافيين وتجار الملابس الرجالي وصناع الأشرطة والخياطات والحلاقين يتفاخرون بالشكوى من عدم استطاعتهم تلبية كل الطلبات. بل لقد قضى هو نفسه ثلاثة أيام يرسل للمرأة التي تغسل قمصانه لتغسل له قمصانه المسائية المكشكشة دون جدوى، لأنها مشغولة للغاية بتنشية وغسيل وكي أفضل الملابس الكتانية لحفل فرانشيسكا. وكانت البلدة تمتلىء بالضيوف الذين جاءوا للألعاب الرائعة والاحتفالات الراقية، يجذبهم جميعاً هذا النوع من الأنشطة الشيقة والمثيرة والبرئية تماماً، والتي تمسّ بأسلوبها الغامض الملتوي حتى هؤلاء الذين لا يشاركون فيها مباشرة... أتوقع أن يقضى الكثيرون الليلة التالية للحفل في فندق الستاج، فكر بينه وبين نفسه: إن الطقس مريع. أوشكت المرأة التي جاءته من توسكانا أن تأكلها الذئاب، وليس من المرجح أن ينطلق النبلاء وسيداتهم بعد الحفل في زلاجاتهم وأحذيتهم الفراء إلى الطرق المكسوة بالجليد، فجراً. وهذا الضيف «الصعب»، لابد أنه أحد المدعوين للحفل أيضاً، فكر وشعر بوغزة حسد حادة، كمن اكتشف فجأة إنه ليس مدعوًا لحضور مناسبة محببة. أدهشه هذا الشعور. ذكّره بطفولته حين كان يعلم أن الكبار يخططون لشيء ما غريب ورائع بدونه. رفع كتفيه، أصاخ السمع لمحادثة الضيف وصاحب الفندق لدقيقة أخرى، ثم استدار وعاد لغرفته.

ـ «بكلمات أخرى، لا أحد!»

قال الصوت الأجش الآمر في أسفل السلم. لابد أن الرد كان الصمت: كان باستطاعته تصور صاحب الفندق الخدوم، يضم يديه عند قلبه، ويحني جذعه ويشخَص بعينيه صوب السماء ليؤكد أن كل شيء سيكون كما يشاء الضيف. غير أن شيئاً ما في الصوت أوقفه قبل أن يدخل الغرفة. كان الصوت مألوفاً على نحو حميمي ومرعب. كصوت يميزه المرء لأنه يمتّ له بالفعل بصلة قريبة وحتمية. كان لهذا الإدراك الغريزي قوة مهمة في حياته؛ إذ يضبط بوصلته عليه. رفع رأسه يصيخ السمع بانتباه كحيوان يتشمم رائحة. كان الصوت لا شك فيه. وقف عند الباب وعلى وجهه تعبير جاد وتبجيلي تقريباً، أصابعه على المقبض، جسده كله متحفّز، تحدسه غريزة ما أنه على وشك لقاء قدريّ. عرف حينها أن الخطوات التي تصعد السلم ببطء ومشقة بذلك الوقع المنتظم تعتبر عنصراً حيوياً في حياته، وأن الصوت المجهول المنبعث من أسفل السلم يحمل له رسالة شخصية، وأن الضيف «الصعب» يبحث عنه هو، وأن خريطة حياته الفلكية على وشك أن تخضع مجدداً، وخلال دقائق قليلة، لتعديل جذري. تنفس بعمق وانتصب في وقفته. سرت في جسده قشعريرة عصبية، وكعادته دائماً في تلك المواقف طغت غريزته على تفكيره المنطقي للحظة، وشعر بقوة تدفعه لأن يركض لغرفته ويقفز من النافذة ويزحف في مجارير فندق الستاج ويختفي بأسلوبه المعتاد، في غياهب الليل وفي العاصفة الثلجية. لأنه، رغم كل شيء، الصوت الوحيد الذي يخافه، هذا الصوت «الرنان» الذي يقترب بالفعل على السلالم نصف المضاءة. كان يميز «الرنين»

الحتمي نفسه في أصوات النساء وأصوات رجالهن. لقد سبق ونال شرف مبارزة بالسيوف في توسكانا، عاري الصدر في نورالقمر، ليس في يده سوى سيف هزيل، في مواجهة خصم عجوز حاذق وخطير أفقدته الغيرة صوابه؛ وكان دائماً على استعداد للقفز من فوق أسطح الموائد والاشتباك في عراك مع الأوغاد والمتشردين في الحانات سيئة السمعة. كان باختصار لا يخاف شيئاً، لكنه مع ذلك كله لم يكن يخاف سوى من هذا الرنين، إذ كان يحيله لشعور معين، وكان يؤمن أن المشاعر كلها - وهذا الشعور دونا عنها جميعاً - تُغزل من حوله لتكبيله، وكان هذا ما يُخيفه حقاً. لذلك راودته فكرة أن يغلق باب الغرفة ويأخذ خنجره ويهرب من النافذة. لكنه عرف كذلك أنه، في نهاية المطاف، لا مفر له من هذا «الرنين». إنه فخّ لن يخرج المرء منه سالما. ظل منتظراً عند الباب، شعر جسده منتصب خوفاً وترقباً، ممسكاً بمقبض الباب، يمسح بنظره الفراغ المعتم من أعلى كتفه بعينين حادتين مرتابتين في انتظار الرجل الذي سرعان ما سيخاطبه بهذا الصوت المألوف. كان الوقت قد تجاوز الثامنة مساءً. أبطأت الخطوات بإجهاد واضح عند منعطف السلم. لم تعد جلبة أدوات المائدة تنبعث من البار، وخيّم صمت يمكن فيه سماع صوت تساقط الثلج، كأن الجبال والشوارع المكسوّة بالجليد والنهر والنجوم وبولزانو بأسرها تحبس أنفاسها. وجد نفسه يفكر أن «لحظة الصمت هذه موجودة دائماً عند كل منعطف رئيسي في حياة المرء»، فابتسم برضا عن هذا التعبير، لأنه، بالرغم من كل شيء، كاتب.

ثم ظهروا في مجال رؤيته، صاحب الفندق أولاً، يصعد

محدودب الظهر ومنحنياً، يغمغم ويوضّح ويُطمئن، يحمل شمعة رفيعة يتصاعد منها دخان، وعلى رأسه قبعة من قماش أحمر ناعم تشبه الحقيبة المدرسية، كتلك التي كان يرتديها الرعاة الفريجيون[1]، ومنذ عهد قريب بدأ يرتديها أصحاب الحانات وأصحاب الفكر الحر في أقبية باريس والأقاليم النائية. كان كرشه المنتفخ مغطى بمئزر جلدي لابد أنه يرتديه أثناء وجوده في القبو، حيثما كان على الأرجح يعبث بمحتوى السكر في النبيذ ودرجة حرارته، عادة لم يستطع الإقلاع عنها. وفوق المئزر، درّاعة زرقاء فاق بريقها بريق الأثواب الاحتفالية للطوائف والذواقين وتوحي بطقس ديني موغل في القدم، كذلك الذي قد يقيمه راهب مبتدىء في طائفة وثنية قديمة يُتوّج مُريدوها بحلقات البصل. كان هو من ظهر أولاً، ينظر من أعلى كتفيه ويغمغم ويطمئن بقدر هائل من الوضاعة والاهتمام، كمسئول فندقي مع عميل مهم، لأنه على الفندقي أن يكون مبالغاً في اهتمامه بالضيف الذي سيستيقظ في الصباح ويخرج مخلفاً الغرفة تعمها الفوضى، والفراش الذي شغله جسده النبيل، والحوض بمياهه القذرة، وعاء الإفرازات والإخراجات الإنسانية التي يخلفها وراءهم حتى أكثر الضيوف روعة، كدليل على وجودهم في غرفة بفندق. وهكذا كان صاحب الفندق ينحني وهو يشق طريقه بصعوبة وحماسة باديتان، تحمل كل حركة من حركاته خمسة عقود من

---

(1) سكان فريجيا وهي مملكة قديمة كانت في الوسط الغربي من الأناضول في القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

الخبرة كصاحب فندق ورجل كل التجارات، كافة بلا استثناء. كان يتقدم ضيفه بثلاث خطوات كخيّال عربة الملك وهي تمر ليلاً أو عربة أمير كونديه، أو كما بدا واضحاً الآن، دوق بارما، يتبعه موكب من أربعة رجال يتحلّقون حول خامس: اثنان أمامه، والآخران خلفه، ويحمل كل منهم شمعداناً فضياً بخمس شعب يرفعه عالياً فوق رأسه، ويرتدون جميعاً زي الخدم الموحد: مدرّعة من الحرير الأسود، سراويل خيش قصيرة حتى الركبة، باروكة بيضاء، وسلاسل فضية حول العنق وقبعات مسطحة على الرأس، وانتفخت ستراتهم الثقيلة من جلد العجل حول أكتافهم كأجنحة ضخمة وهم يتقدمون بخطوات صارمة، لا ينظرون إلى الوراء أو إلى الأمام، مشيتهم ميكانيكية ومتصلبة كالعرائس المتحركة في عرض في الهواء الطلق في أحد الأسواق. تقدم الضيف ببطء في قفص الضوء الذي يمدّونه به، يتحقق من كل درجة من درجات السلم بحذر قبل أن يتحرك، جسده ملفّع بعباءة سفر بلون بنفسجي صريح تصل لكاحليه، ليس بها بريق سوى عند الرقبة وحول الكتفين، ولها ياقة واسعة من جلد السمور. يستند على عكاز بقبضة فضية. يصعد درجات السلم ببطء وحذر، يقف على الدرجة ويثبت طرف العكاز على حافة الدرجة التالية، كأن كل خطوة تتطلب تركيزاً كاملاً، ليس فقط كمسألة ذهنية، بل كمشكلة جسدية أيضاً تفرضها حالة قلبه الذي يجد مشقة في الصعود. لذلك كان الموكب يتقدم ببطء شديد وبالزخرف الصارم لرجل يملك كل شيء لكنه لا يملك حرية الحركة وإنما يظل عبداً لما تقتضيه مكانته وما تفرضه عليه منزلته في الحياة من أبّهة والتزامات.

«لا يصعب تمييز قرابته بلويس السمين[1]». فكّر جياكومو فاغراً فاه وهو يقف في باب الغرفة نصف المفتوح، يخفف من احتقاره احترام حقود. تراجع خطوة للوراء في ظلمة الغرفة، إلى داخل عتبة الباب، وانتظر هناك بيديه الاثنتين على إطار الباب، يلتصق بالحائط بحذر في الظلام بينما يصعد دوق بارما السلم بمشقة.

في هذه اللحظة كان الموكب قد وصل إلى بسطة السلم حيث ينعطف الـرواق، فأمكنه رؤية صف كامل من وجوه الحراس يضاعفه شموعهم المرفوعة وهم في انتظار أن يستعيد سيدهم أنفاسه. بالطبع كان قد أدرك أنه دوق بارما قبل أن يصعد السلم، حتى قبل أن يسمع صوته؛ لأن صوت دوق بارما كان رناناً بقوة، رجل له حضور بإمكان جياكومو أن يعرفه على الفور، رجل يلعب دوراً محورياً في حياته. كان يعرف أنه قريب منه قبل أن يراه بوقت طويل؛ كان واعياً له حين غادرت المرأة التوسكانية غرفته لتعود لعبوديتها القاتمة، الخالية من الفرح، لحياتها مع زوجها الكئيب كثير الأسفار؛ شعر بحضوره حين توقفت الزلاجة أمام المدخل وبدأ صاحب الفندق تملقه وتطمينه. قليلون من يمكنهم الوصول هكذا، تأمل في شكل الوصول برضا مهني لا تشوبه شائبة، كأنه هو نفسه صاحب الفندق، أو حمّال أو نادل، أو الأفضل دائماً، الضيف الدائم الذي تعوّد الدخول بهيبة؛ درس أسلوب الدوق في الدخول من وجهة نظر زميل في الصنعة، بمزيج خاص من احتقار دمث واحترام لا إرادي، كان أسلوبه رسمياً، مهيباً، ويليق بالصحبة التي

(1) Louis Le Gros (1081-1137) يقصد الملك لويس السادس.

كيّفت نفسها تلقائياً على طقوس الدوق بشخصه ودوره، حتى الآن، حتى هنا، في هذا الفندق النائي المسكون بالخفافيش والمشبوه على نحو ما، يبدو كمن صف جنده خارج قصره في بولونيا وجاء بزلاجة تقطر بجثث الثعالب والذئاب والخنازير التي اصطادها في طريقه، أو كأنه في مسيرة مطعم «مسيو فواسين» أو مطعم «البرج الذهبي» في باريس، أو كأنه يترجل من عربته بالفرساي على مدخل «التريانون»[1]، حيث كان مضيفه رفيع المقام يسلّي ثلة من جميلات البلاط الملكي بلعبة ركِّب ذيل الحمار... لم «يظهر» دوق بارما في فندق الستاج ببساطة، بل «قام بدخوله». لم يصعد السلم ببساطة، بل اصطُحِب إلى هناك في موكبه. لم يقف فحسب حين وصل للطابق الأعلى، بل قام بظهور شعائري. كان الأمر كله أشبه بحلم: رؤية للحكم النهائي.

رفع الضيف نفسه الآن وألقي بنظره بحدّة على طول الرواق المعتم، في البرك العميقة للظلام المرتعش، والخدم يرفعون أذرعهم المزخرفة باتقان ليضيئوا له طريقه بشمعداناتهم القرمزية المشتعلة.

دوق بارما، قريب لويس، يتم هذا العام عامه الثاني والسبعين. «اثنان وسبعون»، حسَب بهدوء شديد ما إن وقع نظره على زائره. لم يبتعد عن الباب، بل وقف ممسكاً مقبضه بلا مبالاة، ويقظة مع ذلك، كان لامبالياً كشخص التقي مصادفة بضيف عادي ليس بذي أهمية في فندق مظلم وليس نظيفاً جدّاً. أو كشاهد صامت غير مكترث

(1) قصر قريب من قصر الفرساي.

لموكب بزُخرف مبالغ فيه. «هذه هي طريقته الوحيدة التي يعرفها ليتدبر أمره»، فكّر ورفع كتفيه، ثم خطرت له فكرة أخرى فجأة: «إنه يريد تخويفي!» صعقته الفكرة بقوة لا سبيل لمقاومتها، تُداهن عزّة نفسه. «لا أحد يشغل غرفة في فندق الستاج بهذا الأسلوب!» كان حدسه صحيحاً أينما ذهب، مع ذلك لم يكن ليذهب بعيداً، إذ كان شكاكاً، وحتى حين رأي دوق بارما يمسح الرواق بناظريه، رأسه ملقي للوراء، وعيناه مُضيّقتان حتى رأي الرجل الذي يبحث عنه واقفا عند الباب، كانت الدغدغة في أصبع قدميه ومعدته تؤكد شكوكه. لاحظ بنظرة عرضية واحدة أن رفقة الدوق غير مسلحة، والـدوق نفسه، حسبما رأى من تلك المسافة، لم يكن يحمل سلاحاً هو الآخر. بدا في مظهره وحركاته وتقدمه جليلاً وليس متوعداً. في هذه الساعة المتأخرة من النهار ـ أم كانت بواكير المساء؟ لم ينس الغريب ما يحدث عادة في مثل هذا الوقت من اليوم في الأماكن الأكثر عاصمية وبريقاً ـ حين يستعد القصر للحفل التنكري، حفل لامع على نحو خاص، مناسبة لاحتساء الشامبانيا ظلت المنطقة بأسرها تتحدث عنها لأيام، ولم يكن صاحب الحفل ليترك القصر الآن من دون سبب وجيه، ليس بتلك الرفقة الفخمة، وليس بالتأكيد ليقيم في فندق مشبوه على مقربة خطوتين من بيته. «لقد جاء ليراني أنا، بالطبع!» فكّر، وشعر بالإطراء في أعماقه من الأسلوب الشعائري للزيارة رغم كل شيء، لكنه في نفس الوقت، ومع ذلك، كان يعرف أن هذا الموكب لم يكن بالنسبة للدوق سوى أكثر التشريفات عمومية. إنه مجرد متجول، شخص ما تبادل معه الدوق كلمات وداع قليلة منذ سنوات ذات صباح سديمي بلون

البحر عند مدخل فلورنسا؛ إن تلك الشعائرية ليست سوى سمة طبيعية ودائمة في وجود الضيف نفسه، الفخامة جزء عضوي من كيانه. إن هذا الموكب هو المعادل للذيل الزاهي الألوان الذي يجره ذكر الطاووس خلفه دائماً، ويفرده بتلقائية ما إن يشعر بنظرة أحدهم إليه، كما يفرد المرء مروحة. كان دوق بارما قد تعوَّد التنقل هكذا لأي مكان منذ وقت طويل. الآن، أشار بيده الآن للخدم بعد أن ميز القامة الواقفة لدى الباب، رفع منظاره الذي يتدلى في سلسلة ذهبية على صدره إلى عينيه بلامبالاة وبحركة متقنة، طرف بعينيه قليلاً، حدق بثبات في الغريب كمن ليس واثقاً من أنه عثر على من كان يبحث عنه.

نطق الدوق أخيراً:

ـ «إنه هو»،مقتضباً وراضياً.

ـ «نعم، جلالتك»، وافقه صاحب الفندق بحماسة

كانا يتحدثان عنه في حضوره كما لو كان شيئًا، وكان هو مستمتعا بحيادية نبرة صوتهم. بقي حيث كان، لم يتعجل الترحيب بزائره، ولم يخرّ على ركبتيه راكعاً، إذ لماذا يفعل هذا؟ كان يشعر بلامبالاة عميقة ومزيج من الازدراء والسلبية أمام كل خطر دنيوي، والآن أكثر من هذا حتى. «ما الغرض؟» فكر ورفع كتفيه: «جاء العجوز ليحذرني، أو ربما ليهددني، سيحاول ابتزازي قليلاً ثم يطلب مني الرحيل أو حتى سيأمر بترحيلي إلى البندقية. ولمَ كل هذا؟ من أجل فرانشيسكا؟ سبب منطقي بالطبع. لماذا لم أترك أنا تلك البلدة النتنة التي لا يربطني بها شيء؟ لقد امتصصت

مينش ولا أتوقع المزيد من المساعدة من بابا براجادين وأنا هنا، لا أحد هنا يمكنني مناقشته في الأدب الرفيع، وقد ألممت تماماً بقبلات الصغيرة تيريزا المغوية بنكهة جوز عين الجمل، وبالبي يطارده كل ليلة صبية الجزار الغيورين بالهراوات والمديات، ولعبت الورق مع أبناء البلدة الذين يلعبون كما تتعارك الخنازير البرية. لماذا لبثت هنا لستة أيام أم أنها ثمانية الآن؟ كان بوسعي أن أكون في ميونيخ منذ أيام، حيث وصل بالفعل أمير «ساكسونيا» الذي سيهدر ثروة طائلة في «الفارو». لماذا مازلت هنا؟» أنعم الفكر في السؤال بسكون وصمت بينما كان الدوق وصاحب الفندق وحملة المشاعل يدققون النظر فيه كأنه شيء فقده أحدهم لفترة ووجده في النهاية بعد بحث لم يكن مضنيا، بحث فاتر، كأنه شيء ليس مرغوباً فيه على نحو خاص ولا حتى نظيفا، شيء لم يتبق بشأنه سوى السؤال عن كيفية رفعه، هل تمسكه بقبضة يدك أم بأطراف أصابعك وانت تمد ذراعك، أم تلقي عليه التراب ثم تمسكه بخرقة باليه وتلقي به من النافذة... فكر في الاحتمالات المتنوعة. ثم، وعلى نحو طبيعي تماماً، تحوّل ذهنه لفرانشيسكا. «بالطبع»، فكّر بينه وبين نفسه، وأدرك في تلك اللحظة كيف أن كل هذا نتيجة تسلسل منطقي وحتمي لأحداث لم تبدأ بالأمس ولا يقين من أنها ستنتهي في اليوم التالي؛ أدرك كيف أنه ذات مرة، في الماضي المعتم البعيد، بدأت سلسلة أحداث ارتبط فيها قدره وقدر فرانشيسكا وقدر دوق بارما معاً. كأنّ الحاضر ليس سوى استمرار لمحادثة بدأت منذ زمن طويل، ولهذا لم يرحل، لهذا يقف هنا، في مواجهة دوق بارما الذي كان يحدق فيه حتى الآن،

يلهث برفق وأنفاسه قصيرة على نحو ما، واقف في مقدمة رجاله كجنرال يستعد للهجوم: نعم، فكر جياكومو، إنه جنرال بقواته.

ـ «مرحباً!» صاح جياكومو بصوت عالٍ جدّاً وتقدم خطوة صوب الرجال ذوي الملابس المزخرفة. «هل من أحد هنا؟»

كانت نبرته حادة ولها صليل السيف. بالقطع كان هناك «أحد ما» في الرواق، أحد ما ضخم كالحياة وواضح كجبل، كنهر، أو كقلعة: أحد ما لا يمكن أن تخطئه. كان هذا «الأحد ما» يقف مستنداً على عصا بقبضة فضية، ورأسه الرمادي مرفوعٌ لأحد الجانبين، ومتزنٌ بجرأة ورشاقة على الكتفين العريضتين أعلى القامة الهيفاء، مثل كرة أرضية من العاج نُحتت على نحو مدهش في طرف عكاز أبنوس من الطراز الحديث. كأن الجمجمة الصلعاء المستديرة تماماً، بأهدابها اللامعة عند الصدغين والقفا من شعر خفيف حريري معدني قد تحولت لمخروط. بالطبع بدا صوت جياكومو متغطرساً، ووقحاً تقريباً، إذ حتى الرجل الأعمى كان بإمكانه أن يشعر، إن لم ير، أن شخص «الأحد ما» الذي وصل لفندق الستاج ليس شخصاً قد يُعامل بازدراء أو يُلقي إليه بنظرة جانبية مطوّلة. وأن رجلاً يقوم بزيارة بهذه الطريقة، بحاشيته، ليس رجلاً يمكن تجاهله أو الصياح فيه أو مخاطبته بتعبيرات مثل «مرحباً، هل من أحد هنا؟». أرتد أفراد الحاشية للوراء برعب يتوقعون الغضبة المحتملة، وغطى صاحب الفندق فمه ورسم الصليب على نفسه. لكن الدوق نفسه ظل هادئاً. تقدم خطوة للأمام ناحية الصوت، فسقط ضوء الشموع على الفم الضيق القاسي الشاحب الذي بدا أنه يبتسم بدهشة من السؤال

والنبرة على حد سواء. لابد أن السؤال سرّه. أجاب بصوت واهن وجاف ونقي مع هذا:

ـ «نعم، هذا أنا»، تحدث بهدو وثقة من أن كل كلمة من كلماته، حتى أكثرها هدوءً، لها وزنها وقوتها الكامنة. «لديّ ما أقوله لك جياكومو»

تقدم خطوة أخرى مبتعداً عن صاحب الفندق والحاشية الذين يشكلون حراسة عملية للشرف، ولوح بيده مشيراً إليهم بالانصراف.

ـ «قل للزلاجة أن تنتظر». قال وهو يحدق أمامه كحجر من دون أن ينظر لمن يأمرهم: «اِنتظروا أنتم بالأسفل. لا أحد يتحرك منكم.. أنتَ»، أومأ برأسه، ليس كثيراً بل بطرفة من جفنيه، ومع ذلك عرف الجميع أنه يعني صاحب الفندق، «تأكد ألا يزعجنا أحد، وسأعلمك حين ننتهي».

انصرف حملة المشاعل في صمت، اختفوا تدريجاً مع الأضواء أسفل السلم، فبدا واضحاً أن الليل قد خيّم، تبعهم صاحب الفندق بخطوات عصبية متعثرة.

ـ «هل لي أن أفرض نفسي عليك؟» قال الدوق بأدب جم ما إن ذهبوا جميعاً، منحنياً قليلاً، كما لو كان يخاطب صديق مقرب أو أحد أفراد الأسرة. «هل لك أن تتكرم وتستقبلني في غرفتك لفترة وجيزة؟ لن آخذ كثيراً من وقتك».

طلب هذا بمنتهى الأناقة والأرستقراطية، مع ذلك كان في نبرته شيء أشبه بأمر صارم أكثر منه طلب. شعر مضيفه حين سمع تلك

النبرة بالأسف فوراً على استخدامه تعبيرات مثل «مرحبا» و«أحد ما». وكأي مضيف يعلم جيداً مكانة ضيفه الرفيعة وأنه لا سبيل لتجنب هذه المحادثة، انحنى بصمت وأفسح الطريق بحركة من ذراعه الممدودة للأمام، تاركاً ضيفه يتقدمه، ثم أغلق الباب عليهما.

ـ «أنا ممتنّ للغاية»، قال الضيف ما إن استقر في مقعد بذراعين بجوار المدفأة، حيث أشار إليه مضيفه ليجلس. مد يديه النحيلتين الشاحبتين صوب ألسنة النار ـ تعانيان من الأنيميا لكنهما على قدر لا بأس به من الذكورية بالنسبة لرجل عجوز ـ وتحمم لفترة في وهجها الناعم. أفضي لجياكومو قائلاً:

ـ «تلك السلالم، أتعرف، صرت أجد صعوبة في صعود السلالم هذه الأيام. اثنان وسبعون عاماً، عمر حقيقي، ورويداً رويداً يتعلم المرء أن يحصي السنوات ودرجات السلم. يسعدني أنني لم أصعد السلم بلا جدوى. أنني وجدتك في البيت». وضم راحتيه أمامه برفق.

ـ «ضربة حظ»، تمتم مضيفه.

ـ «ليس حظاً»، أجاب بأدب، لكن ببعض الحزم. «كان رجالي يراقبونك خلال الثمانية أيام الماضية، وكنت أعرف كل تحركاتك. حتى إنني كنت أعرف أنك تلزم البيت هذه الظهيرة، تستقبل الزوار المأفونين الذين يأتون طلباً لاستشاراتك. مع ذلك لم آتك أنا طلباً للاستشارة، يا ولدي».

نطق الدوق كلماته برفق، كصديق مخلص قديم يعرف الضعف

الإنساني ويهمه بحق أن يساعد. فقط تعبير «يا ولدي» ما كان له رنين النذير في الغرفة خافتة الإضاءة؛ كان يحلّق فيها كتهديد خفيّ بالغ الرقة. اشتمّ جياكومو رائحة خطر فانتصب في وقفته وألقي نظرة سريعة غريزية ومتمرسة على خنجره وعلى النافذة.

سأل إذ يقف مستنداً على المدفأة عاقداً ذراعيه أمام صدره:

- «وما الذي يعطي الحق لسعادتكم في مراقبتي؟»

- «الحق في الدفاع عن النفس»، جاءته الإجابة بسيطة وأنيقة تقريباً. «أنت جياكومو، من بين الجميع، الضليع في هذه الشئون، تعلم تمام العلم أن ثمة قوة أخرى في العالم وراء السلطات العادية. إن سني التي وصلت لها وعجَزي الخاص اللذين حوّلا شعر رأسي إلى أبيضٍ كالثلج وسلبا مني عافيتي، يبرران لي الدفاع عن نفسي. إننا في زمن الترحال. يمر الناس بالبلدات ويسلمون المفاتيح لأحدهم الآخر، وليس بوسع الشرطة اللحاق بهم جميعاً: فقط تُخطر باريس ميونيخ بانطلاق أحد الشخصيات إليها ممن ينوون تجربة حظهم هناك. تخطر البندقية بولزانو أن أحد ألمع أبنائها ينوي حط رحاله هناك أثناء سفره. لا يمكنني أن أثق في السلطات وحدها. موقفي وسني ومكانتي يجعلون لزاماً عليّ أن أكون حريصاً عند مواجهة كل خطر. إن رجالي حادّو الملاحظة وموثوق فيهم: أفضل المخبرين في المنطقة؛ هم من يعطونني إجاباته وليس مأمور الشرطة. كانوا هم من سبقوا وأعلموني بوصولك. كنت سأعلم في جميع الأحوال لأن سمعتك تسبقك وتثير القلق في الناس، أتعلم أنه منذ وصولك صارت الحياة تحت تلك الأسقف المكسوة بالثلج

أكثر سخونة؟... يبدو أنك تحمل شغف العالم معك في متاعك، كما يحمل مندوبو المبيعات الجوالون عيّناتهم من قماش الكانافا والحرير. لقد احترق أحد المنازل، وقتل أحد ملاك الكروم زوجته في نوبة غيرة، وهربت إحدى النساء من زوجها ـ كل هذا في الأيام القليلة الماضية. ليس لهذه الأشياء صلة مباشرة بك، لكنك تجلب معك هذا القلق كما تحمل الغيمة حملها من البرق. أينما ذهبت تثير الزوابع في الأمزجة والوجدان. كما قلت: سمعتك تسبقك، لقد أصبحت رجلاً مشهوراً يا ولدي. أقر بهذا بإخلاص».

ـ «سعادتكم تبالغون»، أجاب جياكومو من دون أن يتحرك.

ـ «هراء!»أجاب ضيفه ببعض قوة. «لن أقبل تواضعاً زائفاً ليس لمثلك ادّعاؤه. أنت رجل مشهور، لقد مست طريقة وصولك أرواح الناس، وأخطروني بوصولك كما يعلنون خبر وصول عرض من عروض الأوبرا بباريس: أنت هنا والناس يشعرون بسعادة ساخرة تجاه هذه الحقيقة. جئت منذ ثمانية أيام خالي الوفاض، وأشعل خبر وصولك نيران متأجّجة في خيال الناس. حتى أنا كنت أتحرق فضولاً لرؤيتك، وفكرت في الاتصال بك يوم وصولك، في إعطائك إشارة ما. لكنني حينها ترددت. سألت نفسي «لماذا أتي إلى هنا؟ كان اتفاقنا نهائياً وملزماً، الاتفاق الذي عقدناه معاً عند مدخل فلورنسا مباشرة قبل أن أترك جسدك الجريح للجرّاحين، للعالم. فكرت أنك رغم كل شيء تعرفني، وتعرف أن أوامري لا تسقط بالتقادم أبداً. لا أؤمن كثيراً بالعهود والوعود الإنسانية: تتدفق الوعود من أفواه البشر بسهولة كما يتدفق لعاب البقر في موسم

التزاوج، بل أؤمن بالأفعال. وقلت لنفسي إنه يعلم أن أقوالي مثل أفعالي، وأنني توعدت أن أقتله إن وقع بصره على فرانشيسكا مرة أخرى. هذا ما قلته لنفسي في قلبي، لأنه كلما قل الوقت المتبقي لنا في الحياة كلما زاد ما نتذكره ونذكره. والآن ها هو! وهو يعلم إنه إنما يخاطر بحياته. لماذا هو هنا إذاً؟ ما غرضه؟ هكذا سألت نفسي. هل مازال مغرماً بالدوقة؟ هل أُغرم بها قط؟... ليس سؤالاً سهلاً، لن يمكنه الإجابة علي هذا. هكذا قالت لي نفسي، لأنه لا يعرف شيئاً عن الحب: يعرف الكثير عن دروب أخرى من الخبرات، عن مشاعر تشبه الحب؛ يعرف قلق البال، الفتن المضنية للشهوة والرغبة، لكنه في الحب جهولٌ. لم تكن فرانشيسكا له أبداً. هو يعرف هذا. أنا أعرف هذا: كان ثمة أوقات خلال السنوات الماضية شعرت فيها بوحدة قاسية، وندمت حينها تقريباً لهذه الحقيقة. أأنت مندهش؟... سيدهشني إن كان هذا يدهشك؛ ثمة وقت في الحياة، قد وصلت إليه الآن، عبر حكمة الحياة والقدر التي تفوق الوصف، يسقط منا فيه كل شيء: الزهو بالنفس، والأنانية، والطموح الواهي والمخاوف الزائفة، ولا نعود بحاجة لشيء سوى للحقيقة، وقد نمنح كل شيء مقابلها. لهذا أشفق أحياناً لحقيقة أنها لم تكن لك أبداً؛ لأنه إن كانت فرانشيسكا في أي وقت من الأوقات قد صارت له، هكذا أفكر مع نفسي بالمنطق، كنت سأعاني جرح اعتدادي بنفسي وأنانيتي، وربما كانت فرانشيسكا أيضاً ستعاني، لكنه كان سيكون الآن على مبعدة أميال، ولم يكن أبداً ليعود إلى بولزانو في أول محطّ له بعد السجن، وكنت أنا من سأكون على يقين من أن شيء ما كان سبق وبدأ منذ زمن طويل قد أتمّ الآن دائرة كاملة،

وبالمصطلحات البشرية: وصل لخاتمة؛ لأن ما يتعلمه المرء في أرذل عمره، موجز ما يفهمه ويتعلمه، أن العلاقات الإنسانية تأخذ دورتها كاملة ولا يمكن مقاطعتها قبل أن تفعل هذا: يستحيل ترك الدائرة ناقصة. لأن العلاقات الإنسانية يحكمها نظام يخضع له البشر كما يخضعون لقانون؛ نظام لا مفر منه. نعم يا ولدي، إن الهروب من أمر لم ينتهِ بعد أصعب كثيراً من الهروب من سجن بأسقف من الرصاص، حتى ولو ليلاً، ولو بالحبل! ألم تعرف هذا بعد؟ إن روحك وأعصابك وعقلك يختلفون تماماً عن روحي وأعصابي وعقلي، ولا يهمني حتى إن كنت تصدقني أم لا. كل يهمني أن تعرفه أنني أقسمت أني سأقتلك إن عدت مرة أخرى وحاولت مقابلتنا أو تجرأت على لمح الدوقة. هل تصدقني إن قلت إنني سعيد بمقابلتك؟ هل تفهم، أيها المستشار الحكيم؟ أنت يا من تقضي طيلة يومك تسدي النصح للبسطاء الخائفين من أجل رنين بضع عملات ذهبية، كيف أنني في ضوء كل ما حدث بيننا، أو بالأحرى كل ما لم يحدث، حين تلقيت أخبار وصولك الوشيك، تأكدت من يقيني الخاص بأنك إنما انجذبت بالقرب منا ومن حياتنا رغماً عنك، دون تخطيط أو حيلة منك، بانجذاب قدري، خضوع فطري لقانون راسخ كالقانون الذي يحدد مسار القمر حول الأرض، لهذا يسعدني أن أجد أن فطرتك الأولى قد جاءت بك إلى بولزانو. هل تصدقني إن قلت لك إنه تسعدني رؤيتك؟... نعم، جياكومو، إن وجودك هنا لهو سعادة وراحة لي. هل بوسعك أن تفهم هذا؟

ـ «لا أفهم». أجابه جياكومو مذهولاً.

ـ «سأبذل قصاري جهدي لأشرح لك»، جاء الرد بسرعة وتؤدب وبعض تحذير. «لم أكن دقيقاً تماماً بما يكفي لأشير لشعوري بالسعادة. أحياناً تصير هذه اللغة المدهشة التي عززها العاشق العظيم دانتي بقبلاته خائبة حين تصيغ أفكاراً. إن السعادة كلمة عامة ولها رنين عام، توحي برجل يفرك يديه ويبتسم ابتسامة واسعة. في الحقيقة لم أفرك يديَّ حين تلقيت خبر وصولك، وبالتأكيد لم أبتسم ابتسامة واسعة. فقط تسارعت دقات قلبي قليلاً وشعرت بالدم يجري في عروقي على نحو ذكّرني بسعادة بعيدة، لا شك أن الشعور الذي أحاول تسميته الآن يتعلق بها، لأن جميع العواطف الإنسانية تنهل من البئر العميقة نفسها، سواءً بدت كالبحار الثائرة أو كفقاعات رقيقة فوق السطح. قد تكون أفضل كلمة للتعبير عن هذا، J'etais touché [إنني تأثّرت][1]، إن صح التعبير بلغة المبارزة، اللغة المشبعة بالمشاعر الإنسانية، لغة شبيهة أنت تعرفها مثلما أعرفها. الحقيقة أن شيئًا ما أثّر فيّ، ودُهشت لدقة التعبير، بالتأكيد ستفهمه وتستحسنه ككاتب، حسبما سمعت من الإشاعات التي يجوب بها شريكك ورفيقك في البلدة. عليّ أن أقرّ بأن رؤيتك ككاتب ـ بولزانو قرية صغيرة لا تخفي فيها زلة إنسانية طويلاً ـ تسرني على نحو مدهش؛ لم أشك قط أن لديك صنعة ما خاصة بك، وتأكدت أنك منوط حقاً بمهمة ما بين البشر، مع ذلك أقر إنني حتى الآن لم أربط أبداً بينك وبين هذه الصنعة أو هذا الدور خاصةً، كنت طوال الوقت أتصورك، بطريقة ما، من هؤلاء الذين تجيء أقدارهم

(1) بالفرنسية في الأصل.

وشخصياتهم من لب المادة الخام للحياة، ممن يكتبون بالدم وليس بالحبر، لأن خامتك الحقيقية من دم حقاً وليس من حبر جياكومو؛ أنا واثق انك تعرف أن..».

ـ «سعادتكم تسرعتم في الحكم»، رد جياكومو بكبرياء. «إن الفنانين يستغرقون طويلاً ليكتشفوا المادة التي يفضلون العمل بها».

ـ «بالطبع»، أجابه الدوق بتأهب مندهش وحماسة شديدة تقريباً. «عفواً! بم أفكر! أتري ما يبليني به عجزي، نسيت أن الفنان ليس سوي تجسّد شخصي لعبقرية الإبداع الذي يسوقه، أن ليس له الخَيار؛ لأن عبقريته هي ما ستضع في يده القلم أو الإزميل أو الفرشاة، وأحياناً السيف حتى، شاء ذلك أم أبى. ستفكر أن مايكل أنجلو وليوناردو دافنشي ـ ابنيّ البندقية، مثلك ـ قد أحسنا بالقلم والإزميل والفرشاة كلٌ بدوره، ونعم، برع ليوناردو بالمشرط أيضاً، بحبه الاستثنائي والمرعب للمغامرة، الذي جعله يتسلل في جنح الليل، يدنو شيئاً فشيئاً من الأسرار الخفية للجسد الإنساني، كما يصمم بيوت الدعارة والقلاع؛ مثلما كان مايكل أنجلو، نصف الإله النزق مشوه الخلقة هذا، ينظم سونيتات ويجصص قباب، وياله من نظم! ويالها من قباب! يا عزيزي جياكومو! كان أيضاً يصمم القاعات والشواهد، وكان أثناء كل هذا، يقضي وقت فراغه في رسم لوحة يوم القيامة![1] هذا فنان لك! إن الروح لتموج ويخفق القلب حين يتأمل المرء في المدى الهائل، لهكذا عبقرية؛ إن قوة

---

(1) الصورة على هذا الرابط http://en.wikipedia.org/wiki/File:Michelangelo,_Giudizio_Universale_02.jpg

الأشخاص العاديين تنهار في مواجهة تلك الآفاق البعيدة. أهذا ما تعنيه حين تقول إنك كاتب؟ أفهم هذا، أفهمه حقاً. أنا سعيد لإدراكي هذه الحقيقة يا ولدي لأنها تفسر لي أشياء كثيرة جدّاً. نحن نكن احتراما شديداً للكتّاب، حيث نشأتُ. وأنت، بأسلوبك، تعتبر نموذجاً حسناً للسلالة. إنك كاتب يغمس سن قلمه في الدم تارة وفي الحبر تارة، كما أخبرت سكرتيرك الذي يردد ويذيع كل ما تقوله بإخلاص؛ وبالرغم من الزعم بإنك، حتى الآن ـ وكما يبدو من أعمالك الكاملة للملاحظ غير الخبير ـ قد كتبت بالدم فقط، بسن الخنجر! لا تنكر هذا! من يعرف هذا أفضل مني أنا؟ أنا الذي كتبت روائع دموية عديدة بسيف أسلافي؟ لا بد أننا حين تواجهنا بالسيوف آخر مرة، قد انخرطنا في حوار تام لكنه لم ينته بعد كذلك، حوار ظننا أننا أنهيناه حينذاك تحت نور القمر بعلامة الوقف أو نقطة النهاية الخاصة به. لكنني فهمت الآن أنك كاتب حقاً، (أعلن هذا بالرضا المبهم نفسه)، كاتب يسافر في العالم ليجمع مادة كتبه!

أومأ بحيوية وباستحسان متحمس ولمعت عيناه بجذل.

كان كعجوز في طفولته الثانية وقد أدرك أخيراً كيف تعمل شبكة معقدة من العلاقات: كأنه كان يؤمن تماماً أن الشخص الذي يسعى لرؤيته كاتب حقا بحيث ملأه إيمانه هذا بدهشة وسعادة. «إذاً، لقد وصلت إلى خاتمة سنوات ترحالك! يالها من سنوات حيوية، أيضاً، آه، نعم... في أوقات ما كنت أنا... ولكن بالطبع ليس لي أن أقارن نفسي بك، لإنني لم أؤلف أعمالاً عظيمة، لا، ليس حتى بأسلوبي الخاص: عملي هو حياتي وليس أي شيء آخر، حياة اضطررت

لعيشها حسب قواعد وعادات وقوانين. وفي هذا، وللأسف، أخشى أنني، تقريباً، قد نجحت. قلت تقريباً يا ولدي، وأسألك ألا تتحرى الدقة معي، لأنني أيضاً تعلمت بما يكفي لأعرف أن علينا تحري الدقة في اختيار كلماتنا ـ إن شئنا لها أن تكون ذات قيمة أو فائدة في الحياة. قلت تقريباً. أترى، أنا الذي لست كاتباً، أجد صعوبة في التعبير وأعي على نحو عفوي بكل من تلك الصعوبة وبعجزي أمامها. بالفعل، لا شيء أصعب من التعبير عن النفس من دون لبس، خاصة حين يعلم المتحدث أن كلماته مطلقة، أن شبح الموت يقف خلف كل جملة. وأنا أعني الموت فعلاً، أتعرف، موتك أو موتي»، أضاف هذا بصوت خفيض وهادىء.

وإذ لم يتلق رداً ظل يحدق في الجمرات القرمزية والسوداء في النار، رأسه يميل جانباً ويتهادى برفق كأنه يحلم أو يتذكر. ثم بادر بالقول ثانيةً، بصوت أعمق قليلاً هذه المرة، وبأسلوب لم يزل ودوداً للغاية.

ـ «لست أهددك يا جياكومو. فلم نعد في مرحلة يليق فيها التهديد. فقط بودي أن تفهم لماذا استخدمت كلمة «تقريباً». كنت أتحدث عن الموت، بسيطاً وخالصاً، ولم يكن هدفي الإعجاب بالجمال المهيب لمفهوم فلسفي نوقش مراراً إذ اكتشف مغزاه الأكثر قتامة. الموت الذي أتحدث عنه مباشر وشخصي، موت متوقع تماماً وفي وقته تماماً، حتى وإن لم نستطع التوصل لاتفاق ما بطريقة ذكية وإنسانية تماماً. لأنه، أتري، لم أعد أحبذ القتال، حتى وإن يكن للسبب التافه القائل: بأن القتال لا يحل شيء أبداً.

نحن نكتشف كل شيء في وقت متأخر. العدوان على شخص ما ليست الطريقة الحاسمة لإنهاء أي شأن، والدفاع عن النفس فقط يسوي الخلاف إن كان دفاعنا عادلاً وعقلانياً. بكلمات أخرى، علينا ألا نستخدم أذرعنا وحنقنا فقط، بالرغم من روعة ممارسة كليهما، بل قوة الذهن النشط الأكثر حكمة ونضجاً أيضاً. كم عمرك الآن؟ ستتم الأربعين في عيد ميلادك القادم...؟ سن جيدة لكاتب. نعم جياكومو إنها ذروة حياة المرء، وبوسعي أن أتذكر وقتي هذا من دون حقد، لأنه ليس صحيحاً ما يقال أنه كلما مضت الحياة سريعاً كلما تحسّرنا على ما مضى منها- رغم مضيها بالفعل، أليس كذلك؟ ساعدني إن لم أكن واضحاً بما يكفي: فأنت رغم كل شيء كاتب! ألم نخسر حقاً ما كان لدينا سابقاً؟ هل نحن عرضة لخطر المعاناة مما يدعوه هؤلاء الذين يقعون فريسة سهلة للعواطف الزائفة، على نحو غير دقيق البتة، خسارة؟ يقصدون فقدان الشباب الذي حتماً سيتجاوزنا ويختفي عن الأنظار كأرنب بري في المرج، وفقدان الرجولة، التي يوما ما ستغرب عنها الشمس. مضى الوقت الذي استمتعنا به، الذي تحركنا فيه، الذي امتلكناه يوما ما كما نمتلك متاعاً شخصياً. لا، إن الوقت الذي مر لهو حقيقة داخل النفس ولا داعي للبكاء عليه؛ إن المستقبل هو ما أترقبه بقلق، بحدة ترقي للندم. نعم، المستقبل، على غرابة وسخرية هذا في سني هذه. ليس بودي استعادة ما مضى: إذ كان في حد ذاته وقتاً مليئاً ومكتملاً، لست أحزن على شبابي، بزخمه بالتصورات الخاطئة والكلمات الطنانة وكل تلك الأخطاء الحساسة والحنونة والمتكبرة والمرتبكة والمرقعة والفجة للقلب والعقل. إنني أنظر بعين الرضا

لمشهد نضجي الذاتي الذهبي المتلاشي. ليس أخطر على المرء من الشعور الزائف اللاواعي بالرثاء للذات، بذرة البؤس والمرض والجهل، الرثاء للذات هو البئر العامة لكل كرب الإنسان. ما حدث قد حدث، ولم يضع، بل محفوظاً كما هو في الطقوس العجيبة للحياة ذاتها، الأعقد مما يتصوره عنها القساوسة المبتدئون وأكثر غموضاً من تصرفات علماء الحشرات المعاصرين الذين يحفظون أعضاء الأموات للأجيال القادمة. بالنسبة لي أنا، أرى أن للماضي حياته الخاصة التي تفوح بالقوة والرخاء، لكنني مهتم بالمستقبل يا ولدي»، كرر بصوت عال للغاية، بصياح تقريباً. «لابد أنك تفهم هذا لأنك كاتب».

كان جلياً أنه لا يتوقع رداً. ولم يكن بصوته أدنى تهكم حين كرر بعناد كلمة «كاتب».

أخذ يصف، بتعاطف شديد، الكاتب المنفي الذي عليه الآن أن يصل لنهاية ترحاله، بعد أن جمع مادة ـ كمغامرته هنا في بولزانو؛ حيث يعيش دوق بارما ودوقته على سبيل المثال ـ ليستخدمها ذات يوم في كتبه، تحدث كمن يحب صنعة الكاتب، وما تورثه من نمط سلوكي، بكل كيانه وبمنتهي الحماسة ـ كمن يخاطب أحد أصدقاء المجون في حفلة رقص تنكرية بغمزة عين دمثة، كأنه يقول له: «عرفتك، لكنني لن أخبر أحدًا. واصل حديثك». لكن مضيفه بقى صامتاً: كان الزائر فقط من تحدث. فقال بعد فترة صمت قصيرة:

ـ «إن المستقبل يهمني لأن حياتي لم تنته بعد. ليس أمثالك مِن الكُتّاب فقط مَن يفضلون انتهاء القصة على نحو لائق، العالم كله

يفضّلها هكذا. إنها الطبيعة الإنسانية التي تجعل كل من الكاتب والقارئ يتطلبان من القصة أن تصل لخاتمة جيّدة وتنتهي كما يليق، طبقاً لقواعد الصنعة وحسبما تلحّ عليه سويداء الروح. نحن نريد وضع نقطة النهاية في موقع جيد:. وضع علامة الوقف، ووضع النقاط فوق الحروف. هكذا ينبغي أن يكون الأمر. لهذا أكرر كلمة «تقريباً» مرة أخرى، مفكراً أنها قد تفيدنا في الوصول إلى خاتمة تاريخنا المشترك. شيء ما يتبقى لقوله، شيء ما ينبغي تسويته قبل أن تنتهي القصة، رغم أنها ليست سوى واحدة من مئات الملايين أمثالها من القصص الإنسانية، قصة من العمومية لدرجة أنك قد تقرر أن تحذفها من الكتاب حين تجلس لكتابته بعد جمع ما يكفي من مادة. لكنها عندنا نحن الاثنين، أم عليّ أن أقول نحن الثلاثة، ذات أهمية طاغية، أهم من أي قصة أخرى تم تأليفها سواء بالحبر أو بالدم؛ أهم من الزيارة التي قام بها شاعر النعيم العظيم ذات مرة إلى الجحيم، وعلينا أن نختمها هنا على الأرض، لأن هذا بالنسبة لنا أكثر متعة من النعيم أو الجحيم، أيا كان ما لم يحدث بعد، لإعادة الكرّة والسماح لنا بوضع النقاط فوق الحروف؛ أياً كان ما يتطلبه الأمر من ترتيب وتصفية لشئوننا معاً لنصل إلى خاتمة للتاريخ المشترك بيننا نحن الاثنين، أو نحن الثلاثة، سواءً تحول هذا الترتيب إلى نكد جنائزي أم مبهجي مرهف الحس. الأمر يعود لك أنت فقط، أنت الكاتب، بوسعك أن ترى أنني أزورك في توقيت سيء من حياتي؛ إذ أعاني من داء المفاصل، وصرت أفضل في المساء أن أبقى وحدي في غرفتي مع عاداتي القديمة ونار دافئة تواسيني. ولم أكن لآتيك الآن لو لم يكن عليّ أن آتي،

لأنه صدقني، نحن إذ نخطو نحو أرذل العمر، وتصرّ عظامنا من ثقل الزمن، وتُنهك أرواحنا الكلمات اللئيمة والخبرات القاسية، يزداد إحساسنا بالزمن حِدّة ونكتسب سلوكيات ذكية واقتصادية. إدراك ما أو حاسة ما تخبرنا إلى متى علينا أن ننتظر ومتى، للأسف، نقوم بتحرك. لقد جئت إليك في الوقت المناسب، أثناء انشغال جميع من في البيت بالاستعداد للحفل، يعدّ الخدم الموائد، ويضبط الموسيقيون آلاتهم، ويجرب الضيوف أقنعتهم، وكل شيء يسير كما ينبغي حسب قواعد اللعبة التي تجلب متعة معينة في العيش، وتُمتعني بالتأكيد، فلا شيء أمتع عندي من مراقبة الشغب الأحمق المشوش من ركن خاص بي وأنا أرتدي قناعي. عليّ أن أسرع في العودة لأغير ملابسي. أتود رؤية قناعي؟ إن مررت بنا الليلة ـ كما آمل، وأرجو أن تعتبر هذه الكلمات دعوة متأخرة عن موعدها ـ بالتأكيد ستميزني من تحت قناعي؛ قناع لا مثيل له، رغم أن الفكرة نفسها ليست جيّدة على نحو لا يمكن إنكاره، شيء ما استعرته من مسرحية شعرية لم تكن مكتوبة بلغتنا الحلوة المألوفة بل بلغة أبناء عمومتنا الشماليين الأكثر قوة وجلافة، الإنجليز. وجدت الكتاب منذ عام في مكتبة ابن عمي الملَكية بمارلي، وعليّ أن أقرّ بأن القصة أذهلتني. مع ذلك، فقد نسيت اسم المؤلف. كل ما أعرفه أنه كان منذ وقت قريب يعمل كوميدياناً ومهرجاً في لندن(1)، أرض ابنة عمنا البعيدة الريفية، تلك القبيحة، نصف الرجل نصف الساحرة،

(1) الإشارة للكاتب المسرحي الإنجليزي ويليام شكسبير ومسرحيته حلم ليلة في منتصف الصيف.

إليزابيث. باختصار، أوحت لي القصة أن أرتدي الليلة رأس حمار، ستعرفني منها إن جئت وأبقيت عينيك عارية. لعلك بالفعل تعرف أن إحدى الشخصيات الرئيسية في المسرحية ترتدي رأس الحمار، من تحتضنه البطلة، تيتانيا الواثقة، ملكة الشباب، وهي تفعل ذلك بعاطفة عمياء لا مرئية هي جوهر الحب. لهذا سأرتدي الليلة رأس حمار ـ وربما لسبب آخر كذلك، لأنني أريد أن أتخفى في قناعي لأسمع العالم وهو يضحك عليّ، أريد أن أسمع لأول مرة في حياتي، بأذني حمار، ضحك العالم وهو في أزيائه المزخرفة، في قصري الخاص، في ذروة حياتي، قبل أن ننهي الجملة ونضع النقاط على الحروف. ستكون هناك ضجة كبيرة، ألا تظن؟»

تحدث بصوت عالٍ الآن، بأدب، لكن بنصل حاد لصوته: كصليل اصطدام السيوف في الضربات الأولى للمبارزة. «أريد حقاً أن أسمع ضحكهم عليّ وأنا أرتدي رأس الحمار في قصري. لماذا؟ لأنه حان وقت هذا: الساعة جياكومو، أتت أخيراً، ليست وشيكة، لكنها بسرعتها الخاصة وفي حينها تماماً، حين أستطيع أن أحمل نفسي على الدق على بابك، حين أكون على استعداد لارتداء رأس الحمار الذي يليق بعاشق مثلي، رأس الحمار الذي سأرتديه الليلة لأنني، في موقفي هذا، إن كان على أن أختار حيواناً، أجد الحمار هو المخلوق الأقل سخفاً والأكثر أمانة، مع الأخذ في الحسبان أنه من الوارد تماماً أن يأتي صباح أرتدي فيه شيئاً مختلفاً تماماً، قرنَيْ ظبي مثلاً، على سبيل التعبير الشعبي الساحر الذي لم أفهمه أبداً. حقاً، لماذا نعتقد أن للأزواج المخدوعين الذين لا تحبهم زوجاتهم قروناً.. هل بوسعك كلغوي وكاتب أن تفسر لي هذا؟»

انتظر بصبر، يداه مشبكتان، يطرف بعينيه، ومائلاً في جلسته على المقعد ذي الذراعين للأمام قليلاً، كما لو كان الأمر مهم جدّاً، كأنه يعني حقاً بالأصول اللغوية للتعبير الشعبي الساخر. رفع المضيف كتفيه وأجابه بلا مبالاة:

ـ «لا أعرف، فقط دَرَجَ القول. سأسأل مسيو فولتير إن مررت ببيته في «فرنيه»، وإن سمح لي بالدخول، وسأرسل لك الإجابة».

ـ «فولتير!» صاح الزائر بطرب. «يالها من فكرة بديعة! نعم، أرجوك اسأله لماذا تزين اللغة الديّوث بزخرف القرون. أرجوك أخطرني بالإجابة. لكن أتظن أن فولتير، الضليع في اللغة، له خبرة مباشرة بالأمر، هناك في فيرنيه؟... إنه رجل بارد ونيرانه الذهنية كالعقيق الأحمر قد يتوهج لكنه لا يُدفيء. لأقول لك الحق، أنا أفضّل أن أسمع رأيك أنت، إذ أشعر بأمل منطقي في أن تفسيرك قد يحمل شيئاً ما من قدرته على الاحتراق..».

ـ «سعادتكم تمزحون مزحة تشرِّفني وتطريني. لكنني في الوقت نفسه أشعر أن عليّ الإجابة على سؤال مختلف لم يطرح بعد».

ـ «حقاً جياكومو؟ أيوجد سؤال لم أطرحه؟» أجاب الضيف بدهشة. «هل أنا مخطيء إلى حد بعيد هكذا؟.. ألا تفهم حقاً لماذا أنا هنا وماذا أسألك؟ بعد كل ما حدث وما لم يحدث بيننا ـ لأنه كما ترى ليس الفعل نفسه بكل شيء، بالطبع، لم أكن لأجلس هنا في هذا الوقت المتأخر وغير المناسب لي في جميع الأحوال، لو كنت أنت قمت بفعل بدلاً من التحدث؟ والآن وقد قلت هذا، وقلت كل شيء ما عدا السؤال الذي لم يعد بمقدورك الإجابة عليه بكلمات،

دعني أكرر على مسامعك، كان عليّ أن آتي الآن، وليس قبل الآن بلحظة. إن توقيت زيارتي سليم تماماً، لأن الشأن الذي أريد تسويته معك لا يمكن تأجيله إلى ما بعد الآن. عليك أن تعيره كل اهتمامك فوراً. أنا أحمل لك رسالة ـ لعل كاتبها لم يخطر بباله للحظة إني أنا الذي سأسلمها، وعليّ أن أعترف بأنه ليس دوراً مجزياً ولا مناسباً لي ذلك الذي وجدت نفسي أقوم به، إذ لم أحمل في حياتي كلها سوى رسالة غرام واحدة وكانت من ملكة إلى ملك. لست postillon d'amour [مرسال غرام][1]، لأنني احتقر مهارة الوصل بين اثنين والمكر الرخيص وكل تلك الصفات التي يتعلمها المرء من خدمة العالم السفلي للمشاعر الإنسانية. مع ذلك كله أحمل لك رسالة، من الدوقة، بطبيعة الحال، كتبتها وقت الظهيرة بعد الاستقبال الصباحي بوقت قصير حين تركتها لتدرس في كتبي. ليست رسالة طويلة. كما حري بك أن تعلم أن النساء العاشقات كعظماء الكتاب يكتبن ملحوظات قصيرة ويستخدمن الكلمات الأكثر ضرورة فقط. لا، لم يكن ليخطر ببال الدوقة أنني من سيحمل الرسالة إليك، ولعلها تظن الآن أن الرسالة التي تاقت للرد عليها ـ ككل العشاق الذين يؤمنون بقدرتهم على الإسراع بالزمن على نحو استثنائي وأعمى ـ قد ضاعت. أحياناً يؤمن العشاق بقدرتهم على التحكم في أشياء أبدية، في الحياة والموت! وللحقيقة ثمة أسباب وراء هذا الإيمان، لأنني الآن، وأنا أنظر بعيداً عن الماضي وأركّز كلياً على ما تبقى لي من الوقت، القدر الأقل كما تخبرني الساعة الرملية، أري

(1) بالفرنسية في الأصل.

أن ما هو قادم يحمل لي ما لم يحمله لي أي وقت مضى، وأن الزمن من أغرب الأشياء: ليس بوسعك قياسه بمصطلحاته الخاصة. لقد ظل زملاءك الكتاب القدماء يخبروننا منذ الأمد أن لحظة واحدة مكتملة قد تحوي أكثر، أكثر إلى ما لا نهاية، مما سبقها من سنوات وعقود غير مكتملة! إنني الآن حين أطرح سؤالي، والذي هو طلب أيضاً، الطلب الأكثر حسماً ووضوحاً، لم يعد بإمكاني أن أهز رأسي ذهولاً من الثقة العمياء للعشاق في قدرة مشاعرهم المجرّدة على دكّ الجبال ووقف سير الزمن وما إلى ذلك. كأن كل عاشق يشبه جوشوا[1] قليلًا في قدرته على وقف جريان الشمس في سماء المعركة، يتدخل في نظام العالم وينتظر النصر، نصر في حالتي هذه يعتبر هزيمة أيضاً. الآن وأنا مجبر على النظر للأمام، ولست في حاجة للنظر لبعيد أيضاً، لأنني حتى بضعف نظري هذا بإمكاني فقط أن أميز عبثية ما تبقي لي، نعم عبثية، دنيوياً فقط، لأن الأمر في عيون العشاق سرمديا ومستغلقاً، أجدني بالفعل، رغم كل هذا، أفهم القدرة الفائقة لإرادة العشاق، أؤمن حقاً بقدرة رسالة صغيرة، رسالة عطرة لطيفة، بأخطائها الإملائية ـ أنت كاتب، لهذا ألتمس منك العذر للأخطاء التي قد تلحظها حين تقرؤها ـ لكنها رسالة حادة في شعورها، لها شعور مبهم ومهلك من الضحك لطفولته في بعض النواحي، لكنه كالوثبة المضطربة في حدة رغبته ـ على تجميد قوانين الطبيعة، فيفرض سلطته لوهلة، أو لنقل لثوان قليلة من منظور

(1) أحد شخصيات التوراة، معروف بالعربية بيوشع بن نون، وأحد الفرسان التسعة في الكوميديا الالهية لدانتي.

الأبدية، على الحياة والموت. الآن، وقد أكرهت على مواجهة أحد أعظم ألغاز الحياة ـ وكلانا جياكومو بإمكانه طرح أسئلة وتقديم إجابات في الحال، كأننا في امتحان غريب حيث كل منا المدرِّس والطالب في الوقت نفسه! ـ الآن، وقد صار عليّ أن آخذ بندقية حياتي الصدئة وأحشوها بالذخيرة الحية للإرادة وأصوّب نحو هدف معين لا أخطئه كما فعلت مراراً من قبل، بيدين ثابتتين وعينين لا يغشاهما شيء، بدأت أؤمن حقاً بأن ثمة قوة واحدة بمقدورها تجاوز ليس فقط القوانين البشرية، بل الزمن والجاذبية أيضاً. هذه القوة هي الحب؛ ليس الشبق يا جياكومو، أيها التعس كصياد أو ككاتب أو كمستكشف، تجذب فريستك ليلاً، الجسد المثار الفائر النازف، إلى الفراش هنا وهناك في جميع أركان العالم ـ سامحني لمحاولتي تصحيح القوانين الأساسية لوجودك وتناقضي مع خبرتك الجديرة بالاعتبار ـ لكنه ليس الشبق، ليس الجوع الخفي القارص الذي يبحث دائماً عن فريسة أينما وجدت الرغبات الدفينة والوحيدة، يحدق بعينين ثابتتين في انتظار أن يتحرر، لا بعيني مقامر حين يري الفرصة سانحة أو استراتيجية عسكرية تحمل سلّم حبال وتراقب نوافذ الفضيلة النائمة، على استعداد لقذفها بألفاظ فجة قليلة؛ ليس الحرمان الذي يولده الحزن والوحدة الموحشة: ليس كل هذا ما يمكّن المرء من القيام بفعل. أنا أتحدث عن الحب جياكومو، الحب الذي يحبك شباكه حولنا جميعاً في وقت ما أو آخر، وقد يحبك شباكه حول حياتك السوداوية حتى بأسنانها الحادة الضارية. لأن ثمة أسباباً لمجيئك إلى بستويا قبل سنوات وأسباب

لهروبك. لا يوجد رجل مذنب تماماً، ولا رجل برئ تماماً. أنت أيضاً ثمة أوقات تملّكك فيها الحب.

ـ «حينها طاردتك حتى التقى سيفانا، كم كنت أحمق! كنت ستكون على حق تماماً إن كنت دعوتني بالعجوز الأحمق ذاك اليوم، كان عليك أن تصيح بي قائلاً: أيها العجوز الأحمق المخرف! هل تظن أن بوسع السيوف المشحوذة في جليد البندقية ونيرانها أو تلك المعقوفة والمطروقة والمثنية في دمشق أن تقضي على الحب؟.. كان هذا سيكون سؤالاً منطقياً ـ ساخر قليلاً، شاعري قليلاً ربما ـ لكن بالاعتبارات العملية، كان سؤالاً منطقيا. لهذا حان الوقت لآتي إليك بلا سيوف مشحوذة ولا خناجر مخفية. لدي سلاح آخر الآن جياكومو».

ـ «سلاح من أي نوع؟»

ـ «سلاح العقل».

ـ «إنه سلاح لا جدوى منه ولا ثقة فيه عند استخدامه في النزاعات العاطفية سيدي».

ـ «ليس دائماً، إنني في دهشة منك، ليست تلك الإجابة التي توقعتها منك جياكومو. علاوة على ذلك فهو السلاح الوحيد لديّ، أنا أتحدث عن العقل الحقيقي الذي لا يجادل ولا يساوم ولا يحاول الإقناع حتى، لم أجئ لأتوسل ولا، وأكرر هذا، لا لأهدد، بل لأبين حقائق وأسئلة، ومن موقفي المؤسف والمؤقت أجدني ملزماً بالإيمان بأن النصل اللامع البارد للعقل أقوى من ثرثرة وتبجّح

العاطفة. أنت والدوقة مرتبطان معاً بقوة الحب يا ولدي. أنا أقر بهذا كحقيقة لا تحتاج لتفسير. أنت تعلم جيداً أننا لا نحب الآخرين لفضائلهم. حقاً، أفكر أحياناً أننا، في الحب، نفضّل المضطهَدين، المعقدين، الذين يسببون المتاعب لأصحاب الفضيلة، لكن بتقدمي في العمر أدركت إننا نحب الآخرين لا لذنوبهم وأخطائهم، ولا لجمالهم وأدبهم وفضائلهم، لعل المرء لا يفهم هذا سوى في نهاية حياته، حين يدرك أن الحكمة والخبرة يستحقان أقل مما ظن. إنه درس قاسٍ مع الأسف، ولا عزاء فيه. علينا أن نتقبل ببساطة حقيقة أننا لا نحب الآخرين لميزاتهم؛ ليس لأنهم على قدر من الجمال، ولا لأنهم على قدر من القبح، على غرابة هذا، كأن يكون لهم حدبة أو يكونوا فقراء، بل نحبهم لأن ثمة غرضاً ما في العالم يتم إنجازه حقاً من وراء فكرنا، ويرغب في صياغة نفسه كما تفعل فكرة ما، وبرغم دوران العالم حول نفسه منذ أمد طويل، يعاود هذا الغرض الظهور دائماً وأبداً طبقاً لأسرار معينة، يلمس أرواحنا وأعصابنا بقوة مخيفة تدفع الغدد للعمل، وتثير ضباباً على حكم حتى أكثر الأذهان ألمعية. إنك والدوقة عاشقان، مع كونكما زوجاً استثنائياً ومثيراً للدهشة بما يكفي، للمبتدئين في الحب فقط أن يندهشوا من الحقيقة، لأنه إذا أخذنا رأى الناس في الاعتبار سيضحي كل شيء مستحيلا. الحيوانات تتمسك بأنواعها، على حسب علمي، لا توجد سابقة بين زرافة وأسد أو أي وحش آخر: الحيوانات تبقي ضمن نطاق نوعها. أنا على ثقة أنك تسامحني، لأنني لا أقصد إهانتك بالمقارنة! إن كان ثمة إهانة هنا فستكون موجهة لي أنا! لا، الحيوانات مخلوقات صريحة بينما نحن بنو آدم معقدون ومهمون

حتى ونحن عند أدنى نقطة من انحسارنا، لأننا نحاول فهم طبيعة قوة الحب السرية، حتى ونحن نجهل الغرض منها، لهذا علينا أن نتقبل الحقائق التي لا تفسير لها. إن الدوقة تحبك، وبالنسبة لي أنا، تبدو هذه العلاقة كالعلاقة بين شمس مشرقة وعاصفة ليلية. سامحني لتركي التشبيه بالحيوانات الذي يبدو أنه يلاحقني الليلة بإلحاح غريب، لعل هذا لأننا نستعد للحفل الذي سأرتدي فيه رأس حمار. لكن على غرابة حب الدوقة لك، فإن الأغرب أنت تكون أنت تحبها، سيكون في هذا خرق لقوانين وجودك ذاته. أنت على علم بأن الشعور بأي عاطفة عميقة، أيا كانت، هو عصيان ضد هذه القوانين. لا شيء يخيفك إلى هذا الحد، لا شيء يجعلك تفر هارباً بسرعة كمواجهة مع عاطفة. كنت جائعاً وعطشاً في السجن، تطرق الباب الحديدي بقبضاتك، تهز قضبان نافذتك وتلقي بنفسك على القش النتن لفراشك. ضعيف وممرور، تلعن العالم الذي حرمك من حياتك الفاتنة، وانت تعلم أنه خلف عزلتك، وخلف القش النتن، وخلف القضبان والأبواب الحديدية، خلف ذكرياتك، ثمة سجن آخر، سجن أسوأ من زنازين محكمة التفتيش، كان السجن بطريقته الخاصة درب دروب من الهروب، لأنك لم تحترق هناك سوى بنيران الشهوة، لأنك لم يُحكم عليك بالاحتراق في نيران الحب الرهيبة. كان السجن ملاذاً من الشعور الوحيد الذي قد يحبك شباكه حولك ويدمرك، لأن الشعور لأمثالك نوع من الموت؛ يكبلك بالمسئوليات كما يفعل بجميع الأرواح غير ذات القيمة التي تُدعي الأرواح الحرة... لكن الحب لمسك عرضاً حين رأيت الدوقة، التي كانت حينئذ فرانشيسكا فقط، والحب هو

ما أتى بك إلى القرب منها مجدداً، وليس ذكرى علاقة لم تبدأ من الأساس. كيف يبدو حبك هذا؟ حقاً. لقد أمعنت الفكر فيه طويلاً. كان لديَّ متسع من الوقت منذ مواجهتنا في بستويا، وأثناء الفترة التي قضيتها في البندقية، وبعد ذلك حين كنت في السجن، أثناء هذه الفترة صارت فرانشيسكا دوقة بارما، بعد وقت طويل من قتالنا عليها. خلال كل هذا الوقت، ظللت تعتقد، على نحو مثير للعجب بما يكفي، إنها لم تكن سوى نزوة عابرة كجميع الأخريات، غزوة لم تنتصر، مغامرة لم تكن فيها نفسك القاسية تماماً. لكن الطيبة فضيلة إشكالية، فلست بطبيعة الحال من أحد الرحماء يا جياكومو؛ فأنت قادر على أن تنام مرتاح البال تماماً بينما المرأة التي هجرتها تصنع من ملاءات فراشكما أنشوطة لتشنق بها نفسها على بابك، وقد تتنهد وتهز رأسك قائلاً: «ياللعار!». هذا هو نوعك. إن حبك - طريقة تتبعك للمرأة واختلاسك النظر ليدها وكتفها وصدرها - توافه لا إنسانية. رأيتك ذات مرة منذ سنوات كثيرة مضت، في المسرح في بولونيا، لم نكن قد تعارفنا حينها، ولم تكن قد رأيت فرانشيسكا، لابد إنها كانت في الرابعة عشرة من عمرها حينذاك، ولم يكن قد سمع بها الكثيرون، مع أنني كنت قد سمعت بها كما يسمع المرء عن نبتة نادرة في الدفيئة، نبتة تنمو في مناخ اصطناعي، في السر، لتزهر وتضحي في النهاية إحدى عجائب العالم. لم تكن تعرف شيئاً عن فرانشيسكا ولا عني، وكنت تدخل مسرح بولونيا والجمهور يتهامس باسمك، وكان دخولك مبهراً كمناجاة ممثل لنفسه. وقفت في الصف الأمامي مولياً ظهرك لخشبة المسرح ورفعت منظارك الذهبي ونظرت حولك. راقبتك حينها عن كثب.

كانت سمعتك قد سبقتك واسمك على كل الشفاه، والمقصورات تغمغم بشأنك. بودي أن تعتبر ما سأقوله إطراء؛ أنت لست رجلاً وسيماً، لست أحد هؤلاء الجميلين المقرفين الذين يتقافزون هنا وهناك كي يبدوا محبوبين: وجهك لا مألوف ولا منمّق، بالأصح ذكـوري، على ما أظن، لكن ليس بالمعنى العادي للكلمة مع ذلك. أرجو ألا يزعجك هذا لكن وجهك ليس آدمياً تماماً، ومن الناحية الأخرى قد يكون الوجه الحقيقي لرجل، طبق الأصل كما تخيله الخالق، بعد أن عدلت فيه السنوات والسلالات والصنعات والمثل العليا. لديك أنف كبير وفم حاد وقامة كنزة، يداك ثخينتان ومربعتان، وزاوية فكك خطأ في حد ذاتها. ليس هذا بالتأكيد ما يتطلبه الجمال. أقول لك يا جياكومو بكل صراحة أن ثمة شيء لا آدمي في وجهك، كان عليّ أن أفهم وجهك قبل أن أبدأ فهم الحب بينك وبين فرانشيسكا. أرجوك لا تخطئ فهمي، حين أقول إن وجهك لا آدمي على نحو ما وأنه ليس آدمياً تماماً، لا أقصد بذلك أنه حيواني، بل بالأحرى كأنك مخلوق انتقالي بين الإنسان والوحش، كيان ما بينهما لا هو هذا ولا ذاك. أنا على ثقة أن شيئاً ما كان في ذهن الملائكة وهم يمزجون مكونات خلقك على هذا الحال: هجيناً، نقطة تقاطع بين الإنسان والوحش. آمل أنك تميز الإطراء في نبرة صوتي، هكذا كنت تقف في المسرح مستنداً على حائط تجويف الأوركسترا، وتثاءبت. نظرت للنساء من منظارك ونظرن هن إليك من مناظيرهن بفضول مكشوف. من جانبهم راقب الرجال حركاتك ونظراتك ونظرات النساء بحذر، وفي خضم كل هذا التوتر والتشويق والإثارة تثاءبت كاشفاً عن أنيابك الاثنين

والثلاثين كلها. كانت تثاؤبة هائلة ومخيفة. احتفظت ذات مرة في حديقة الموالح لديّ بقصري في فلورنتين، بعدة أسود صغار وفهد عجوز، كان تثاؤبك مثل تثاؤب الفهد العجوز بعد أن التهم الحارس العربي، لم يتردد هذا المخلوق النبيل في إعلان لامبالاته بالعالم الذي أبقاه حبيسا بتثاؤب ضجر يبدي احتقاراً مذهلاً. أتذكر أنني شعرت أن بإمكاني إن رأيتك تقترب من امرأة أراها أنا أيضاً جذابة أن أرمي حولك شبكة أو أطعنك برمح، ولم أندهش بالمرة حين رأيتك بعد ذلك بعام في بستويا بجوار الحائط المتهدم في الحديقة بصحبة فرانشيسكا، تقذف لها أطواقاً ملونة بعصا خشبية بطرف مطلي بالذهب لتلقفها بذراعيها الرشيقتين. ما الذي خطر ببالي حينها؟ ليس أكثر من: «نعم، هذا أمر طبيعي، وما الممكن غير هذا؟». والآن ها قد جئت إليك برسالة فرانشيسكا».

سحب الرسالة الصغيرة المطوية كثيراً من الجيب الداخلي لعباءته المبطنة بالفراء بحركة بطيئة متروية ورفعها لأعلى في الهواء قائلاً:

ـ «أرجو أن تغض الطرف عن أي أخطاء قد تجدها. هل قلت هذا من قبل؟ إنها لم تتعلم الكتابة سوى مؤخراً فقط، على يد شاعر متجوّل من بارما، رجل أخصاه المغاربة وافتديته لأن والده كان يعمل بستانياً عندنا، وأنا أكن عاطفة خاصة للشعراء. يبدو أن يديها ترتعشان قليلاً من الإثارة وثمة شيئاً ما رقيق بشكل مخيف في هذا؛ إذ لم تحسن كتابة حروفها الكبيرة هكذا من قبل. يالعزيزتي المسكينة، يمكنني أن أتخيلها الآن، جبينها المحموم وارتجافها

برداً وأصابعها المرتعشة إذ تخطّ رسالتها على ورق البرشمان النشاف ـ من أين بحق الجحيم أتت به؟ وبأدوات الكتابة الأخرى؟ لعلها تحصّلت عليها بمساعدة رفيقتها وشريكتها، فيرونيكا العجوز التي جئنا بها معنا من بستويا والتي كان من الحكمة أن نتركها هناك، هكذا يخطر لي الآن فقط. لكن ها هي، في خدمتها، وحين حان الوقت وجدت لها ورقاً للكتابة وقلماً وبعض الحبر وبعض البودرة كما كان يجب عليها تماماً، إذ أن كل البشر، حتى أمثال فيرونيكا، لابد أن يلعبوا دورهم التقليدي الذي لا مناص منه. الممرضات لسن مومسات على خشبة المسرح فقط! إنها رسالة قصيرة، لذلك اسمح لي بقراءتها على مسامعك. أنت تعرف أنني قرأتها من قبل بالفعل، قرأتها للمرة الأولى حوالي الساعة الرابعة بعد ظهيرة هذا اليوم، حين أُرسل للسائس ليحملها لك، وقرأتها ثانيةً في المساء حين انطلقت في بعثتي الرسمية. على المرء ألا يترك مثل تلك المهام للغرباء رغم كل شيء. هل أراك تعقد حاجبيك؟... أتظن أنه من الوقاحة أن أقرأ رسالة كتبتها امرأة؟... أتفضل التزام الصمت في استنكارك لفضولي؟ حسناً، أنت على حق»، سكت ثم أضاف بهدوء: «أنا أيضاً استنكر هذا. لقد عشت حياتي كلها حسب القواعد، كمسئول وسيد محترم، بالمولد والنشأة، ولم أتخيل طوال هذا الوقت أنني سأقابل امرأة مثلها أو أنني سأجد نفسي في موقف يدفعني إلى التصرف بما يخالف سلوكي ويضرب عرض الحائط بكل مسئوليات مكانتي: لم أفتح رسالة كتبتها امرأة من قبل أبداً، مراعاة لمبادئي بشكل جزئي، وفي جزء آخر لأنني لم أظن أن ثمة شيئاً بمثل تلك الأهمية الطاغية، سيجعلني أتصرف على نحو

يناقض مبادئي. لكن هذا الأمر يهمني بالفعل»، وتابع بنبرة توكيدية «لأن فرانشيسكا لم تكتب لي رسالة أبداً. حقاً لم يكن بوسعها هذا حتى وإن أرادت، لأنها حتى عام مضي لم تكن تستطيع الكتابة. ثم جاءنا الشاعر المخصي منذ عام وأظهرت اهتماماً بالكتابة، خطر لي الآن فقط، أن هذا تقريباً في الفترة التي وصلتنا فيها من البندقية أخبار سجنك على يد محكمة التفتيش. تعلمت الكتابة لتكتب لك، لأنها كامرأة، تحب أن تقوم ببطولة حقيقية في لعبة الحب. تعلمت استخدام تلك الشفرات المبهمة لصنعتك، حرف الـ ـ المتواضع الوديع والبدين، الـ ـ السمينة، والـ ـ بشرطتها، والـ ـ بقبعتها المضحكة ـ أرادت أن تريحك بكتابة الكلمات التي كانت تحرق ثقباً في قلبها. أرادت أن تقدم لك بعض السلوي في سجنك، ولوقت طويل، ظننتها ستراسلك، آمنت بفكرة المراسلة وانتظرتها، كانت لي آذاني وعيوني، العشرات منها تحت إمرتي، أكثرها حدة في لومباردي وتوسكانا، وفي أماكن كهذه يعرفون جيداً عن تلك الأمور... أرادت أن تكتب لك رسائل، ومع ذلك، وبعد كل هذا، لم تكتب؛ أنا على يَقين من إنها لم تكتب لأن الكتابة بالنسبة لقلب نقي ومتواضع، لقلبها، قمة الوقاحة. قد أتخيل فرانشيسكا بهلوانة راقصة أو عاهرة تثب مرحاً في بيت دعارة مع غنادير أجانب داعرين، أسرع مما أتخيلها بقلم في يدها تصف مشاعرها لعاشق؛ لأن فرانشيسكا، بطريقتها الخاصة، امرأة متواضعة، تماماً مثلما أنت، بطريقتك الخاصة، كاتب، وأنا، بطريقتي الخاصة، عجوز وغيور. وهكذا نعيش، جميعنا، كلٌ بطريقته الخاصة، أنت تحت السقف الرصاص في البندقية وأنا وهي في بستويا ومارلي، ننتظر

ونعدّ لشيء. بالطبع أنت على حق»، ثم أضاف وهو يلوّح بيده مستنكراً كأن ضيفه سيقاطعه، «أعترف أننا عشنا في بستويا وبولزانو ومارلي وأماكن أخرى بالقرب من «نابلس»، أعلى الجبال في قلاعنا العديدة، في حال أفضل منك أنت في فراشك القش الذي يستولي عليه القمل تحت السقف الرصاص، لكن السجن أيضاً كان راحة، بصرف النظر عن طريقته الفجة البذيئة تقريباً، لذلك أرجو ألا تحكم علينا بقسوة.. كما كنت أقول، علّم المخصيُّ فرانشيسكا الكتابة، وراقبتها وأنا أقول لنفسي «أها!» سليم تماماً. أحياناً ليس بوسع أحد، حتى فولتير نفسه، سوى أن يقول هذا، خاصة حين يفكر فولتير في الفضيلة أو القوة. كلنا حكماء في لحظات الكشف تلك، حين نرى فجأة تغير عوامل الحياة على نحو مذهل. لهذا قلت في بالي: «أها»، وبدأت أنتبه أكثر، مجنداً أكثر العيون والآذان حدّة في لومباردي وتوسكانا. لكنني لم أسمع ولم أر شيئاً مثيراً للشك: فرانشيسكا أيضاً كانت خجولة للغاية لتكتب لكاتب مثلك، يربكها احتمال صياغة مشاعرها في كلمات ـ أوليست حقيقة أنكم معشر الكتاب قوم صفيقون، بوسعكم صياغة أكثر المشاعر الإنسانية خزياً على الورق، من دون تردد، وأحياناً من دون تفكير حتى؟

القبلة دائماً شيء عفيف لكن الكلمة عن القبلة دائماً شيء مخجل. قد يكون هذا ما شعرت به فرانشيسكا في الحقيقة، بإدراكها الرقيق الذي يميزها، هي وغالبية النساء العاشقات. لكنها قد تكون شعرت بالخجل كذلك من خطّها ومن المراسلة بصفة عامة، لأن قلبها، بالرغم من اضطرابه بالحب، ظل نقياً. وهكذا بإمكاني أن أتخيل قلقها وإجهادها حين انتهى بها الأمر لتكتب

إليك أخيراً، ورعشة الخوف التى سرت فيها من رأسها لأخمص قدميها وهي تضع، بجبين محموم وأصابع مرتعشة، الورقة والحبر والرمال لتبدأ أول فعل مخزٍ في حياتها وتكتب إليك. كان خطاب حب ما تكتبه، وكانت في تسليم نفسها وجُل ثقتها للورقة والقلم، ومن ثم للعالم والأبدية، التي هي دوماً الكلمة الأخيرة في المجون، كانت تخاطر بدخول منطقة خطرة، لكنها مضت إلى أبعد من هذا، إلى منطقة أخطر كثيراً، لأنه عندما يكشف المرء شعوره الحقيقي للعالم فذلك مثل مطارحة الغرام في سوق المدينة على مرأى من أغبياء وبلهاء المستقبل؛ أو مثل ربط أرقّ مشاعر المرء وأكثرها سرية في حزمة كلمات رثة؛ إنه في الحقيقة مثل أن تجعل صائد الكلاب يُحكم تقييد أكثر أعضائك حيوية في فرخ ورق قديم! نعم، الكتابة شيء رهيب، لابد أن الوعي بهذا تغلغل في كيانها كله وهي تكتب. عزيزتي المسكينة، دفعها الحب والألم لتعلّم القراءة والكتابة، لعالم الكلمات الرمزية، لسيادة الحروف. لكنها حين كتبت، كتبت بإيجاز، بأسلوب سليم على نحو مفاجئ وموجز تماماً، كمزيج من أوفيد ودانتي. بعد قولي هذا عليّ الآن أن أقرأ لك رسالة فرانشيسكا».

فض ورقة البرشمان بأصابع ثابتة، ورفع يده في الهواء، وبالأخرى، لقِصر نظره، عدّل نظاراته على أنفه. استقام في جلسته مائلاً للأمام قليلاً ليدقق النظر في النص. ثم تنهد قائلاً: «لا أري جيداً، هل تسمح وتأتي لي بضوء يا ولدي؟» وحين جلب مضيفه شمعة من على رف المدفأة ووقف بجواره بأدب وصمت، شكره قائلاً: «هكذا أفضل، الآن أري جيداً تماماً. استمع بانتباه، هذا ما

كتبته زوجتي، فرانشيسكا، دوقة بارما، لـجياكومو بعد ثمانية أيام من سماعها خبر هروب حبيبها من السجن حيث أفضى به شخصه وتصرفاته، ووصوله لبولزانو: «يجب أن أراك»، ثم ذيّلت هذا بالحرف الأول من اسمها. حرف ف كبير بزخرف احتفالي قليلاً كما علمها المخصيٌّ».

مد ذراعه التي تحمل الخطاب ربما ليري الحروف الضئيلة بشكل أفضل.

ـ «هذا هو الخطاب إذاً»، قال برضا مبهم وهو يُسقط الورقة ونظاراته معاً في حجره، ويستند بظهره على المقعد. «ما رأيك في الأسلوب؟ لقد أذهلني تماماً. هكذا فرانشيسكا، تفعل أي شيء باتقان تام، ليس بوسعها شيء آخر. أذهلني الخطاب، وأرجو أن يكون قد أوقع الأثر القوي نفسه، أن يكون قد نفض روحك وشخصك كما يفعل الأدب الحقيقي بالإنسان الكامل. بعد سنوات من القراءة، لم أدرك تماماً قوة الكلمات حتى الآن، حتى ظهر هذا اليوم حين قرأت رسالة فرانشيسكا أول مرة. كالأباطرة والباباوات وغيرهم آخرين، اكتشفت في الكلمات قوة أشد وأقسي من السيوف والرماح. والآن، ما أريده أكثر من أي شيء هو أن أعرف رأيك، رأي الكاتب، في الأسلوب وفي الموهبة الواعدة لهذه المبتدئة. أسلوب بليغ! يجب أن أخبرك أنني شعرت بهذا في القراءة الثانية ـ والآن بعد أن نظرت في الرسالة للمرة الثالثة لم يتغير رأيي البتة. استمحيك عذراً لنقص خبرتي كناقد، لا بأس من حماسة أحد أفراد العائلة أمام سمو مهنتك الرفيعة ـ لكنني أعلم إنك ستقر بأن هذا ليس عمل هواة. إنها ثلاث كلمات وحرف اختصار واحد فقط، لكن لا تنسى

الحالة التي دفعت بالثلاث كلمات تلك إلى الورق، لا تنس أن المؤلفة لم تكن تعرف شيئاً عن الكلمات المكتوبة حتى العام الماضي: بدِّل نظام الكلمات كما تحب في رأسك لترى كيف تتوالى الكلمة وراء الأخرى كحلقات سلسلة طُرقت على سندان حداد. لابد أنها موهبة ذاتية، إذ لم تقرأ فرانشيسكا لا أعمال دانتي ولا فيرجيل، وليس لها علم بالفاعل والمفعول به لكنها مع ذلك اكتشفت وحدها أساسيات الأسلوب السليم والرشيق. بالطبع يستحيل التعبير عن النفس على نحو أكثر إيجازاً وأكثر دقة من هذا الخطاب. هل لنا أن نحلله؟... «يجب أن أراك». بادئ ذي بدء، تعجبني القوة المركزة في النطق. هذا السطر، الذي قد تراه منقوشاً على حجر، ليس به عنصر زائد. لاحظ بروز الفعل، كالعادة في المقامات عالية البلاغة، خاصة في الدراما والمسرحيات الشعرية، كأنه يتحرك للأمام. كتبت «أراك»، بحسّية تقريباً، فالكلمة بالفعل تدل على حاسة. كلمة قديمة قِدم الإنسان، مصدر كل الخبرة الإنسانية، إذ يبدأ الإدراك بالرؤية، وكذلك الرغبة. الإنسان نفسه يكون قبل لحظة الرؤية مجرد كتلة لحم عمياء منتحبة. يبدأ العالم بالرؤية، وكذلك الحب بالتأكيد. إنه فعل فاتن، لانهائي في محتوياته، يوحي بشوق ونيران سرية، يوحي بالمعني الخفي للحياة، لأن العالم يوجد فقط بقدر ما نرى منه، وأنت كذلك موجود فقط بقدر ما تراك فرنشيسكا ـ فطبقاً لهذا الخطاب على الأقل، أنت تدخل العالم مرة أخرى عبر عينيها، تدخل عالمها، آتياً من عالم العُمي الذي كنت تسكنه، لكن فقط كظل، أو كطيف، أو كذكرى، أو كميت. وفوق كل هذا وذاك، هي تريد أن تراك لأن الحواس الأخرى

ـ اللمس والتذوق والشم والسمع ـ جميعها كآلهة عمياء بدون أكسير الرؤية. كذلك كيوبيد ليس إله أعمى جياكومو. كيوبيد فضولي، ذو رغبة مشتعلة، يسعى للحقيقة: نعم، كيوبيد قبل كل شيء يريد أن يرى. لهذا تبرز كلمة أراك في خطابها بشدة. ماذا عساها أن تقول غير هذا؟ لربما كانت تكتب أتحدث معك أو أكون معك، لكنهما ليسا سوى مجرد نتيجة للرؤية، واستخدامها لهذا الفعل يؤكد الرغبة الشديدة التي دفعتها لتمسك بالقلم. إن الفعل يصرخ فينا حقاً، لأن القلب المبتلى بالحب يشعر إنه ليس بمقدوره تحمل ظلمة العمى، يجب أن يرى وجه المحبوب، يجب أن يرى، يجب أن يضيء شعلة في هذا الكون الأعمى الذي لا يمكن سبر غوره، وإلا لن يكون شيئاً معقولاً. لهذا اختارت كلمة موجزة ومعبرة بعمق مثل أراك. أرجو ألا تضجرك قراءتي. يجب أن أعترف أن للأمر أهمية فائقة بالنسبة لي. والآن فقط، للمرة الأولى، أفهم فقهاء اللغة الوحيدين حين يحملون بصبر لا يكل، ورعاية لا تمل، كتبا يكسوها التراب ونصوصاً معقدة، ويقضون عقوداً في الاختلاف حول أهمية أحد الأفعال المغمورة في إحدى اللغات المنسية. ينجحون بطريقة ما، بقصارى جهدهم المبذول في البحث، وحيوية أنفاسهم، في إعادة الحياة لكلمة ميتة منذ أمد طويل. أنا مثلهم، في اعتقادي أن بمقدوري تفسير هذا النص، أقصد نص خطاب فرانشيسكا. الرؤية، كما قلنا، هي أهم عنصر فيها. ثم هناك «يجب»، وليس «بودي»، ولا «أرغب في»، ولا «أريد أن»، بل تعلن على الفور وفي بداية الخطاب شيء ما بالقوة الراسخة للنصوص المقدسة ـ ألا يدور بخلدك جياكومو أن مؤلفتنا الصغيرة هنا، بكتابة

كلماتها الأولى في الحب، تضع بطريقتها الخاصة نصاً مقدساً؟ ألا تظن أن كتابة الحب تشبه على نحو ما هيروغليفية سرية منقوشة على قبر وثني تستحضر الأرواح الخالدة على الفور، حتى وإن كان موضوعها مجرد موعد غرامي، أو سلم حبال قد يستخدم في الهروب؟ بطبيعة الحال لا شيء غير ذات صلة في خطاب فرانشيسكا، إنها شاعرة مرهفة الحس إلى حد بعيدٍ ويمكن تمييز هذا بلمح البصر. أقول شاعرة ولا أظن أن مشاعري وإعجابي يحملاني على المبالغة في استخدام الكلمة التي أعلم جيداً إنها تشير إلى مكانة ما، مكانة إنسانية عليا، إذ في الصين كما في الفرساي، يصحب الملوك في مواكبهم شعراء مثل راسين(1) وبوسيه(2) وكورناي(3)، وأحياناً حتى هؤلاء الذين يبدون رثين قليلًا في الحياة أو لهم مظهر سيئ السمعة مثل لافونتين(4): جميعهم يتقدمون على كولبير(5) أو مدام مونتيسبان(6) وأمير فيندوم عندما يتكرم الملك بالظهور على العامة. أنا أعلم تمام العلم أن الشعراء

---

(1) Jean Racine كاتب مسرحي فرنسي من القرن السابع عشر، كان مؤرخ البلاط في عهد الملك لويس الرابع عشر جان راسين (1639-1699).

(2) Jacques Bossuet جاك بنين بوسيه، أسقف فرنسي وعالم لاهوت وأحد أبرع الخطباء، كان واعظ البلاط للملك لويس الرابع عشر (1627-1704).

(3) Pierre Cornille بيير كورناي (1606-1684) كاتب مسرحي فرنسي من القرن السابع عشر، يدعي أبا التراجيديا الفرنسية.

(4) Jean de La Fontaine (1695-1621)أحد أشهر الشعراء الفرنسيين.

(5) Jean Baptiste Colbert (1683-1619) سياسي فرنسي كان وزير المالية في عهد الملك لويس الرابع عشر.

(6) Madame de Montespan (1641-1707) إحدى عشقيات الملك لويس الرابع عشر أنجب منها سبعة أبناء، دعيت ملكة فرنسا الحقيقية لتأثيرها على البلاط.

ينتمون لصفوة تمنح أوسمة شرف مجيدة ولا مرئية. لعلني لهذا أحسب فرانشيسكا شاعرة، وبقولي تنتابني الخشية التي قد تشعر بها وأنت تقرأ العمل الأول لأي شاعر حقيقي، تسري قشعريرة في جسدي وتمتلئ روحي بإعجاب منتشٍ، بطوفان طاغٍ من المشاعر التي لا تخطئ التعبير عن الأفكار الأكثر سمواً عن تبجيل الحياة.

هكذا إذاً، لهذا كتبت «يجب». يالها من قوة هادئة تلك التي تشعّ من الكلمة يا ولدي! نبرتها آمرة، ملوكية: إن بها أكثر من مجرد الأمر، لأنها تتطلب تفسيراً وضرورة آنية. إن كانت قد كتبت «أريد أن» لكانت ظلت ملوكية لكنها قاطعة قليلاً. لا بل اختارت الكلمة السليمة بدقة، الكلمة الموزونة بعناية تامة، كلمة تتطلب بعض القنوت: بقولها يجب هي تقر بأنها في أمرها هذا إنما تطيع أمراً سرياً؛ يجب توحي بأن من تطلب اللقاء في حاجة لشيء ما، وأنها ليس بوسعها فعل شيء آخر أو الانتظار لوقت أطول من هذا. إنها حين تخاطبك بحدة، وتأمرك لتفهم معناها، فهي بذلك تلقي بنفسها تحت رحمتك. ثمة شيء ما لا حول له ولا قوة، وإنساني على نحو مؤثر، في الكلمة. كأن رغبتها في رؤيتك رغماً عنها جياكومو. نعم، هذا حقيقي، لست على ثقة تماماً من قدرة عينيّ على القراءة بوضوح ولا من قدرة أذنيّ الهرمتين على السمع، لكن ثمة شيئاً ما في الجملة كلها، التي قد تكون مطلع قصيدة، شيء ما ذليل ولا حول له ولا قوة، كما يكون الرجل حين يواجه قدره تحت النجوم وينطق بالحقيقة الحزينة البارعة. وما هي تلك الحقيقة؟ ليست بأقل ولا أكثر من أن فرانشيسكا يجب أن تراك. الصوت متلهف، في حاجة للمساعدة؛ إنها تأمر، لكنها في الوقت نفسه تقر بأنها، هي نفسها،

كل من الآمر والمطيع الذي ليس بيده حيلة. يجب أن: ثمة شيء ما خطير في خلطة تلك الكلمات. لشخص معرّض للخطر فقط أن يصدر مثل هذا الأمر. نعم، قد يفضل الانسحاب وحفظ نفسه، لكن لا بديل آخر أمامه، يجب أن يقوم بما عليه: أن يأمر. الكلمات كاملة. ثم تأتي، بطبيعة الحال، كلمة مثل رنين أجراس من على بُعد: أراكَ (أنت). إنها كلمة قديرة جياكومو، لا أعرف أن كان بمقدور أحد أن يقول المزيد أو الأهم منها لأحد آخر. إنها كلمة منجزة، يتردد صداها في كون البشرية بأسره، كلمة مؤلمة تشكّل وتسمّي، تبث الحياة في الهوية وتمنحها صوتاً. إنها الكلمة التي استخدمها الرب حين خاطب الإنسان لأول مرة بعد أن أدرك أن اللحم لا يكفيه، وأنه يريد اسماً أيضاً، فمنحه اسماً وخاطبه بأنت المألوفة. هل تفهم هذه الكلمة، في العالم ملايين وملايين من البشر. لكنه أنت من يجب أن تراه. هناك من هم أكثر نبلاً منك وأكثر وسامة وأصغر سناً وأكثر حكمة وأحسن خلقاً وأشرف منك، أوه هذه حقيقة، وهناك، بلا إهانة، لأنني أجد إنه من المحتم أن تفكر في أنه يوجد، مهما أزعجك هذا أو قلل من تقديرك لنفسك، من هم أكثر خسة منك، وأرقى فناً، وأشد مكراً، وأقسي وأشد يأساً منك. ومع ذلك إنه أنت من ترغب في أن تراه. إن العالم يرفعك فوق أقرانك من البشر، ويميزك عن أشباهك جزئياً. يرفعك ويصفعك على قفاك، يتوّجك كملك ويمنحك لقب فارس. إنها كلمة مخيفة. أنت. هكذا تكتب فرانشيسكا، زوجتي دوقة بارما، وما أن تخط الكلمة يتحقق سموك؛ بالرغم مما يشينك كمغامر، وبالرغم من أنك حتى الآن تنتحل اسماً ارستقراطياً زوراً، لكن سموّك قد تحقق. كتبت

أراكَ، ويالها من يد متيقنة التي كتبت، إن الحروف لتنوء بالزخم كما يجري الدم في أذرع مفتولة العضلات مرفوعة لتأتي بحركة قوية. الآن تعرف المؤلفة ماذا تريد أن تقول ولن تبحث عن بدائل. إنها تضع على الورق الكلمات التي تحمل بناء الجملة فحسب كأنها بذلك تخاطب الفاعل باسمه. أنت... كلمة مخفية. فقط فكر كم من البشر في العالم، وكم من البشر الذين قد تُعنى بهم فرانشيسكا أيضاً، كم منهم يستحقون أن تراهم حتى وإن لم يجب هذا، كم منهم قد يعرضون عليها أشياء أكثر جوهرية وصدقاً من كل ما لديك، رغم كونك كاتباً ورحالة. لأنه، في الخارج هناك، يوجد رجال أبحروا إلى جبال الأنديز وإلى العالم الجديد، وعلماء استشكفوا أسرار الطبيعة واكتشفوا قوانين جديدة للبشرية لتتعجب بشأنها، هناك الكثير جدّاً من الرجال البارزين على قيد الحياة، ومع ذلك إنه أنت من تريد أن تراك... وهى في تسميتها لك كأني بها قد شاركت في خلقك أو إعادة خلقك. لأنها قد ترغب في رؤيتي أنا، على سبيل المثال، لكن لا شيء في هذا خارج عن المألوف، فأنا زوجها رغم كل شيء: لكنه أنت من يجب أن تراك. أنت فقط!

«حسناً، ها هو النص وها قد استكشفنا معانيه. والآن دعنا ننظر فيه مرة أخرى بإعجاب، بعد أن دققنا في اجزاءه ورأينا مدى إحكامه وترابطه، وأعجبنا بمنطق أفكاره، وزخم الأداء، واكتمال أسلوبه الموجز الذي يخبرْك، دونما إطناب، بكل شيء. وأخيراً، دعنا ننظر في التوقيع، المتواضع للغاية، مجرد الحروف الأول من الاسم ـ لأن الخطابات الحقيقية والأعمال الفنية الحقيقية لا تحتاج لأكثر من هذا، العمل ذاته يُعرِّف بالمؤلفة، العمل والمؤلفة شيء

واحد. لا أحد يتخيل أن الكوميديا الإلهية يجب كتابة اسم مؤلفها تحت عنوانها... ليس معني هذا أنني أقارن بالطبع، لكن ما حاجتنا للأسماء إن كان النص يتحدث بوضوح شديد، بكلماته وجمله وحروفه المفردة؛ إن كان كل شيء مشبعاً بنفس السمة، بنفس الروح التي تدفعها الضرورة والسعي للخلق، لإدراك قدرَها بأن تراك، ولا أكثر. وبقولي هذا»، أضاف بلامبالاة وهو يرفع الخطاب بين إصبعيه ويمرره لجياكومو «انتهينا، هاك الرسالة». وحين لم يحرك المضيف والمرسل إليه ساكناً، وضعها برفق على رف المدفأة بجوار الشمعدان، وسأله قائلاً:

- «هل ستقرأها لاحقاً؟ نعم. أفهم هذا. ظني أنك ستقرأها وستعيد قراءتها مراراً وتكراراً في السنوات القاذمة، لكنك ستفهمها لاحقاً، حين يتقدم بك السن أكثر». ثم سقط في صمت، تنفسه ثقيل كأنه بالغ في إثارة نفسه بكل هذا الحديث، كان قلبه منهكاً ورئتاه مجهدتين. كرر قائلاً:

- «انتهينا». صار الآن هرماً ومرهقاً، يستند على عصاه بكلتا يديه. ظل جالساً يستند على عصاه وتابع حديثه من دون أن ينظر لمضيفه، بل كان يحدّق في النار، يطرف بعينيه أو يحركهما من حينَ لآخر وهو يراقب ألسنة اللهب: «لقد أتممت إحدى مهامي بأن سلمتك الرسالة. أرجو أن تحفظها على النحو اللائق. لا أحبذ أن تترك الرسالة الغرامية التي كتبتها دوقة بارما على إحدى الطاولات المبقعة بالنبيذ بأحد الفنادق، ولا أن تقرأها بصوت عال وانت في الفراش مع إحدى العاهرات، بهذا التبجح والتفاخر الذي ينتاب

الرجال تحت تأثير النبيذ والعواطف الرخيصين. ليس لي أن أحول دون حدوث هذا بالطبع، لكن حدوثه سيؤلمني بشدة، لهذا أرجو ألا يحدث. مع ذلك يجب أن نتأكد أن مثل هذه الرسالة لن تظل سرية، ولن أندهش إطلاقاً إن حدث فيما بعد، في زمن آخر أكثر رقياً وكرماً، ودُرِّس هذا العمل الفني البارز الموجز في المدارس كنموذج في الإيجاز. ولا أشك في أنه سيُقلَّد، كما يحدث مع كل الأعمال الفنية البارزة التي ستدخل وعي أحفادنا حتى شعيراتهم الدموية الرفيعة: سينسخها العشاق ويستخدمونها في غير محلها من دون أن يعلموا أدني شيء عن مؤلفتها وأصلها. سينسخونها، آلاف المرات، كأنها من تأليفهم هم أنفسهم، سيكتبون على الورق يجب أن أراكَ، ثم يوقعون بأسمائهم أو بحروفها الأولى، وعلى نحو ما غامض ستضحي الرسالة رسالتهم فعلاً - ككل النصوص الصادقة، ستتدفق في العالم وتمتزج بالحياة نفسها، لأنها هكذا بطبعها. مع ذلك كله، أفضل أن يتم كل هذا بمسلك أدبي وإيقاع مناسب، وليس بتفاخرك وتبجّحك، أو بقراءتها على الملأ في الحانات أو في أسرّة العاهرات. سيؤسفني بشدة إن حدث ذلك. لكني الآن، بعد أن أعطيتك الرسالة التي حللناها وفهمنا معناها الحقيقي، كما أرجو، يجب أن نحرص على ألا تلهينا حماستنا كناقدين أدبيين، ومتعتنا الغريبة والعنيدة في دراستها، عن التزامنا الحقيقي: فقد تكون الرسائل مشحونة بالعواطف ومثيرة للرهبة كالقبلات والجرائم، ثمة شيء حيّ وحقيقي فيها، وقد أغفل كل منا - أنت الكاتب وأنا القارئ والمتذوق - الشخص الذي وراء الرسالة تقريباً، من صاغت تلك الكلمات في ورقة. إنها هي من نتحدث بشأنها رغم كل شيء،

وفرانشيسكا تنزع للإيمان بأنها يجب أن تراك. تلك هي الحقيقة التي يجب أن نعود إليها، الآن وقد انتهينا من الإعجاب بجماليات الرسالة. وهنا علينا أن نتسم بالعملية، إذ الوقت يمر والليلة أمامنا ـ أليس بحق أن الوقت لا يمر سريعاً إلا حين نفقد إحساسنا بأنفسنا في الإعجاب برشاقة متخفّية لنص من الدرجة الأولى؟ ـ لكننا لنا شأن آخر يتجاوز السمات الأدبية للنص الأبدي ليستكشف معناه على وجهه العملي، معناه الذي ليس بأكثر، ولا بأقل، للأسف، من أن دوقة بارما قد وقعت في غرامك ويجب أن تراك. هذا التزام ليس بوسعك تفاديه حتى وإن أردت. لقد قلت من قبل بالفعل إني لم آت لهنا لأهددك: لا داعي لوقوفك متصلباً وارتعاشك هكذا. بالقطع لن نشتبك في قتال آخر من أجل فرانشيسكا، كما فعلنا ذات مرة في توسكانا بهذا الأسلوب المضحك والرجولي على نحو يثير الإعجاب مع ذلك، وصدرانا عاريان تحت ضوء القمر. لقد مضى وقت هذا: ولا أقصد الوقت من السنة فقط، على بشاعة هذا، إذ ينخر البرد الآن في عظامي حتى وأنا أرتدي فرائي، والله وحده يعلم ماذا سيحدث لي إن خرجت عاري الصدر الآن، لا، أنا أقصد وقت من نوع آخر، الوقت الذي مضى. لقد استغنيت عن سيفي، بإمكاني بالطبع شراء سيوف أخرى، أفضل وأغلى منه، لأنني، كما يجب أن تتذكر، لم أكن خائباً قط في المبارزة. بإمكاني شراء سيف يلمع وأنا ألوح به، سيف ذي حدين من صلب بارد كالجليد لألويه بخبث بين ضلوعك؛ لأنني، رغم كل شيء، أحمل حياتك في قبضة يدي. لكن هذا أيضاً ليس تهديداً جياكومو، إنه بيان ليس إلا. لا تعترض أرجوك. لا داعي للانزعاج. حياتك في قبضة يدي وهذا كل شيء:

كان بلا جدوى هروبك من الجمهورية، بلا جدوي أن راقبك العالم وكتم ضحكه استحساناً، بلا جدوى حماية القوانين المحلية لك بضمانها للحريات الشخصية والاعتبارية، بلا جدوى حماية العرف الدولي لحقوق اللاجئين. طبقاً للقوانين والقواعد أنت هنا بعيد عن الخطر ولا يمكن أن يمسّك شيء. لكن الناس يعلمون، وأنت على الأخص تعلم جيداً، أن ثمة قانوناً آخر، قانوناً أكثر مكراً غير مكتوب تكمن قواعده وممارسته وراء القانون المرئي والعملي والمعترف به دستورياً، وهو القانون الأكثر واقعية وفاعلية في كل مكان. هذا هو قانوني، أنا الذي أنفذه، أنا وقلة آخرون في العالم ممن لديهم ما يكفي من الذكاء والقوة للعيش بقوانين غير مكتوبة من دون إساءة استخدامها. صدقني جياكومو حين أقول لك إن هروبك من الليدز، من على سطح قصر الدوج، كان بلا جدوى. ياللك من قرد ماهر. كان بلا جدوى غطسك في مياه البحيرة القذرة والنبيلة، كفأر ماء هارب، ووصولك للشاطئ البعيد عند ميستر ومن بعدها فالديبيادين؛ ولا جدوى من لجوءك هنا خلف الحدود المحفوفة بالمخاطر، في غرفة بفندق الستاج، تختال بثقتك بنفسك، كأنك هربت من كل الأخطار، لأنني لو شئت لأرسلتك إلى الناحية الأخرى من الحدود في قبضة القاضي الأكبر غداً في مثل هذا الوقت، بعد غروب الشمس، راهن على ذلك بحياتك. ولماذا؟... لأن القوة لا تعمل بدقة كما يظن هؤلاء المعتوهون المحليون، وأنت، الذي سافرت كثيراً ولديك قدر من الفطنة، ستكون على دراية تامة بهذه الحقيقة. لذلك اعلم أنه لا يوجد في العالم زاوية أو ركن حيث لا تستطيع هاتان اليدان المتصلبتان المرهقتان، العاجزتان عن المبارزة الآن،

الوصول إليك إن شئت. لكنني لا أهددك. ولا أدعك تهرب لرقّة قلبي، أو تعاطفاً نبيلاً زائفاً ـ لأن عليك أن تهرب جياكومو قبل طلوع الصبح، على جياد سريعة، أو في عربة مغطاة، أو زلاجات بسيقان مصقولة. ما أن تنهي شئونك هنا في بولزانو وتقابل الدوقة التي، كما أمرتك وأمرتني، يجب أن تراك. سنضع خطاً تحت العلاقة ونقطة وقف في نهاية الجملة الأخيرة. لهذا لا أهددك حين أكشف لك السيناريو الغامض خلف المشهد، حين أكشف واقعية وفاعلية بعض القوى. أنا فقط أشرح لك وأحذرك. وليس في قلبي ذرة مرارة حين أقول هذا، لا أثر لجرح، ولا كبرياء زائف، لا مزيد من هذا. لأنك، مثلي، لست سوى مخلب قط، ممثل، أداة في يد القدر الذي يتلاعب بنا نحن الاثنين. قدرٌ تبدو أغراضه أحياناً مستعصية على الفهم. تبدو اليد التي تتلاعب أحياناً كأنها ليست عُليا تماماً، أو أنها تتلاعب لتسليتها الخاصة، أسلوب في اللعب. قد تكون أنت، من لا يفهم الزلات المكتوبة على الورق فحسب بل والموسومة بالبقع والأرقام كذلك، من يفهمه على أفضل نحو. لهذا جئت إليك. ما أريده منك هو أن تبقى حتى الصباح وتضع نفسك بين يدي الدوقة، إنه أمر ليس بإمكان أحد منا سوى الانصياع له، لأنه يجب، حسبما عبرت دوقة بارما بأدب بليغ. لهذا عليك أن تبقى في بولزانو حتى الصباح. هل يجب أن أهددك؟ أن أقنعك؟ أن أتوسل إليك؟ أن أشرح لك؟ ماذا يجب أن أفعل معك؟.. كان بإمكاني أن أقتلك، لكنك حينها ستكون أكثر حياةً من ذي قبل. ستستعيد حقيقيتك المكتنزة المفعمة بالدم واللحم، حقيقة قد أحوّلها أنا إلى طيف، ذكرى، خصم لا يتأثر بالضربات، الجثة

المتعفنة لحضور كان مفعماً بالحيوية ذات مرة، ظل عاشق يتوارى إلى الأبد خلف طيات ستائر فراش زوجتي ليأخذ مكاني على وسادتها بعد منتصف الليل. صوتك يتردد في أصوات الرجال الآخرين وعيناك تنظر إليها من عيونهم. لهذا لن أقتلك. هل أرسلك بعيداً؟ هل آمرك أن تنزل الآن، الليلة، وتقبع في الزلاجة عند البوابات، ملفع بعباءتك، وتهرع عبر الممرات الجبلية تحت إشراف وحماية خدمي والغابات التي ينيرها القمر وتعيث فيها ظلال الذئاب، إلى بلد أجنبي حيث تختفي من أفضل سنيّ عمر الدوقة... كان بإمكاني الإصرار على هذا أيضاً ولم يكن سيسعك سوى أن تطيع لأنك رغم كل شيء تريد أن تنجو بجلدك، وتلك هي الحقيقة التي تسمح لي بدرجة معينة من السيطرة عليك، إنك مازلت حريصاً على حياتك، مهموماً بنفسك، بدمك ولحمك، ولست بحاجة ماسة للمجازفة بها، بينما أنا، من الناحية الأخرى، لم أعد أخاف على حياتي ولم يعد يهمني سوى شيء واحد هو، بالنسبة لي، أرقى وأقيم. لهذا يجب أن تطيعني، لهذا السبب ولأسبابك الشخصية. لأنني الآن على استعداد لأن أضع قوتي وقدرتي تحت تصرفك بما يحقق كل رغباتك وخططك شريطة أن نصل لاتفاق ودود ومُرضٍ. لقد جئت إليك أقدم لك عرضاً. لقد فكّرت فيك كثيراً، رأيتك أمامي في مسرح بولونيا تتثاءب، وتذكرت كيف في تلك اللحظة فهمت طبيعتك بالغريزة من دون أن أعرف شيئاً عنك. والآن وقد صرت أعرفك على النحو اللائق، أو كما قد يعرفك أي شخص آخر، صرت على يقين من أن من الخطأ قتلك. الرجل المحبوب خصم ألد في الموت: قد تجلس معنا إلى الطاولة، أو ترقد بجوار

الدوقة في فراشها، أو تسبقنا في دخول الغرف، أو تدنو بخطواتك الشبحية الخفيفة منا ونحن نسير في الحديقة، قد تضحى، باختصار، كليّ الحضور. قد تصير شعائري، تتغبش هيئتك بالمراسم، متخفية بين الستائر السوداء والفضية للمشاعر والذكريات. لكن الغيمة القرمزية الملتهبة للانتقام ستتبعك، تضيء نيرانها المدخنة الصامتة الأروقة. وسأضحي أنا الأناني الجبان التافه الذي قتل الرجل الفريد الإعجازي الذي يجب أن تراه فرانشيسكا! لا يا ولدي. لن أقتلك. بوسعي بالطبع أن أسلمك ببساطة لقبضة القاضي الأكبر الذي بدوره لن يُلدغ من الجُحر مرتين. بوسعي هذا لأن لديّ نفوذ، وللنفوذ أذرع طويلة تتحرك بطرق غامضة. هل تتذكر ذات صباح منذ ستة عشر شهراً حين اقتحم رجال الأمن بـالبندقية غرفتك و صرخت فيهم، وأنت تقطر سخطاً، أن يخبروك بجرمك، بالتأكيد تتذكر الستة عشر شهراً التالية لهذا، منبوذ هناك، ممدد على فراش من القش النتن، ومازلت تتساءل عن جرمك. أتظن إنها ربما كانت كلمة في الأذن الصحيحة، أو بعض تمرين للعضلات ما رمي بك هناك؟ قد يكون صنيعي أنا ببساطة. لا أقول إنه صنيعي فعلاً، أنا فقط أذكر هذا لأني أريدك أن تفكر في احتمالية حدوثه من بين الاحتمالات الأخرى، شيء ما يجب أن تفكر فيه ملياً ما أن تنقضي هذه الليلة؛ لأنني، رغم كوني لست كاتباً ولا أنوي الآن بدء أي مستقبل مهني، ورغم إنني أفقد شعري وأعاني من آلام مضنية في ذراعيّ، والوقت بالتأكيد ليس في صفي، لكنني مع ذلك أمتلك وسائل فعالة، ومازال بإمكاني، إن شئت، أن أمد ذراعي وألمس حياة في البندقية تعتبر نفسها آمنة تحت حماية بابا براجادين. تبدو

شاحباً جدّاً، تراجعت خطوة للوراء. هل تبحث عن خنجرك؟ إن الانتقام هو ما تريده. سيطر على نفسك يا ولدي. لقد جئت أعزل كما ترى، ولا شيء يمنعك من أن تتخلص مني انتقاماً وتأخذ على عاتقك الهروب من نصف شرطة العالم، إلى أن تقع في قبضتهم وتجد نفسك على منصة الإعدام. لكن كل هذا بلا جدوى، فقد تفقد كل شيء، وحتى انتقامك مني قد تحوم حوله الشكوك التي تحوم حول الدور الذي لعبته في سجنك. اهدأ. لم أقل إنني المسئول عن هذا. فقط ألقي القليل من الضوء على الاحتمال الضئيل لأن أكون أنا المسئول. لقد خضت معارك كثيرة للغاية وعشت حياة مليئة للغاية لأشعر بأدنى تعاطف معك. تعاطفي ليس سهلاً، فقط الضعفاء الجبناء الذين يذرفون دموع التماسيح ويعانقون أعداءهم بحرارة زائفة يفعلون ذلك. أنا لن أعانقك جياكومو، ولن أقتلك ولن أنفيك قبل الأوان. ماذا تبقي لي إذاً، إن كان شيئا قد تبقى؟ حسناً، أعتقد أنني وجدت الحل الوحيد المقبول. سأعقد معك اتفاقا. وأنا أعرف أنني بعرضي هذا الاتفاق الذي ليس أكثر اعوجاجاً أو استقامة من أمثاله من تلك الاتفاقات عادةً، إنما أخاطب مشاعرك وذكاءك. دعني إذاً أعرضه عليك بوضوح: أنا أريد أن أشتريك يا ولدي. قل ثمنك، إنني أرحب بدفعه لأمنع الحقيقة من التحول إلى خصم شبحي، لأضمن اختفاءك من حياتي نهائياً، بعد أن تنهي شأنك وتلعب دورك بأن تسمح للدوقة بأن تراك، لأنها يجب أن تراك، لأنها تتمني أن تراك... أنا أشتريك: تلك كلمات قبيحة، ليست الكلمات التي قد يستخدمها مؤلف أو تستخدمها دوقة، لكنها كلماتي أنا، وهي أيضاً دقيقة. لقد وزنتها واخترتها

بحرص. أنا أعلم أن خدماتك ليست رخيصة، لكنني ثري وقوي وسأدفع لك ذهباً، ورحمة، ونصحاً، واتصالات، ووثائق ونقداً. سنعقد الاتفاق مهما تكلّف الأمر. أرجوك لا تحتجّ. سأشتريك كما يشتري الناس حماراً لحمل الماء في سوق طولون، أو عبداً من سوق سميرنا: سأشتريك كما اشتري تحفة من أحد صائغي الفضة بـبونتي فيشيو. مازلت محتجّاً؟ تحدق في الأرض وتعضّ على شفتك؟... هل تخطط لعمل انتقامي بشع يمسح فوراً تلك الإهانة وعار سجنك في البندقية؟ أرجوك سيطر على نفسك. سأدفع لك مقابل تلك الإصابات أيضاً بطبيعة الحال، وسأعرض عليك متع العالم كلها، لأن على المرء أن يشتري الرجل كله، بكامل مُحسّنات أمزجته وعواطفه وإلا لن يكون للاتفاق معنى. أنا أشتريك لأنك بشر فانٍ. فكر في الأمر ملياً: إنه إطراء تقريباً. لقد استخدمت كلمة «تقريباً» في بداية حديثنا وها أنا أكررها ثانيةً الآن لأن الكلمات مُلزمة وقوّتها المُلزمة تمتد للماضي والمستقبل. إنه إطراء تقريباً، صدقني، إذ ما هو الرجل في حركة العالم الدائبة؟.... مزيج اعتباطي بين شخص وقدَر، ليس أكثر. أنا أعرف شخصك وقد بحثت في ماضيك، لهذا أثق تماماً إنك مهما شحُب وجهك وتنهّدت وحملقت بعينيك، فلن تقتلني ولن تقتل نفسك. ليس لأنك جبان!- إطلاقاً!- بل لأنه ليس من طبعك ببساطة؛ لأنك في سويداء قلبك تحسب بالفعل كم تريد مني، لأن الاتفاق يروقك من حيث المبدأ، ولأن ثمة أشياءً ليس بوسعك فعل شيء بخصوصها، لأنه رغم كل شيء، كيف لك أن تفعل شيء؟... هكذا أنت. إن حقيقة أنك لا تكره الاتفاق قد تكون السمة الوحيدة الآدمية تماماً في شخصك. لا

يقلقنك كم ستطلب مني جياكومو: سأعطيك كل ما تطلبه، وأكثر! وقد أكون بقولي هذا الآن، أخالف مساري المعتاد في العمل، ولكن فليكن، إنني أعترف، أياً كان الرقم الذي تتطلع إليه فهو لا يهمني. دعني أعرض عليك ألف دوقية ذهب هذه الليلة. هل هذا قليل جدّاً؟ حسناً. لنقل ألفين، نقداً، ليكونا معك في ميونيخ وباريس. لا يكفي؟ لا بأس يا ولدي، واصل مهما تكلّف الأمر، أنا أتفهم. لنقل إذاً عشر آلاف دوقية ومعها خطاب توصية لتستخدمه في باريس. مازال ليس كافياً؟ أنا أتفهم، أتفهم حقاً يا ولدي. سأضيف خطاب مرور آمن لتستخدمه على الطريق، وهكذا تسافر مثل أمير دي كونديه، بالإضافة لخطاب تقديم شخصي لأمير الجرمان الذي سيسرّه أن يسمع قصة هروبك منك شخصياً. مازال كل هذا غير كافٍ؟... حسناً، ولمَ لا؟ أنا لست رجل بسيطاً. لا بأس. سأضيف لكل هذا خطاب تقديم لابن عمي لويس نفسه».

رفع يده الأرستقراطية الهزيلة التي ظلت حتى الآن قرب النار، وقَلَبَ راحتها لأعلى كأنه يعرض عليه العالم قائلاً:

ـ «أترى؟» سأل متأثّراً بكرمه الخاص. «لم يأخذ أحد مني أكثر من هذا. إنه لحقّ أن هذا الموقف فريد من نوعه؛ لأنني لم يسبق لي أن لعبت دور المرسال أو المحامي أو الوسيط في إقناع رجل وامرأة ليجتمعا معاً لغرض مشترك... هذه الليلة متميزة بحق، لأنني لأول مرة في حياتي سأرتدي قناع كل عجوز مغرم. رأس الحمار. هكذا إذاً اتفقنا. ستتلقي هذا الخطاب أيضاً، هل لديك أدني فكرة عن قيمته؟ وستأخذ مالاً فوق كل هذا، في عملات ذهبية، وفي

إئتمانات لدى أروع العناوين، في أي مدينة، من أي ناقل ملكية تختاره، المبلغ الذي وعدت به بالكامل. أنا أدفع فيك ثمناً غالياً جياكومو، كما يجب أن يدفع رجل في أواخر عمره في هدية وداع للمرأة الوحيدة التي أحبها. لهذا أريد أن أبرم معك هذه الصفقة. أن أشتريك على نحو لائق وعلني، وسيكون الخطاب الذي سأكتبه لابن عمي لويس، والذي سيسلمه لك خادم أمين عند الفجر، شريطة أن يتم كل شيء كما اتفقنا، أول وآخر خطاب توسّل أرسله لجلالته، الذي لن يرفض لي طلباً. سيستقبلك لويس في الفرساي: الخطاب يضمن هذا! هذا ليس أكثر مما أدين به، ليس لك، ولا لنفسي حتى - بل للمرأة التي من أجلها لعبت دور المرسال، المرأة التي أحبها. إنه بطاقة سعرك، والآن بعد أن اتفقنا على هذا السعر لا أظن أنك تريد مني أكثر من هذا. الخطاب الآخر سيفتح لك الحدود، وستنام في فنادق المدن الأجنبية مرتاحاً كما نامت والدتك ذات مرة في حِجر المغنية الجميلة[1]. لن تزعجك الشرطة بعد الآن، وفي حال تجمعت سحب الشقاق والمناجزة حولك، أو طلب أعداء رأسك، سيكفيك أن تُظهر الخطاب وحينها سيتحول عدوك فوراً لصديق يكنّ لك الإعجاب. إنني أفعل هذا لتجد لك طريق آمن في هذا العالم القبيح. هذا اتفاقنا. وماذا أريد في المقابل؟ أريد الكثير بطبيعة الحال. أريدك أن تضع نفسك تحت تصرف دوقة بارما. أريدك أن تقضي هذه الليلة مع دوقة بارما».

رفع عصاه بقبضتها الفضية في الهواء بحركة سلسة، وبنهاية

---

(1) الإشارة للبندقية.

الجملة دق بها مرتين، برفق، على الأرض الرخام كما لو ليختم كلامه بالدق.

ـ «هل سعادتكم جادون في هذا الطلب؟» سأل جياكومو ضيفه.

ـ «طلب؟.... لا» أجاب الضيف بهدوء شديد: «إنه أمر يا ولـدي». ثم تابع بهدوء وثقة أكبر: «لقد قلت لك إن عرضي سيروقك شعورياً ومنطقياً. اِستمع إذاً، اقترب. هل نحن وحدنا؟.. أنا واثق أننا وحدنا. إن اتفاقي معك لليلة واحدة فقط جياكومو. لقد توصلت لهذا القرار من دون أن أخدع نفسي، من دون طموح أو خوف أو ارتباك. لقد توصلت لهذا القرار لأن حياتي أوشكت على نهايتها وبودي أن أملأ ما تبقي منها بالحمولة الوحيدة الممكنة. هذه الحمولة هى فرانشيسكا، زوجتي، أريد أن أبقي على هذه المرأة لما تبقي لي من وقت، وهو ليس بالطويل الآن، لكنه ليس بالتافه أيضاً، للحقيقة إنه طويل كما تقضى أقداري. أنا أريد أن احتفظ بها، لا أريد حضورها المادي فحسب، بل مشاعرها ورغباتها أيضاً التي ارتبكت الآن بالتوتر المشحون للحب الذي تحسّه تجاهك. إنني أعتبر هذا الحب كثورة. قد تكون ثورة مشروعة، لكنها تناقض اهتماماتي، وسأقمعها كما قمعت ثورات أخرى. فأنا لست شخص رقيق مرهف الحس. أنا احترم النظام والتقاليد، اللذين يعتبران أكثر متانة ومنطقية، إلى حد بعيد، من المعتقدات العادية الساذجة. أنا أؤمن بالنظام كمصدر للفضيلة، رغم كونها ليست بالضرورة الفضيلة المذكورة في التعليم الديني. حين رفع خبازو بارما سعر الخبز، علقتهم على أبواب أفرانهم رغم أن القانون لا يمنحني هذا

الحق، لأن لدي ما يكفي من القوة والعقل، ولأن ذلك لحفظ النظام، إن جاز التعبير، رغم أن المحامين العصبيين والقضاة المهيبين لم يفهموا ذلك تماماً. لقد سحقت القائد الأعلى لقواتي على عجلة حربية خارج بوابات فيرونا لأنه كان وقحاً ووضيعاً مع جندي عادي، وقال الكثيرون إنني مخطئ في هذا، لكن الجنود والضباط الحقيقيون فهموا، لأنهم يعرفون أنه أن تأمر يعني أن تكون مسئولاً. فقط هؤلاء الذين يملكون منطق قاس بتهذيب وتجاوب هم القادرون على حفظ النظام. لقد قعمت ثورات لأني أؤمن بالنظام. لا توجد سعادة ولا مشاعر حقيقية بدون نظام، ولهذا ظللت طوال حياتي أستخدم السيف والأغلال لقمع أي عصيان عاطفي يستهدف تدمير النظام الداخلي للأشياء، لأنه بدون نظام حقيقي لا يوجد تناغم ولا نماء ولا ثورة حقيقية أيضاً. هذا الحب بينك وبين الدوقة جياكومو درب من دروب العصيان، ولأنني لا أستطيع سحقه على العجلة، أو تعليقه من قدميه على مدخل المدينة، أو مطاردته عارياً حافي القدمين ليلاً في الجليد، بدلاً من هذا، سأشتريه. لقد حددت السعر، وهو سعر جيد، قليلون من يمكنهم دفع ثمن مرتفع هكذا. أنا أشتريك كما قد أشتري مغنياً شهيراً أو ساحر أو رجل قوي، كما ندفع لممثل في زيارة للمدينة ليؤدي على المسرح أمام لوردات البلدة ويمتعهم بأفضل ما يمكنه لليلة واحدة. أريدك أن تؤدي لي عرضاً بالطريقة نفسها جياكومو، أن تظهر كضيفي في بولزانو لليلة واحدة فقط. أنا أستأجرك لأعرض على المشاهدين ما تعرفه، وسنرى هل ستروق للجمهور، أم سيسخر الجمهور منك ويطردك من على خشبة المسرح. أمازلت هادئاً؟ أتظن أن السعر غير كافٍ؟

أم أنه كثير جدّاً؟ هل ثمة صراع بداخلك؟ استمتع بوقتك يا ولدي! اضحك ملء فمك! لنضحك نحن الاثنان بما أننا وحدنا، بعيداً عن العالم، وجهاً لوجه مع الحقائق: لنضحك، لأننا أصدقاء حميمون رغم كل شيء، طرفَيْ اتفاق متبادل. هل يؤرقك احترامك لذاتك جياكومو؟ آه جياكومو أرى الآن أن عليّ تحسين عرضي. لابد أن هناك شيء آخر يمكنني أن أعرضه عليك، أنت الشجاع المقامر الذي يريد كل شيء ولاشيء... هل تهز رأسك؟ هل تعني أنك كبرت ولم تعد مراهقاً بعد الآن؟ صرت تعرف إذاً أن كل شيء ولا شيء لا يوجدان في الحياة الحقيقية: أن هناك فقط مناطق رمادية من «شيء ما» بين طرفي النقيض «اللاشيء» و»كل شيء». لأن «لا شيء» و»كل شيء» عادةً ما يتحولان ليكونا الكثير على نحو ما؟ لماذا تتردد؟ اخبرني بسعرك، لا أحد غيرنا هنا. قل كلمتك. لم يعد المال بذي قيمة بالنسبة لي، قل كلمتك إذاً. كن صريحاً كما تشاء، صِح بسعرك الذي يرضي ضميرك أو اهمس به في أذني، قل لي ما الذي يجعلك تقضي الليلة مع دوقة بارما. كيف تقدّر فنك؟ بالغالي أم بالرخيص؟... تكلم يا ولدي»، قال هذا ثم سعل، ثم أضاف: «تكلم لأن ليس أمامي وقت».

وقف مضيفه أمامه بذراعين معقودتين. لم يكن بمقدور أحد منهما رؤية وجه الآخر في الضوء الخافت. أجاب بأدب:

ـ «لا بالغالي ولا بالرخيص، سعادتكم. ليس لهذه الليلة ثمن. ثمة طريقة واحدة فقط لتشتري بها هذه الليلة».

ـ «قل كلمتك».

ـ «بلا مقابل».

ظل الضيف يحدق في النار ولم يحرّك ساكناً، لم يحرك رأسه حتى، لكن شفتيه الشاحبتين الحادتين صفّرتا باستهجان وقال:

ـ «هذا أكثر مما يمكنني دفعه. أخشى أنك أسأت فهمي جياكومو. لا يمكنني دفع هذا».

لزم جياكومو صمته العنيد، فتابع الدوق:

ـ «أقصد أن العقد سيعتبر لاغياً هكذا. إنه ثمن يستحيل أن أدفعه مقابل خدمة، إنك تغالي بحماقة في تقدير فنّك. أنت تغني من طبقة عالية جياكومو، إن جاز لي القول. تلك نغمة لم أشأ سماعها، بل أردت صوت عقل هادئ وصافٍ على استعداد لعقد صفقة جيدة. ظننت أنني أتحدث لرجل وليس لبهلوان يغنّي».

ـ «وأنا ظننت أنني أجيب رجلاً» أجاب الآخر بهدوء «وليس ماسيناس، راعي الفنون».

ـ «ماسيناس حسن»، أجاب الدوق وهو يرفع كتفيه. «ردٌّ حسن، كلمات فصيحة. ردٌّ بليغ بتلميحات أدبية دقيقة ومحترمة، لكنها لا تمت بصلة للواقع. من الصحيح أن المرء يحتاج للفصاحة لعقد الصفقات ـ بضع كلمات رقيقة وبعض التربيت على الصدر قد يكونا ضروريين ـ في الحقيقة قد تكون السبيل الوحيد أمامنا لنعقد صفقة. لكننا انتهينا من الفصاحة، لنتخلى عن سموّنا. أخشى أنك لم تفهمني. أنت تظن أنها صفقة لا أخلاقية. قد تكون كذلك وفقاً للمعايير الوضيعة للعالم وأخلاقياته المتذبذبة. لكني، ليس لديّ

متسع من الوقت لأعني بأخلاقيات العالم وأحكامه. المرأة التي أحبها تحبك، لكنك ليس بوسعك حب امرأة حقاً، لأنك ملعون بألا ترضى أبداً. أنت من هؤلاء الرجال الذين يرشفون، كما يعنّ لهم، من كأس من الكريستال النقي أو من حوض حجري، من دون أن يُروى ظمأهم أبداً. لذلك فظمأهم لا خلاص منه. الحب بالنسبة لك درب من الإدمان. لقد استغرقت وقتا طويلا لأفهم هذا، وكنت أحاول فهمه منذ اللحظة التي رأيتك فيها تتثاءب في المسرح ببولونيا، حتى لحظة أن رأيتك هنا في بولزانو، حين أعطيتك رسالة الدوقة. والآن وأنا أعرف طبيعتك، ومن أنت، لا أستطيع أن أقول لفرانشيسكا: «اذهبي! اذهبي مع الرجل الذي تحبينه!» قد استطيع قول هذا لو لم تكن ما أنت عليه، لو لم أرد وقاية فرانشيسكا من نيران الحزن التي تضطرم بداخلك. وإن كان في صدري شفقة عليك فستكون للعجز والصمم اللذين أضفاهما القدر علي شخصك؛ قد أشفق عليك لأنك لم تعرف الحب، لم تسمع صوته مطلقاً، لأنك أصم. لعلك أنت أيضاً تنازلت عن امرأة، من باب الضجر ليس إلا، أو تركتها تذهب لشأنها في أدخنة اختيارها الخاصة، لأنك أحببت فعل هذا أو لأنك تلعب لعبة، أو لرغبتك في استعراض شهامتك وكرم نفسك. لكن ما لا يمكنك أن تعرفه أن الحب قد يجعل الرجل لا أخلاقي، لا يمكنك أن تعرف أن الرجل الذي يحب امرأة بوسعه أن يدعها تذهب لليلة واحدة ـ أو للأبد فعلاً إن تحتم عليه ـ ليس لأسباب أنانية، بل لأنه يشعر بأن من واجبه أن يضحّي بنفسه من أجلها. لأن أن تحب يعني ببساطة أن تضحّي، وهو كذلك دائماً. الآن، ولأول مرة في حياتي، أنا أيضاً، بودي أن

أضحّي. حتى القادرون وأولو النعم لابد أن ينحنوا للقدر. لو لم تكن ما أظنك إياه، لكنت تركت فرانشيسكا تذهب معك بكل شبابها وقلة خبرتها، لكنني لن أسمح بهذا، لإنك ليس بمقدورك أن تمنحها، وهي معك، سوى أيام وليالي قليلة، ثوان قليلة من الحنان غير الشخصي تقريباً، لهب يلسع لكنه لا يُدفئ. ماذا بوسعك أن تمنحه لها؟... رعشة الإغواء فقط. هذا هو فنّك المميَّز، وهو فن راقٍ له تقاليد قديمة، وأنت بالتأكيد خبير في هذا الميدان. لكنها طبيعة الرعشة ألا تستغرق وقتاً: هذا هو الفن وتلك هي نسبه. الآن اذهب جياكومو وحقق المعجزات!» قال بصوت أجش قليلاً ملتفتاً له بعينين مفتوحتين على وسعهما. حدّق أحدهما في الآخر لوهلة. «اجعلها رعشة فاتنة لها. لقد أهنتك من قبل حين عرضت عليك مالا وحرية ومتّعاً دنيوية مقابل فنك، فركبت أنت أعلى خيلك وألقيت خطاباً مبجَّلاً بكلمات مثل لا شيء وماسيناس». تلك مجرد كلمات، فنك الذي تتقنه، الفن الذي تفهمه بحق كما يفهم الصائغ في الخواتم والبروشّات (مشابك الصدر). إن الإغواء هو الميدان الذي تضحي فيه روحك مبدعة حقاً. لذلك اذهب واصنع تحفتك الفنية الإغوائية. أترى؟ أنا أعرف إلى من أتحدث، وأثق في أنك ستقوم بعمل رائع. ما هي متطلبات الإغواء لديك كل ما تحتاجه بالفعل: ليلة، سرية، قناع، وعد، كلمات رقيقة، تنهدات، رسالة غرام، رسالة خفية، لقاء غرامي في عاصفة ثلجية، اختطاف حنون، اللحظة الجليلة حين تكون أسيرتك بين ذراعيك لاهثة، حين تستسلم وتصرخ عالياً، ثم الهبوط البطئ والخاتمة، وعودٌ مثل «أنت وحدك» و»للأبد»، رغم أنك في تلك اللحظة ستتحول بعينيك

لضوء الفجر المنبلج عبر النوافذ تفكر في لحظة انصرافك بأسلوب يليق بصنعتك، بعد أن أتممت عملك كما ينبغي، في جو من الخصوصية، لفنان يفكر في ظهوره التالي في مكان آخر. قلت إنك لست للبيع، شعور جدير بالثناء. لكنني لا أصدقك لأنني أعلم أن لاشيء في العالم ليس للبيع، لعل حتى نيران الحب يمكن شراؤها. ولعل سعيي الحثيث الآن لأشتري ما تبقّى من حب فرانشيسكا، الحنان الذي تبقّى ليريحني في أيامي المتبقية؛ لأنني ضعيف، وسأموت عاجلاً، وأريد أن أقضي ما تبقّى لي من شهور وأيام في هذا الضوء الرائع المنبعث من هذا الجسد فقط، هذه الروح فقط. أدرك أن هذه نقطة ضعف. أنا أريدها أن تتغلب عليك كما تتغلب على مرض. إن ما حدا بي إلى هذا ليست نزوة شبق، الآن والموسيقيون يضبطون آلاتهم بالفعل في قصري ورأس الحمار جاهز في انتظاري، لا، هذه ليست تباريح عاشق قديم لم يعد بمقدوره منح محبوبته المتعة والتسلية. لا، جياكومو، بل إنك مرض، إنك الحمى الصفراء والطاعون والسفلس وقد اجتمعوا وعلينا أن نتغلب عليك. إن لم يكن بوسعنا شيء آخر فعلى الأقل دعنا نعيش. لهذا جئت إليك أسألك أن تقضي ليلة مع زوجتي - طلب غريب بما يكفي حين تسمعه لأول وهلة، لكننا حين نضع في حسباننا كل شيء، حين ندقق في مشاعرنا في سياقها الحقيقي ونستخدم عقولنا، سنجده طلبا طبيعياً للغاية. أنا أري مخاطر السفلس والطاعون والحمى الصفراء وأدرك أنه لا مناص من اجتيازها. لهذا أريدك أن تحقق معجزة! ليس بوسعك أن تمنح المريضة المسكينة سوى رعشة الإغواء ـ لذا دعنا ندبر لها هذه

المغامرة، بأفضل وأرقي طريقة ممكنة، بكرامة وإتقان، بالتفاهم المتبادل بين شريكين حقيقيين وحدتهما المؤامرة الكئيبة التي توحّد الرجال الواقفين أمام المرأة نفسها. راجع فنك وابتكر لحظة إغواء ألمعية، لأنني أتمنى أن تعود فرانشيسكا للقصر في الصباح كمريض تعافى من مرض، قلبها حر، شامخة. لا أريدها أن تتسلل عائدة للبيت عبر أزقة مظلمة، بل فخورة كما أريدها أن تكون، لأنها هي أيضاً لها مكانتها ولن أسمح برؤيتها تفقد ذرة من كرامتها. هذا هو مخططي لأستبقيها معي في أيامي القليلة المتبقية. الآن وقد فهمت الكثير مما لم أفهمه من قبل، الآن وقد انتهت حياتي تقريباً؛ لهذا، لا أتقدم بعرضي للرجل العادي الفاني بداخلك، الذي يأخذه كإهانة، بل للفنان خالد الصنعة. لا أريد منك سوى أن تبقي مخلصاً لفنك وتخلق تحفة فنية. آه. الآن تنظر إليّ. أظن أننا بدأنا نفهم أحدنا الآخر. أنظر في عينيّ. حسن يا ولدي. علينا أن نواجه أحدنا الآخر في ضوء النهار البارد، كشركاء. ياله من أمر رائع أن توقظ اهتمام فنان. لعل البابا شعر بهذا حين أقنع الخارق مايكل أنجلو بالنهوض واستكمال قبته. حسن جدّاً، دعنا نبني قبتنا على طرازنا الخاص، وننهي الأمر كما يليق»، قال هذا بابتسامة حزينة ملتوية. «لفنّك قيمة عالية وأنا على استعداد لدفع ثمن غالٍ مقابله، فلا حاجة بنا إذاً للتراشق بالكلمات، لأنك ستحتاج فجر الغد لعشرة آلاف قطعة ذهبية وخطابي النادر الذي لا يثمّن بمال. دعنا لا نضيع ثانية أخرى على هذا الأمر، لا شيء قد يكون أكثر طبيعية. أنا فقط لا أنفكّ أذكر التفاصيل، الأهم من كل هذا وذاك أنني رأيت في عينيك ضوء الفهم. مرت دقائق قليلة فقط لكنني أعرف الآن أنني لمست الفنان

فيك: بوسعي أن أري الفكرة تسترعي انتباهك وتستثيرك. يبدو عليك قلق البال ولعلك تقلب الأمر في ذهنك الآن، مفكراً في مشاكل التنفيذ، متسائلاً كيف تبدأ بناء الصرح من البداية.. ألست على حق؟... ظني أني كذلك. أترى؟ لقد حسبتها بدقة جياكومو: أعرف أنه ليس بوسع الفنان الهروب من النداء المغوي لفنّه. أنا واثق تماماً أنك لن تخيب ظني وأنك ستقوم بعمل رائع، ولو فقط لأنه ما من بديل آخر أمامك: فإما أن تقف أو أن تقع. التحفة الفنية التي أريدك أن تصنعها كالمنمنمات: عمل فني مركّز، عادةً ما يستكمل في شهر أو سنة، لكنك ستصنعه في ساعات قليلة. أريد أن تكون الافتتاحية والخاتمة متناقضتين على نحو مذهل، أن تتطلب إحداهما الأخرى بما لا يدع مجالاً للشك، ومن في أوروبا كلها في موقف أفضل منك أنت لصنع هذا، أنت دونا عن الآخرين جميعاً، لاسيما في تلك اللحظة إذ خرجت لتوك من السجن حيث أصقل الوقت والتأمل الإجباري موهبتك ومهارتك؟ أنا أعلم أن أداءك سيكون ممتازاً جياكومو! يجب أن يكون كذلك: لهذا أدفع لك وأنا بكامل رشدي هذا الثمن الغالي، بالكلمات، بالذهب، بالخطاب، وبتهديد الدم المتخثّر. كل ما تستحقه، كل ما يليق بشخصك، وبشخصي، وبشخص المرأة التي يتم تدبير كل هذا من أجلها! أريدك أن تضغط فنك وتركزه. أنا أدرك صعوبة هذا لكنني أريدك أن تجمّد قوانين الزمن لبضع ساعات وتقوم بحيلة سحرية، كسَحَرَة الشرق الذين باستطاعتهم تحويل البرعم في ثوانٍ قليلة إلى زهرة كاملة في الشكل واللون والرائحة، لكنها تموت فوراً. إن موت الزهرة حدث أكثر كآبة، لكنه فاتن وغامض كتفتحها. إن معجزة

الذبول والاكتمال والدمار، كمعجزة الميلاد، مميزتان بنفس القدر. يالها من علاقة رائعة ومخيفة تلك التي بين الصحوة والذروة والخاتمة. لكنني أريد لهذا أن يكون أكثر من حيلة سحرية، كل الورقات الذهبية والكلمات الجوفاء؛ عليك أن تمنحها كل شيء، الرعشة الحقيقية للإغواء، علاقة زوبعية مكتملة بليل وضباب وهروب ووعود صادقة وشغف حقيقي، وإلا سيكون كل هذا بلا جدوى. ويجب أن يحدث كل شيء سريعاً، سريعاً جدّاً جياكومو، لأن الوقت يسابقنا. ليس لدي متسعٌ من الوقت، ليس لدي أسابيع لأهدرها عليك، ولا يوم ولا ليلة واحدة سوى هذه الليلة. لهذا استأجرك أنت، أنت فقط، المارد الأوحد من بين زمرة المتأنقين الذين قد يقومون بالخدمة نفسها. لأنني أقدر فنك، وتقريباً ـ كيف تعاود تلك الكلمة مطاردتي ـ يروقني. أنا أعلم أن المهمة تتطلب مزيجاً مستحيلاً من الذكاء والصنعة والرقة وبرودة الثلج من ناحية، والضراوة والشغف والدموع والنشوة وجنون ضربات القلب المحمومة، ودرجة من الخدر الانتحاري من الناحية الأخرى. وهذا ما سوف تفعله على نحو منمنم وسريع في ليلة واحدة، مع أنه يستغرق من العاشق العادي البرجوازي وقت طويل، بل قد يستغرق حياة بكاملها حتى. هذا ما يجعلك فناناً بقدر من يستطيع نقش معركة كاملة على قطعة حجرية ضئيلة، أو مدينة مزدحمة بالناس والكلاب والأبراج على سن عاج. لأن الفنان، والفنان فقط، من يستطيع تحطيم الزمان والمكان! وعليك أن تحطمهما الليلة. ستزورنا الليلة لأن فرانشيسكا تشعر إنها يجب أن تراك! ستأتي بالملابس الرسمية وقناعا كالآخرين، وما أن تميّزها، خذها بعيداً

عن الحفل، وأئتِ بها إلى هنا وحقق المعجزة! بإمكاني أن أميز من نظرة عينيك أنك ترحب بهذا، وأنا بدوري أرحّب بدفع الثمن. ما أريده يا جياكومو، ما أطلبه، هو أن تعود الدوقة للقصر فجراً. وأعدك أننا لن نتحدث ثانيةً أبداً عن أحداث تلك الليلة، مهما صارت إليه الأمور، ومهما أتتنا به الحياة في المستقبل. ستراك الدوقة الليلة كما ترغب في مرضها، وستعرفك، بالمعنى الإنجيلي الدقيق للكلمة، لأن الحب، تلك الحمى المعدية، ليست شيئاً سوى أن تعرف. عملك كفنان، كمعالج، أن تضمن شفاءها من تلك الحمى قبل طلوع الفجر. لا يهمني أسرار صنعتك. أريدها أن تبرأ منك على النحو الذي يجعلها تعود إليّ فجراً، ليس خلسة، بل بدون قناعها، كما يليق بامرأة ذات مكانة، مكانة أنعمت بها عليها، على المرأة التي أحبها. بمعني آخر لا أريدها أن تعوّل على تواطؤ وصمت الخدم المرتشين والقوّادين بل أن تتجول هنا وهناك برأسها مرفوعاً. إن الحياة حادث. وأنا لا أريد أن تكسر دوقة بارما عنقها في هذا الحادث. مازلت بحاجة إليها. دعها تعود إليّ، إلى بيتها، فجراً، ليس بخطوات متسللة بل بخطوات واسعة ورأس شامخ في وضح النهار، حتى وإن كان هذا على مرأى من بولزانو بأسرها. هل تفهمني بشكل كامل الآن؟ أريدها أن تعود للبيت وقد شُفيت تماماً، أترى جياكومو، إنها لك، لكن عليك أن تجعلها تدرك أن لا حياة لها سوى تلك التي أمنحها لها. دعها تعرف أنك مغامرة، نزوة، لا أمل في حياة معك، ليس لها هي، دعها تعرف أنك ليلة، عاصفة، طاعون، أنك شيء ما يحلّق فوق المشهد ويختفي ما إن تشرق الشمس في الصباح ويبدأ الناس أعمالهم الروتينية الداجنة، يدخنون، يجعّدون

شعورهم، ويرشونها بالبودرة. لهذا آمرك بأن تحقق معجزة. أريدك أن تكشف عن ذاتك الحقيقية للدوقة خلال ساعات قليلة، وأن تصبح هذه الذات السرية بطلوع الفجر ذكرى لا لحوحة ولا مؤلمة. كن طيباً معها، لكن قاسياً وخبيثاً أيضاً، كعادتك. كن عطوفاً عليها واجرحها، كما تفعل دائماً، كما كنت ستفعل لو كان لديك متسع من الوقت، أُعصُر كل ما قد يحدث بين اثنين من البشر في ليلة واحدة. أنهِ كل ما قد يُنهى وانتهِ منه بطلوع النهار، ثم ردّها لي، لأنني أحبها ولإنك ليس لديك شأن آخر بها».

نهض واقفاً، ثم أضاف وهو يتكئ على عصاه:

- «هل اتفقنا على ذلك جياكومو؟»

سار مضيفه صوب الباب بخطوات واسعة ويديه خلف ظهره، فتح الباب وهو يحدق بنظرة تأملية في عتبته، ثم سأل:

ولكن، ماذا سيحدث لو لم أنجح في هذا؟.... أعني إن لم استطع تركيز كل شيء وإسراعه على هذا النحو السعيد الذي تطلبه معاليك؟ ماذا سيحدث إن شعرت الدوقة في الصباح أن الليلة الماضية كانت مجرد بداية لشيء ما..».

لم يستطع مواصلة كلامه، فخطا الضيف صوب الباب بخطوات سريعة شبابية على نحو مفاجئ، وتردد عند العتبة ونظر محدّقاً في عينيه وأجابه بأسلوب قاطع:

- «سيكون هذا خطأً جسيماً، جياكومو».

وقفا متواجهين لدقائق طويلة، رفع جياكومو كتفيه قائلاً:

ـ «طلبات معاليك أوامر. سأبذل قصارى جهدي لأكون عند حسن ظنكم، وبقدر ما أستطيع». ثم انحنى بشدة.

التفت الدوق نحوه بمشهد وداعيٍ أخير قائلاً:

ـ «قلت لك كن عطوفاً معها واجرحها. لكنني أرجوك ألا تجرحها بشدة، إن أمكن ذلك».

خرج منحنياً ببطء من دون أن يغلق الباب خلفه، هرع خدمَه إليه بالمشاعل لدى سماعهم دقّ عصاه على درجات السلم. ثم راح يهبط السلم.

ebooks4arabs.blogspot.com

الزيّ التنكرى

ماذا تنتظر إذاً؟ ارتدِ ملابسك أيها الدجّال العجوز الرعديد! غرفتك مكتظة بالظلال: ظلال شبابك. راح الشباب.. أليس كذلك؟... لكنك مازال بإمكانك سماع صوته، مثلما تسمع رنين أجراس زلاجة ضيفك الهَرِم. يبتعد وهو ينحنى ويلوّح بقبلاته لجمهور لا مرئي. ابتعد مع خدمه وخيله المهيبة وزلاجته الرنّانة. إنه يمر أسفل نافذتك الآن ملفعاً بحيث لا يبدو منه أنفه حتى. قامة هزيلة غير ذات شأن داخل المركبة، مدثراً بالفرو، تحت حماية مكانته، وشيخوخته، وألمه. وبالرغم مما قاله وعظاته وحديثه بطريقة الأساقفة، هو على حافة الموت. إنه هو المجروح الآن، لست أنا حين كنت أنزف في الحديقة ببستويا وعند بوابات فلورنسا. إن جرحه مميت. وماذا عنك جياكومو؟ هل أنت سعيد الآن؟ هل أنت ميت؟ هل عقدوا ذراعيك على صدرك فعلاً. إن كنت في وعيك لكنت أنت الآن من ينحني ويلوّح بقبلاته للجمهور اللامرئي متلقياً إعجابهم. هل تاهت منك الكلمات؟ هل ثمة غصّة في حلقك كأنك أفرطت في الأكل والشرب؟ هل تريد التوبة

وسمك مدخّن؟ إنه عالم مجنون! الآن عليك أن تقتل كل ما بداخلك: اخنق ذكرياتك، اخنق كل مشاعرك الرقيقة بيديك العاريتين كأنها قط غير مرغوب فيه. اخنق كل ما له مذاق التواصل الإنساني والشفقة! هل مضى شبابك؟ لا. ليس تماماً. نعم لقد فقدت سنّين أماميين، وصرت لا تحتمل البرد وتقرفص بالقرب من النار طلباً للدفء متمتماً في قفازين من الفرو، وتراقب ما تأكله وتحرص على غسل فمك قبل تقبيل إحداهن لأن جهازك الهضمي وأسنانك لم يعودا يعملان بحالة جيدة كما كانا من قبل. لكنها ليست المحطة الأخيرة. معدتك وقلبك وكليتاك مازلوا خدماً مخلصين؛ شعرك بالكاد بدأ في التساقط، خفيف قليلاً عند جبينك وصدغيك: عليك أن تنتبه إلى أين ستضع حبيبتك يديها حين تمسك بشعرك! لست عجوزاً بعد، لكن عليك أن تأخذ حذرك قليلاً، خاصة من السفلس الذي يبدو إنه يجتاح العالم، حسبما يقولون. لكنك لم تفقد كل شيء، تلك الطاقة الهائلة، هذا الدفق العفوي، هذا الكل شيء أو اللاشيء الذي تحدث عنه العجوز المأفون بذاك الإزدراء، سيظل في خدمتك لفترة قادمة! لا جدوى من فضائل مثل الحذر والحكمة والتريث والتعقل من دون المشاعر الغريزية للشباب لتبعث فيها الحرارة. كيف تكون الحياة إذا خلت من الرغبة في أخذ كل ما يعرضه العالم، ورمي كل ما لديك في الوقت نفسه. أن تنتزع وترمي في آن واحد؟.... يكفي هذا. لست في الحفل التنكري الآن. أنت على موعد من نوع مختلف. موعد نهائي مختلف! موعد نهائي بمثابة علامة لخاتمة الشباب. أنت رجل كبير الآن، في إحدى لحظات النضوج التي تأتي بها الحكمة،

لحظة تشبه الساعة الرابعة ظهراً في منتصف أكتوبر. إنه وقت رقيق. مازالت شمسك تسطع، انظر حولك، خذ نفساً عميقاً حلواً، واشعر بأشعة تلك الشمس، هديء سرعتك، خذ حذرك أكثر، ليس بوسعك فعل شيء آخر في جميع الأحوال. شبابك يفارقك... وفي أمكنة أخرى يضحك الناس ويقرعون كؤوسهم وتغني امرأة وتنبعث رائحة تساقط المطر، بينما أنت تقف في حديقة ووجهك مبلل بقطرات المطر والدموع، الزهور ذابلة لكن قلبك عاصف وسعيد. تتوق للكمال والاندثار، ترقد حولك كل الزهور المدهوسة... هكذا بدا الأمر، شيء ما من هذا القبيل. ربما ستتذكره لاحقاً حين تصير عجوزاً. الآن ارتدِ ملابسك لأن الوقت يمر وهناك من ينتظرك بالفعل في قاعة الحفل، عينان حنونتان ومتشوّقتان على نحو يفوق الوصف تبحثان عنك، لأنها يجب أن تراك... أين الرسالة؟ نعم إنها هناك حيث تركها. لنلقِ نظرة. خط كبير، حروف حذرة ومهمومة... ليست أول امرأة تكتب لي ولن تكون الأخيرة على ما أظن. وكيف ارتعشت أصابع الغراب العجوز زوجها ولمعت عيناه وهو يشرح معني الرسالة! كان مسلياً جدّاً حقاً! أحياناً تستحق الحياة أن نعيشها! يجب أن أراك، نعم... حسناً أيتها المخلوقة المسكينة. ماذا كانت ستكتب أكثر من هذا بينما لم تتعلم الكتابة سوى من عام واحد بالكاد. يقول زوجها إن ليس بإمكان أحد أن يكتب أو يعني شيئاً على نحو أجمل من هذا، ولعله على حق؛ إنها رسالة راقية. وقد تكتب نساء أخريات مثل الماركيزة أو ابنة شقيقة الكاردينال أو م.م. اللائي يعرفن الكثير عن الحب والأدب، رسائل أكثر ذكاءً وطولاً، بأبيات شعرية كاملة، وإشارات

كلاسيكية، وبذاءة راقية، وعاطفة طنّانة... لكن مع ذلك يجب أن أعترف أنهن لم يكتبن شيئاً أصدق من هذا. إن المغفل العجوز الغيور على حق في إعجابه بالرسالة.... حسناً يا حمامتي، سترينني كما ترغبين! يجب أن تريني، رغم إنني لست أجمل الرجال ولا أكثرهم شباباً ولا وسامة، ولست أعظم الأوغاد كذلك، كما قال معاليه. أنتِ يا حمامتي سترينني كما تريدين وكما أراد هو، الغراب العجوز المتغضّن! ياله من خطاب هذا الذي ألقاه! يالها من خطة ملتوية تلك التي خططها! كل هذا التهديد والتشجيع! أيمكن أن يكون هو من غدر بي وألقى بي في قبضة السلطات منذ ستة عشر شهراً في البندقية... يسر المجلس أن يقوم بخدمات صغيرة لأصحاب النفوذ بالخارج؛ القاضي الأكبر رجل مهذب لن يرفض طلباً صغيراً لابن عم ملك فرنسا. حسناً، دوق بارما، لك ما سألت! قمت بعمل جيد وأنت تغلّف عرضك بثوب الهدية، عبرت عما بداخلك كفيلسوف، أردت أن تكون منتجاً وراعياً، سيداً وشريكاً، في هذا الشأن الغريب، وستحظى بما أردته... أيمكن حقاً أن تكون يديك، ملتهبتي المفاصل هاتين، هما اللتان وضعتاني في فراش القش في البندقية؟ لم يقل هذا، ليس بكلمات كثيرة. ألمح ببساطة لهذا الاحتمال، كجلاد متقاعد ينظر في قائمته السرية قبل أن يدسّها في جيب صداره ويذهب مبتعداً. قلب الأمر في ذهنك! فكّر. انتبِه. قد أفعلها مجدداً. معه حق هنا: لم يكن ثمة متعة في السجن. كان على حق أيضاً في كلامه عن القوانين والنظم الأخرى، مع ذلك أخبره بقصة أو اثنتين بنهايات نظيفة، ناهيك عن القصص القصيرة. الأب براجادين ليس ملاكاً بالطبع حين يتعلق الأمر بالصالح العام

أو حين يبيع أحدهم حياة رجل آخر ليسدي صنيعاً. الأمر ببساطة أنه هكذا يسير العالم، نحن نتأخر في تحصيل دروسه، لكن لعله من الأفضل أن نتأخر، لنعدّ أنفسنا لمواجهته، لنكتشف كيف يسير، ثم سرعان ما نكتشف أن ثمة ما هو أقذر وأخطر من لعب ورق، وأن العلاقات المستترة وراء الاحترام بنفس القدر من القذارة. خذ حذرك جياكومو. خذ حذرك الليلة وخذ حذرك صباح الغد أيضاً عند بزوغ أول خيوط فجره، حين تغادر تحت الثلج المتساقط. الأمر مخطط له بحرص شديد لئلا يتأذّى أحد. احذر من العجوز النبيل، العاشق المهيب القديم، الذي يفضل ألا يخنق خصمه بل يستخدم يدي خصمه نفسه ليخنق الحب وذكراه أيضاً... اِحترس! مازالت المصابيح مشتعلة في الاسطبل، ومازال لديك بضعة قطع ذهبية متبقية من الأمس تصلصل في جيبك؛ ماذا سيحدث إن حزمت متاعك سريعاً، وامسكت بتلك الدجاجة ذات الستة عشر ربيعاً، تيريزا، التي جعلتك قبلاتها تحظى بنوم هادئ خلال الثمانية أيام الماضية. ومخلصاً لقوانين وجودك الخاص حسب منطقك المعصوم من الخطأ، نسيت الحفل والاتفاق والأداء الرائع وهربت معها الليلة؟... قد يكون أفضل من انتظار الفجر. ربما عليك أن تدعهما لشأنهما. دع دوق بارما يرتدي رأس الحمار ويظل قلقاً للأبد على عزيزته فرانشيسكا، وذكرياتها عن عاشقها الأديب، وما قد يفعله معها هذا العاشق؟... ركز جياكومو يا أخي الصغير هل أنت بعقلين؟ هل تفكر في المكوث الآن؟ هل تظن أن الاتفاق يوجب عليك تنفيذ دورك؟ ألا يمكنك أن تهرب من عرض سيكون حتماً زائفاً وحزيناً بقدر ما هو خطير وغير طبيعي، قد ينتهي بدموع

حقيقية ودماء حقيقية تتقاطر من على خشبة المسرح وجثة حقيقية سيحملها عمال المسرح فيما بعد؟... لكنك تشعر بالإثارة بالفعل، الرعشة اللاإرادية: يفقد كل شيء آخر وضوحه. الرغبة تؤجج النار بداخلك. ألم تعد تلك الرغبة خاضعة للعقل؟ أتشعر أنك لا خيار آخر أمامك سوى أن تلعب الدور؟ هل كانت حسابات العجوز الغيور المغرور صحيحة حين خاطب الفنان بداخلك؟ حين لفت الانتباه لفنك على نحو جعلك متيقن من القبول حتى وإن كان معنى هذا وصول ليس فقط ذكرى الفنان بل الفنان نفسه لنهاية شائكة دبرها معالي دوق بارما؟ لكن لا، ليس لك أن تعصي، أن تحتج: تقبل حقيقة أن عليك أن تمكث وتُنهي عملك. ليس لك أن تتهرب من مسئوليات فنك: ظللت طوال حياتك محفوفا بالمخاطر، فلماذا تتوقف الآن؟ أنت بحاجة للخطر، أنت بحاجة للشعور بأنه في أي لحظة قد تنفتح الستائر المحيطة بفراشك ويغرز أحدهم سكيناً بين ضلوعك. أنت بحاجة للحذر من إمكانية الإبادة؛ أنت بحاجة لهذا الشيء المستحيل الذي يتوق إليه المواطن المحترم بيأس وانهزام ويحلم به وهو يغط في النوم بجوار زوجته، في حين تتسلل أنت إلى أحد الأقبية أوتتعارك فوق أحد الأسطح مع قتلة مأجورين. تعيش الحياة التي لا يجرؤ الشرفاء، الموتى، سوى على الحلم بها فقط. أنت تمثل التغيير والتحول: أنت النسخة الحية لحماً ودماً من ما يدعونه مغامرة أو فن. ماذا عساك تفعل غير هذا؟ ستلعب دورك، ستستخدم موهبتك. هكذا أُقرَّ الأمر وستمكث! لتبدأ العمل إذاً! صفق بكفيك ثلاث مرات وأجعلهم يجلبون لك ماءً في الآنية الفضية، اجعل بالبي يشحذ قرنَيْ استشعاره ويأتي لك بزي تنكري

لائق، ارسل في طلب جيسيبي ليدلّك لك وجهك بحمام بخار، وتحدث مع الصغيرة تيريزا قليلاً، اخبرها أن تجمع أشيائها في صرة وتلقاك خارج القرية فجراً. سآخذها إلى ميونيخ وأبيعها كزوجة لأمين سر أمير الجرمان. سأقوم بكل شيء كما ينبغي. ابتهج، ليس بوسعك فعل شيء آخر. لقد فكر دوق بارما في كل شيء. إنه يفهمني تماماً، وقد حسب كل شيء على نحو سليم، علم إنني سأمكث لأقدم عرض الضيف لليلة واحدة، أياً كان ما يتطلبه هذا العرض، حتى وإن كلّفني رقبتي في النهاية، حتى وإن انتهى الأمر بنسوة بولزانو الجميلات أن ينُحْنَ بمرثيات ثلاثية النغمات حول جثتي. نعم أيها العجوز الطماع البارع الحائر، حسبتها على نحو صحيح. يقينك الراسخ بأنه تكفي الثروة والقوة والدهاء وقليل من الحذر لإدراك حقيقة الأمور. لكن دعني أرسل لك برسالة الآن قبل أن أرتدي زيي التنكري وابدأ في تزيين وجهي واستدعي كل ملامح فني العتيقة من أجل العرض: اِحترس! لأنك أنت أيضاً يجب أن تأخذ حذرك. ماذا تظنني؟ أتظنني حقاً ساحر بإمكانه عمل تحفة فنية في لمح البصر: يالها من فكرة! يجب أن تأخذ حذرك، لأنني مجرد بشر، وكذلك هي. تنشد في يأسك أن نتحالف في عمل واحد من عبقرية لحظية. كيف لي أن أنجح في هذا؟ لم أعرف قط ما سيأتي به الصباح. ليس أنني نادم. لقد مضى نصف حياتي من دون أن أندم على شيء قط، ولم أشعر بالملل ولو للحظة: طُعنت، وشربت سموماً مدسوسة، ونمت تحت النجوم بلا فلس واحد في جيبي، وليس لي أحد يمكنني اعتباره صديقاً: لا أملك سوى صيتي، لكنني لم أندم على شيء بشأنه قط. لقد مضي من الحياة أفضل أجزائها

وليس لدي لا منزل ولا شقة، ولا قطعة أثاث واحدة باسمي، ولا ساعة يد، ولا حتى خاتم يمكنني ادعاء ملكيته حقاً. أطلب ملابس جديدة في كل مدينة أنزل بها ولا ألتزم بالمكوث في أيٍ منها، ومع ذلك أنت يا دوق بارما تغار مني. أنت الموثوق لكل شيء ولست بشيء سوى الأشياء الموثق بها ـ القصور، المولد، الاسم، اللقب، الأراضي، الأملاك، المشاعر والغيرة، أنت الذي، حين جاء وقت انتهاء حياتك «تقريباً» ـ كما لا تمل من القول، حقاً، تعاود قولها مراراً بأمل واهٍ كأنك إن ظللت تداعب الكلمة وكررت قولها بما يكفي سيمكنك استئخار ساعتك والهروب من موعدك الأخير مع الحقيقة– تجد نفسك في شبكة تناقضات بين ما تريده وما هو كائن؛ ألا تغار مني سراً في أعماق روحك لأن باستطاعتي التدثر بالسحب، والسفر بأشعة القمر، وعبور الحدود على الريح، حيث لا أحد هناك لوداعي، أنا، الرجل الذي لا غرفة له ولا أثاث، ولا شيء في أي مكان في العالم يمكنه ادعاء ملكيته حقاً... يكفي يا ولدي، استيقظ، جهّز نفسك. صح بنعقة عالية ولطيفة كعادتك. ثمة ريح باردة تنعق وتتطاير بتنانير سيدات بولزانو. أنت أيضاً يجب أن تكون كالريح، تنعق ضاحكاً! لم تنتهِ الحياة بعد، ليس لك صلة بـ«تقريباً». لست بحاجة لحيل سحرية لأنك الشيء الحقيقي! احترس أيها الدوق لأنني لم أعد خائفاً من الصباح. لتحملني الريح التي تعصف بالفعل بقلبي وفي ذهني إلى الأمام، ليكن هناك دموع ووعود، قبلات وموت، لينضغط كل شيء أو يبطئ سرعته، كما تريده الحياة، ليحدث كل شيء رغماً عن الصباح. سأخدمك جيداً الليلة عزيزي الدوق! لقد اشتريتني بكل حقيقتي الإعجازية صانعة العجائب،

سأكون كهؤلاء المصارعين القدامي الذين كانوا يعلمون أنهم قد يضطرون لدفع حياتهم ثمناً للعرض. لن اتمخّض عن نص ألّفته خصيصاً لأهمس به في أذنها، لا، سأفعل أفضل من هذا وأرتجل نصّاً حقيقياً! ألا تخشى أيها العجوز المتآمر أن يتحول الأمر إلى نجاح حقيقي. إن رسالتها مُلحّة نوعاً ما وقد تكون تعويذتها أكثر فاعلية من تخطيطك الحاذق لأيامك الباقية. هل تعتقد أنك ستحتفظ بالعطف والحنان اللذين تخيلت أنها ستمنحكهما حين تزوجتها؟ ألا تخشى ألا تخضع العواطف الإنسانية لحسابات دقيقة. إن لأعظم الفنانين أخطاءهم. ألا تخشى أن تتحول اللعبة إلى حقيقة، أن تصير القبلة رابطة حقيقية، أن تسيل قطرة دم فتصير مدّاً يطيح بحياتك نفسها؟... نعم، بيننا اتفاق. لذلك على كلٍ منّا الآن أن يحرص على تنفيذه: أنت برأس الحمار، في قصرك، بخطتك المحكمة وعينيك نصف المغمضتين، وأنا في زيّ تنكريّ كامل لن يتعرف علي أحد به سوى المرأة التي أرتديه لها! هل بالبي وتيريزا مستعدان للرحيل؟.... بالبي.... هيا بالبي!...

الآن اصغ جيداً! كم الوقت الآن؟ حوالي منتصف الليل. إنه وقت جيد، وقت أن يستكمل اليوم دائرته السحرية وتمسك الساحرات بمكانسهن. هل أنت ثمل؟ رائحة نفَسك بنكهة الثوم، وعيناك حولاويان بالتأكيد. لابد أنه نبيذ فيرونا ذاك. توقف عن الترنح للحظة واصغ إليّ! لدينا فرصة ذهبية بالبي! ثمة تحول رائع في الأحداث! قبّل يديك وجهاً وظهراً لأن دعواتك قد استجيبت. لقد انتهت إقامتنا في بولزانو وعلينا أن نغادر فجراً. أخبر صاحب الفندق أن يحضّر الفاتورة وجِد لنا بعض الجياد! إِحزم متاعك

وودع خادمات المطبخ وجميع من احتلت عليهن أيها العجوز رافع التنانير، يا لص الجياد... لا، من الناحية الأخرى، انتظر، الأفضل ألا تتفوه بشيء الآن، بإمكانك أن تكتب رسائل وداع غرامية وترسلها في الصباح من ميونيخ. أريدك أن تحزم امتعتك، إن كان لديك شيء من هذا، وتنتظر في غرفتك حتى الصباح. تأكد أن تكون الجياد من أفضل الأنواع وتحدّث قليلاً مع الحوذي أيضاً: أريدها عربة مغلقة ببطانيات فرو وزجاجات مياه ساخنة! تأكد أن الجميع جاهزون وأن كل شيء في مكانه! أخبرهم أن الصباح قد يغمرهم بحمام ذهب أو بالضرب المبرح، هذا يعتمد عليهم! لا أسئلة! اقفل فمك واستمع بانتباه شديد. أريدك حين أرسل لك أن تجمع أشياءك وتنطلق إلى العربة. اِجلس بجوار الحوذي! أنا لا أطلب منك هذا بالبي بل آمرك به! خذ أقصى حذرك إلى أن نبتعد عن قبضة البندقية لأن راحة يد القاضي الأكبر تتآكله كما يتآكلك قفاك. لا تتشكى! أتلك أخبار سيئة؟... ستكتشف على مبعدة حوالي مائة ميل من هنا، إن كنت أحسب الوقت جيداً. الآن اذهب في المدينة واعثر لي على زي تنكري! من أي نوع؟ زي لحفل تنكري أيها الأحمق، زيّ رائع وفريد من نوعه، من النوع الذي يجعل رؤوس الجميلات تستدير لدى دخولي قاعة الحفل لكن لا أحد يتعرف عليّ فيه... ما هذا؟ كل الأزياء في بولزانو بيعت الليلة؟ أيها الغبي، إن الزي والقناع اللذان أبحث عنهما ليسا كأزياء الحفلات التقليدية، ليس زي مهرج أو بهلوان، ولا أمير فارس مع وزيره، ولا رأس طاهٍ ولا غاسل أطباق، ولا فارس من الشرق ولا باشا بطربوش وسيف معقوف، ولا مهرّج قصر بأسمال وقبعة بأجراس وصولجان زائف.

هذا كله عفى عليه الزمن: ممل ومعتاد. لا بالبي، دعنا نجد شيئاً ما جديداً وأصيلاً لهذه الليلة. ماذا لو أرتديت ببساطة زي فارس كما يليق باسمي ومكانتي، محارب فرنسي وصل لتوه من قصر الملك لويس...؟ لا، لا أظن. صه، لا تقاطعني وأنا أفكر. انتظر! ماذا لو ذهبت ككاتب، عالم، فيلسوف، بنظارة بإطار أسود على أنفي، وقلنسوة جامعية على رأسي، وقميص أبيض بياقة عالية وعباءة سوداء؟ ليست فكرة سيئة، مؤلف... لا يعرف المؤلف إلا المؤلفون. ما رأيك؟ هل يوجد كتّاب آخرون في بولزانو؟ فكر في هذا ملياً يا بالبي. إن أخوية الكتّاب مجتمع سري، له شارة لا مرئية، أيها المخلوق غير المثقف، أتظن أن أمير فيندوم أو مدام مونتيسبان قد يسبقان المؤلفين في موكب الملك؟ إنه العكس، إن لافونتين وكورناي وحتى بوسويه أيضاً في الصف الأمامي، رغم كون كورناي أشعث قليلاً... أنت بالطبع لا تفهم شيئاً من هذا، وكيف لك أن تفهم؟ لا. زيّ المؤلف خطأ. علينا أن نجد شيء آخر. ماذا لو ذهبت كصياد، ببوق وخنجر وقوس، نمرود مطارِداً[1]، نمرود وديانا[2] في الغابة الأولى؟ لا الرمزية واضحة للغاية. أليس لديك أفكار؟ ألا تحب أن تسلّي خادمات المطبخ بقريحتك وأنفاسك

(1) نمرود بن كنعان من نسل نوح، شخصية ذكرت لأول لمرة في التوراة ومعروفة في ثقافات عديدة وكان أحد ملوك الدنيا الأربعة وهو أول من وضع التاج على رأسه وتجبر في الأرض وادعي الربوبية، وقيل أنه هو المقصود في القرآن بإنه الذي حاج إبراهيم في ربه، وذكره دانتي في الكوميديا الإلهية وصوره كعملاق في الجحيم.

(2) إلهة الصيد والقمر والولادة في الأساطير الرومانية مرتبطة بالبرية والوحوش.

الثومية؟... وجدتها يا بالبي! وجدت الفكرة! خادمات المطبخ! لا شيء أفضل من هذا! بسرعة، أرسل في طلب الصغيرة تيريزا! ودعهم يجلبون تنورة وبلوزة وجوارب بيضاء وغطاء وجه من القماش المخرّم، وبعض ملابس بندقية، شال وقلنسوة وقناع حريري أبيض.. فيمَ تحدّق هكذا؟ نعم الليلة سأرتدي زي امرأة! أخفِ تلك الابتسامة الغبية من على وجهك! إنه الزي التنكري المثالي. سأحتاج لمروحة وشيء ما أحشو به صدري، على الطراز النابوليتاني: ريش الوسادة سيكون جيداً. الآن اسرع! أيقظ الخدم! أريد هذه الغرفة مرتبة، افتح بعض النوافذ، عزز النار، اجلب لنا بعض النبيذ الحلو على المائدة، ودجاجة صغيرة باردة وبعض السلاطة المتبلة ولحماً مدخناً وجبنة أيضاً وخبزاً أبيض، أدوات المائدة من الفضة والخزف، من كل شيء أحسنه. يا صاحب الفندق! أين تختبئ أيها القواد العجوز يا سفاح السياح ومندوبي المبيعات الجوالين؟ تعال هنا وافعل ما آمرك به. أريد هذه النار متوهجة في الموقد، ملاءات نظيفة على الفراش، أحسن وأرق أكياس وسادات، أفضل لحاف لديك وانثر بعض العنبر على الجمر، ومقعدين بذراعين بجوار المدفأة، وطاولة أبنوس صغيرة عليها زهور، لا يهمني كلفة كل هذا.. أتسمعني؟ ورود حمراء، نعم، الآن، في نوفمبر، في الجليد! من أين؟ هذا شأنك. من مشتل الدوق، لا يهمني، لكني أريده الآن، الليلة! ليكن مع الدجاجة بيض مخلل. واللحم المدخن والجبنة في طبق واحد من الزجاج... انتظر! الخبز يجب أن يكون محمّصاً وفي شرائح رفيعة والزبدة على ثلج طازج! الآن إلى العمل. ليبدأ الحوذي بتدفئة العربة

بزجاجات المياه الساخنة، ويطعم الخيول بعض العلف، وقل له أن يبدأ جلي نحاس العربة إلى أن يلمع وأخبر الجميع أن يكونوا على أهبة الاستعداد عند الفجر في المطبخ لتحضير بعض الأطعمة الساخنة والبادرة للرحلة وبرميل نبيذ، من كل شيء أحسنه! مع هذا أريد المكان أثناء الليل هادئاً كالقبر، كقبرك الذي أؤكد لك أنني سأرسلك إليه إن لم تنفذ أوامري حالاً وبالحرف! لا يا صديقي، مازلت لا تعرفني: أنا مرعب حين أكون في مأزق! اِعلم رجاءً أن صِلاتي ونفوذي تفوقان البشر الفانين... لا حاجة بي لقول هذا بعد أن رأيت بنفسك نوعية من وقفوا خارج بابي الليلة وكل ليلة! أنت يا سفاح مندوبي المبيعات الجوالين ستحظي بمائة قطعة ذهبية إن قمت بكل شيء كما أشاء. قل لخدمك إنه مهما كانت السماء مكفهرة صباح الغد فستمطرهم ذهباً شريطة أن يقضي كل منهم الليل في موقعه، تحت الطلب! وقم بكل هذا بلا جلبة، هل تفهم؟ بصمت وفي الخفاء! أمازلت هنا؟ أغلق النافذة الآن، يكفي هذا الكَمّ من الهواء المنعش، انثر بعض ماء الورد على الفراش واسدل عليه الستائر، هل وصلت الزهور؟ من أين أتيت بها؟ من حجرة استقبال سيدة من بيرجامو، سنرسل لها غداً زهوراً أفضل منها، باقة أكثر عطراً، سلة زهور بكاملها، مائة، لا بل تسعة وتسعين، كلمحة رقيقة، لا تنسَ! نعم يمكنك أن تعدّ المائدة وتأتي بالطعام والنبيذ... أرني، دعني أتشمم الرائحة. لن أتذوقه لكنني سأذبحك إن شممت فيه أدنى رائحة تخزين، لن أتذوقه لأنني غسلت فمي لتوي. جيسيبي، حسنٌ، يسرني وصولك، ضع المنشفة على كتفيّ: أريد بعض الوهج الوردي على خديّ، نعم كلا الخدين، وقليل من شيء

ما أحمر للشفتين، وشامة حسن أسفل خدي الأيمن تماماً، بعض بودرة الأرز على باروكتي، ثم نربطها بالقلنسوة الصغيرة التي استعرناها من تيريزا. الوقت تجاوز منتصف الليل... انصرف الآن. انصرفوا جميعاً. لا أريد أن أري أحداً منكم حتى الفجر، لا تنصرفي أنتِ صغيرتي تيريزا، اِبقِي معي، اربطي لي التنورة حول خصري، ورباط الجوارب حول ركبتيّ، أعيريني الشال الحرير الذي أهديته لك بالأمس، وضعيه لي حول كتفيّ... هكذا، شكراً، هل أجلس جيداً وأنا أضع ساقاً فوق الأخرى، كما تجلس امرأة بمروحتها في يدها حين يقف أمامها سيد محترم؟ لا أفهم شيئاً في طريقة تحرك النساء، أهكذا تمسكين مروحة؟.. شكراً لكِ عزيزتي، أتجدينني جميلاً هكذا؟... أنفي ضخمة؟ سيغطيها القناع تيريزا. الآن تعالي هنا يا صغيرتي، اجلسي على ركبتي ولا تقلقي على طيات تنورتك. سأبتاع لك تنورة أجمل في ميونيخ، ثياب من المخمل والحرير، أثواب كثيرة من شتى الأنواع... مندهشة؟ لكن تلك كانت الفكرة من البداية، أنتِ لا تريدين أن تذبلي وتذوي هنا، يا قطرة المطر الصغيرة، في البار بين أذرع المسافرين السكارى. غداً عند الفجر، سآخذك معي، سنأخذ بالبي أيضاً لكننا سنحرص أن يفارقنا في مكان ما على الطريق. ليس هذا بأكثر مما يستحقه. نعم سننطلق إلى ميونيخ فجراً، ما إن يطلع الصبح. لماذا تبكين؟ اعطني قبلة كما فعلت كثيراً من قبل، بعينين مغمضتين وفم مفتوح، بلطف ونعومة. لماذا ترتعدين هكذا؟ اهدئي يا طفلتي وأعدّي نفسك للرحلة، لحياتك الرائعة الآتية. سيكون فيها ذهب وشقة جميلة في ميونيخ، وسيكون لديك مهر وعربة وخدماً ينزعون لك حذاءك وجوربك

ويساعدونك في ارتداء قميص نوم حريري. ألا تريدين هذا؟ هل أنت واثقة؟ هل تهزين رأسك نفياً؟ أليس لديك ما تقولينه؟ أتريدين المكوث هنا؟ أتريدنني أن أتركك هنا؟... مازلتِ صامتة؟ سأغادر في الصباح يا طفلتي. أما الليلة فسأحتفل بزيّي التنكري الصحيح كما يليق، لكننا سنطلق في طريقنا ما أن يطلع الفجر، وستكونين رفيقتي وخادمتي، لكنكِ فيما بعد ستضحين سيدة أيضاً، لفترة من الوقت على الأقل. هل تبتسمين الآن؟ اذهبي إلى غرفتك، صلّي، نامي، وأعدي نفسك للرحلة. انتظريني فجراً عند حافة البلدة حيث يتفرع الطريق للشمال والغرب، عند التقاطع الحجري. ثقي بي. أنت تعلمين جيداً أن بإمكانك أن تثقي بي. لكن ثمة شيئاً في ابتسامتك لم أره من قبل سوى مرة واحدة فقط، في فيرونا على ما أظن، شيء ما لا إرادي ومنحطّ، شيء ما رقيق وخطر في نفس الوقت... سأشرح لكِ فيما بعد. نظفي يديكِ واغسلي شعرك الليلة وادهنيه، واغسلي وجهك بالبابونج.. انتظري يجب أن تأخذي وردة كتذكار لتلك الليلة. اذهبي الآن وفكري في ما قلته لكِ.. اذهبي لأن علي أنا أيضاً أن أذهب. أحلام سعيدة يا طفلتي، غداً ستصبحين على حياة جديدة عند التقاطع الحجري في العربة، بين ذراعيّ، تحت حماية عباءتي... وداعً فتاتي العزيزة، وداعاً محبوبتي، إلى اللقاء غداً، بداية حياة جديدة، حياة سعيدة... هف.. هل ذهب الجميع؟.. لننطلق الآن. ضعي القناع سريعاً. إنه قناع لطيف، مألوف، من الطراز البندقي، حرير أبيض، ليغطي وجهي كما فعل دائماً في اللحظات العصيبة والخطيرة من حياتي. نظرة أخيرة في المرآة.. لقد انزلق غطاء الوجه قليلاً، لمسة أحمر شفاه أخرى،

نرسم الحاجبين، قليل من دخنة الشمعة، لمسة طفيفة تحت العينين... نعم.. رائع، سيغطيني المعطف الكبير وأنا أعبر الشارع. كيف هو سقوط الثلج! انتبه لصوتك جياكومو تحدث بمروحتك وعينيك فقط إن أمكن، كل شيء في موضعه، نعم، الدجاجة الباردة، الزبدة على ثلج طازج، النبيذ في دورق منقوش، والورود في الآنية الرخامية، وماء الورد على الوسادة وستائر الفراش مغلقة.. أظن أن هذا كل شيء. نعم. ربما قطعة خشب أخرى في النار... شيء ما مفقود.. لا أستطيع تذكره. ما هو، شيء يجب ألا أنساه... أهم من الورد والنبيذ والعنبر واللحم المدخن... أوه... تذكرت. الخنجر. تعال في حضني أيها الرفيق المخلص. في حمالة الصدر بين الريش: زيّ ممتاز. أنثى فقط من يمكنها إخفاء الخنجر في هذا الموضع، لابد أنه يمنحها الثقة، أن تضع الخنجر أسفل قلبك، إنها أفضل الطرق للانطلاق في علاقة!... لا أظن أنني نسيت شيئاً آخر. اذهب إذاً، انتظر... ما الأمر الآن؟ لماذا لا تذهب؟ أنت وحدك. انظر في المرآة. الزي ممتاز، الجميع وكل شيء في مكانه. لحظات أخرى قليلة وسيبدأ العرض حسب الاتفاق، حسب البنود التي ناقشتها مع دوق بارما. لماذا تتردد؟ لماذا يقرع قلبك طبلاً عالياً هكذا؟ ما هذا الشعور الذي يجمّدك ويقبض على قلبك ويجعلك متردداً، أتتردد هنا إذاً والخنجر في عبّك ووجهك مغطي بقناع وفي يدك مروحة... جياكومو ماذا يحدث لك؟ البهلوانات أيضاً يشعرون بدوار حين ينظرون إلى الجمهور من أعلى قمة الهرم البشري باحثين عن عينين مألوفتين في الحشد... ماذا يقلقك.. ماذا تحاول أن تتذكر؟ صه أيها القلب المضطرب، كف عن قرع الطبول. إنه الحب الذي تخافه،

نعم الحب. انت تخاف الشعور الذي يكبِّلك كما أدرك دوق بارما في تباريح عذابه وحرمانه، هو من يعرفك جيداً جدّاً: إنك تخاف هذا الشعور الذي يلقي بظلاله على دربك، الشعور الذي بقيت تتهرب منه منذ طفولتك. لا تخف أيها الأحمق المسكين. بإمكانك مغالبته. لا تخف. ما من شعور قد يتحكم بك تحكماً كاملاً أبداً: قد تغتم لبضعة أيام، لكنك بعد أسبوع أو أكثر قليلاً من الضيق، ستجد طريقك لمائدة لعب الورق أو لإمتاع الآخرين بالطريقة التي أحبوها دائماً، بأن تلعب دورك في الملهاة الإنسانية، تضحك عليهم ويضحكون عليك، تخدعهم ويخدعونك... وهكذا ستذوي الذكرى. لن يقتلك، لا خوف من هذا. بطلوع الصبح ستهرب سراً مع الخادمة كما فعلت من قبل، وكما ستفعل مجدداً في المستقبل بالتأكيد. لا حيلة لك في هذا. دعنا نعمل من دون انفعال أو خوف. هذه الدمعة التي ستسقط ستفسد زينة وجهك.. لكنني لست خائفاً من دمعة أو اثنتين. يجب أن أراك. يالها من رسالة جميلة. لا أظن أنني تسلمت رسالة غرام أجمل منها. نعم أنا وهذه المرأة مقدَّرٌ لنا أن نجتمع معاً على نحو ما، بطريقة أخرى مختلفة، بقوى مختلفة، ورغبة مختلفة. هي نفسها لا حيلة لها في هذا. انطلق في مهمتك إذاً أيها الكوميديان. قف منتصب الهامة، ارفع طرف العباءة على كتف، ارتدِ قناعك... ياله من صمت، لا يُسمع سوى عويل الريح. إلى الحفل، إلى الشئون الدنيوية، نحو قَدَرِك، كن حاسماً، رزيناً. من هناك؟...

عرض الضيف

انفتح الباب، تراقص لهب الشموع في تيار الهواء. وقف على العتبة شاب مقنّع في عباءة حفل، يرتدي سروالاً حريرياً قصيراً، وحذاء بأبازيم، وقبعة بثلاث زوايا، ويحمل سيفاً نحيلاً بقبضة ذهبية. انحنى وقال بصوت واضح وحاد وطفولي تقريباً كأنه يحمل برودة الجليد وحسن مزاجه.

ـ «إنه أنا، يا جياكومو».

أغلق الباب بحرص وخطا للأمام بعجرفة، أخرقاً قليلاً، كمن لم يتعود ارتداء ملابس الصبيان. انحنى بطريقة ذكورية وأعلن بصراحة شديدة:

ـ «انتظرتك بلا جدوى فجئت إليك».

ـ «لماذا جئتِ؟» سألها بصوت أجش قليلاً من وراء القناع وهو يخطو للأمام ويتعرقل في تنورته.

ـ «لماذا؟ لكنني أوضحت في رسالتي. لأنني يجب أن أراك». قالت بسرور وبلا أية تلميحات مميزة، كما لو كان السبب المنطقي

الوحيد. الإجابة الأكثر طبيعية التي يمكن لامرأة أن تجيب بها رجل. وحين لم يرد الرجل سألته بقلق:

ـ «ألم تصلك رسالتي؟»

ـ «وصلتني بالطبع»، أجاب الرجل. «سلمها لي زوجك دوق بارما هذا المساء».

ـ «أوه!» قالت ثم صمتت.

كانت «أوه» هذه بمثابة شكر هادئ وبسيط، كشدو طير. استندت بقامتها الصبيانية النحلية على رف المدفأة وداعبت بيدها سيفها، وحدق قناعها في الأرض بجهامة وخواء ثم تابعت بهدوء شديد:

ـ «أعلم. كنت انتظر الرد وأنا أعرف على نحو ما أن ثمة مشكلة ما في الرسالة. أنت تعرف أنني لم أكتب رسائل من قبل. لأقول لك الحق؛ إنها أول رسالة أكتبها في حياتي».

مال رأسها جانباً برشاقة. مُحرَجة قليلاً كمن أباحت بأشد أسرارها خصوصية. ثم بدأت تضحك من خلف القناع، لكنه ضحك عصبي.

ثم قالت مجدداً:

ـ «أوه! أنا حقاً آسفة لأنها وقعت في يده. كان يجب أن أتوقع هذا. هل تظن أن السائس الذي حملها لك لازال حياً؟ سأحزن جدّاً إن حدث شيء له، فمازال شاباً، وله طريقة حزينة وضعيفة في النظر لي وأنا في العربة، كذلك لديه أسرة كبيرة يعولها وحده. هل حملها

لك الدوق بنفسه؟.... ياللرجل المسكين.. بالتأكيد لم يكن سهلاً عليه. إنه فخور جدّاً ووحيد جدّاً، يمكنني أن أتخيل شعوره وهو في طريقه ليسلّمك الرسالة التي قلت فيها إنني يجب أن أراك. هل هددك؟ هل عرض عليك مالاً؟ أخبرني بما حدث يا غرامي».

نطقت الكلمات الأخيرة بصوت عال وألفاظ واضحة وواثقة كأنها تنطق مفهوماً مهماً أو موضوع رسمي. كان القناع يحدّق بثبات في النار الآن، شاحب كالموت. أجابها:

ـ «هدَّدني وعرض عليّ مالا، رغم أن ذلك لم يكن غرضه الأساسي من الزيارة، جاء في المقام الأول ليسلمني الرسالة ويحلل مضمونها بالتفصيل الدقيق. ثم أبرمنا اتفاقاً».

ـ «بالطبع»، قالت بتنهدة سريعة. «وما هذا الاتفاق يا غرامي؟»

ـ «أمر معاليه بأن أهب لكِ فني لليلة واحدة فقط. أن أجعل هذه الليلة تحفة فنية في الإغواء. وعرض عليّ المال والحرية وخطاب يحميني على الطريق ويحملني عبر الحدود. قال لي إنك مريضة فرانشيسكا، مريضة بالحب، وطلب مني أن أشفيك. قال لي إنه يهدينا هذه الليلة التي يجب أن تكون قصيرة وطويلة كالحياة، طويلة بما يكفي لأقوم بالمستحيل على نحو يجعلنا نشهد في ليلة واحدة نشوات الحب وخيباته، وأن أتركك في الصباح وأرحل لأقصي وأبعد مكان في العالم، إلى حيث يحملني القدر، وأن عليكِ أنتِ أن تعودي إلى القصر مرفوعة الرأس حيث تُبهجين وتُدفئين أيامه المتبقية. هذا ما قاله. وشرح معاني رسالتك. أعتقد أنه يفهمها حقاً فرانشيسكا، يفهم كل كلمة فيها. لم يرفع صوته بل تحدث بهدوء

ورويّة. وطلب مني أيضاً أن أكون حنوناً معكِ، لكن أجرحكِ بما يكفي لضمان انتهاء كل شيء بيننا بطلوع الصبح، لنتمكن من وضع نقطة وقف لجملتنا... تلك كانت أوامره».

ـ «طلب منك أن تجرحني؟»

ـ «نعم، لكنه وهو يغادر طلب مني ألا أجرحك بشدة».

ـ «نعم، إنه يحبني»

أنا أظنّ هذا أيضاً، إنه يحبك، لكن الأمر سهل عليه فرانشيسكا حبيبتي، إنه يحب، هذا سهل، خاصة الآن وقد نفد وقته، أو بالأحرى، «تقريباً» ينفد، إذ يبدو أنها كلمة مهمة جدّاً بالنسبه له لسبب ما، إن كنت قد فهمته على نحو صحيح، من السهل أن تحب حين تكون حياتك عند نهايتها تقريباً».

ـ «يا عزيزي»، قالت برقة وتعاطف شديدين، كشخص بالغ يحدث طفلاً، وبدا قناعها خلال اللحظة التي نطقت فيها شفتاها اللامرئيتان بالكلمات كأنه يبتسم تقريباً. «الحب ليس سهلا أبداً».

ـ «لا»، أصر الرجل بعناد. «لكنه أسهل عليه».

ـ «ثم؟» تساءل القناع الآخر. «هل توصلتما إلى اتفاق؟»

ـ «نعم».

ـ «وماذا كانت شروطه جياكومو؟»

ـ «أن أوافق على مطلبه الذي عبرتِ عنه أنتِ في رسالتك. أن نلتقي الليلة. أن يعانق أحدنا الآخر، لأن بيننا رابطة سرية فرانشيسكا،

لأن الحب لمسنا نحن الاثنين. إنها هبة عظيمة وحزن هائل. هبة عظيمة لأنني أحبك حقاً، بطريقتي، ولأنني أرى الحب فناً، لكنه أيضاً حزن هائل لأن حبي ليس سهلاً أو سعيداً أبداً، لن ينمو له جناحان ويحلق كالحمام أبداً... لأن حبنا من نوع مختلف عن حبه. لهذا اتفقنا أن «نتعارف» أنا وانتِ بالمعنى الإنجيلي للكلمة، وحينها سأنتهي بالنسبة لك، وتشفين وتبرئين من الوهم، ولن نرى أحدنا الآخر ثانيةً أبداً بعد هذا الصباح. على ألا أكون الطيف الهائم حول فراشك وألا ألازم أفكارك حين يميل دوق بارما علي رأسك وأنتِ في الفراش؛ أن أكون ذكرى عابرة لفترة فقط ثم أنتهي تماماً: أن أكون بالنسبة لكِ لا أحد ولا شيء. هذا ما اتفقنا عليه، هذا ما يجب عليّ أن أفعله الليلة، بالكلمات والقبلات والدموع والوعود، بكل حيلة لي في صنعتي وحسب قواعد فني». سكت وانتظر الإجابة بلباقة وفضول.

ـ «لتبدأ إذاً جياكومو» قالت بهدوء وروية وهي ترفع رأسها عالياً ليحدّق قناعها بلامبالاة في الفراغ. «اِبدأ» كررت قولها، «ماذا تنتظر يا صديقي؟ الآن هي اللحظة. ابدأ. أترى، لقد جئت إليك، فلا حاجة بك للخروج في العاصفة، لأنه كما يجب أن تكون لاحظت، لقد هبت عاصفة في منتصف الليل، رياح شمالية بموجات جليد تصرخ وتشيّد أبراجاً جليدية بطول الشوارع. لكن الجو هادئ هنا، ودافئ ومعطّر. أراهم جهزوا الفراش. ماء ورد وعنبر. والمائدة معدة لاثنين، بحرص، بأفضل ذوق، كما تملي الأصول. لكن الوقت تجاوز منتصف الليل وحان وقت العشاء. لنبدأ إذاً جياكومو».

جلست إلى المائدة المعدة بعناية، خلعت قفازيها، ونفخت في أطراف أصابعها وفركت يديها العاريتين، جلستها توحي بالتوقع والخلق الحسن والأناقة إذ تكتشف أصناف الأطعمة، كأنها تنتظر وصول النادل لتبدأ في تناول الطعام.

ـ «كيف ستبدأ؟» سألته. وإذ لم تتلقَّ رداً من الرجل الذي لم يحرك ساكناً، تابعت سائلة: «كيف يمكن لرجل أن يُغوي أمرأة جاءته بمحض إرادتها لأنها تحبه، ثم يحررها من الوهم؟ لديّ فضول شديد جياكومو! ماذا ستفعل؟ هل ستستخدم القوة، المكر، أم الأدب؟ إنه، رغم كل شيء، عمل فني مميز هذا الذي أخذته على عاتقك. وبالتأكيد سيكون صعباً. لأنه كما تري لسنا هنا وحدنا، فمعنا بركاته وعينه الراعية، لهذا فالأمر تقريباً كما لو أن ثلاثتنا في الغرفة، وسيظل كذلك. إنه يعرف بطبيعة الحال إنك ستخبرني بكل شيء فوراً، أو تقريباً كل شيء: إنه لا يظنك قادراً على الأسلوب الخشن، أن تكذب عليّ وتحفظ سر زيارته ولا تكشف شروط اتفاقكما. لم يكن بوسعه أن يتخيل، ولو للحظة، أن الأحداث ستسير بطريقة غير التي سارت بها بالفعل. كان يعرف جيداً أنك ستبدأ باعتراف، وإلى أين نذهب من هنا نحن الاثنان؟ أو نحن الثلاثة؟ لكنني أنا نفسي لا أعرف بعد. بعد كل ما أخبرتني به أجد لدي فضولاً قوياً. لتبدأ إذاً».

ظل القناعان صامتين لفترة. ثم بدأ قناع الشاب يتحدث، بصوت صبياني صغير في البداية، ثم زاد أنوثة ببطء، إذ يبث فيه الموضوع حرارته، كأن كل الدهشة والقسوة تسقط منه.

ـ «لعلني أبدأ أنا إذاً، بما أنني أنا أيضاً هنا، وإن كان ذلك رغماً عنه وعنك أنت أيضاً، بمحض إرادتي، بغض النظر عن القناع وزي الرجال، بمعني آخر في زي اللهو واللعب، ورغم كل شيء تنكّرنا يساعدنا. ابدأ رجاءً وحقق المعجزة. لابد أن يكون عملاً مذهلاً. هذا إذاً ما قلتماه أحدكما للآخر، الرجل الذي أُحبه والرجل الذي يحبني؟... كأنني إذا أطيع أوامره بوجودي هنا. وهكذا فأياً كان ما سيؤول إليه الأمر عقب تلك الليلة فسيكون حسب أوامره. تماماً مثلما علينا نحن الاثنين، أنت وأنا، حسب أوامره، أن «نتعارف» ويجرح أحدنا الآخر؟ ياللروعة»، قالت بصوت لامبالٍ. «وهذا هو كل ما استطاع التفكير فيه: هذا هو كل ما اتفقتما عليه؟ ألم يكن بوسعكما ابتكار شيء ما أوسع أفقاً، أكثر مكراً؟ رجلان مفكران بارزان مثلكما؟ حمل إليك رسالتي وفسّرها وشرحها لك؟ لكن جياكومو حبيبي قد لا يكون تفسيره وافياً. لأنني حين كتبت تلك الكلمات على الورق، أول كلمات لها منطق متصل أكتبها في حياتي كلها، وقد فعلت هذا كله بنفسي، تملّكني الذعر فجأة من كم ما قد تقوله الكلمات حين يختارها المرء على مسئوليته ويصل الحروف ببعضها بحرص... ثلاث كلمات فقط، أترى، وإذا به في طريقه من القصر، كمرسال، يصعد هذا السلم الوعر، وأنت تقف هنا في زي امرأة... ثلاث كلمات، بضع قطرات من الحبر على الورق، وهذا الكم من الأحداث كنتيجة لها! كل تلك الأحداث تجري نتيجة كلمات قليلة كتبتها! نعم، أنا أيضاً تعجبت وسَرَت في جسدي رعشة. ومع ذلك أظن أنه لم يفهم الرسالة بشكل كامل كما يظن. أتقول إنه شرحها؟ لا. دعني أشرحها أنا جياكومو! دعني

أفسّرها حتى ولو بمهارة أدبية أقل مما لديكما. هل تظنني من هؤلاء النسوة اللائي يتركن بيوتهن في منتصف الليل من أجل نزوة أو رغبة بحثاً عن رجل هرب لتوّه من السجن، رجل سيء السمعة إلى حد أن ترسم الأمهات والنسوة العجائز الصليب على أنفسهن حين يذكر اسمه أمامهن؟ هل تعرفني قليلاً هكذا؟ ودوق بارما، الذي أشاركه فراشه، هل معرفته بي ضحلة لهذا الحد... هل تتخيل أنني أردت تعلم الكتابة لأنني أشعر بالضجر وأرغب في تسلية نفسي بإرسال رسائل لعوب، وعقد مواعيد غرامية ليلية معك؟... هل ألزمت نفسك باتفاق يجعلني آتي إليك من أجل ليلة رومانسية كما خططتما، أنتما الرجلان الحكيمان، من أجل ليلة ماجنة واحدة بين خطوتي رقص على الأرض؟ هل ظننتني سأهرع من بيتي، مقنّعة، وأذهب إلى غرفة رجل غريب ثم أعود أدراجي سريعاً إلى قاعة الحفل بالقصر قبل أن تنتهي الرقصة لألتحق بالراقضين الآخرين؟... هل تظنني بمراسلتك أرغب في ليلة طفولية ما لأتذكرها، هل تظن أن قصدي حين آتي إليك، وحين أفكر فيك، وحين أدفئ ذكراك بأنفاسي، وحين أعدّ الأيام التي قضيتها في سجنك، أن أتسلل إليك خلسة لليلة واحدة فقط، لموعد غرامي سري، لأنك هنا على سبيل المصادفة، ماراً بالمدينة التي أعيش فيها مع زوجي، أو لأنني عرفتك ذات مرة وأنا صغيرة وكان بيننا بعض المشاعر الرومانسية؟... هل هذه هي قمة حكمة دوق بارما العظيم وجياكومو العالم بكل شيء والخبير بقلوب النساء؟... هل تظنني مجرد طفلة بسيطة تطارد ظلال الماضي، حين كتبت أخيراً الكلمات التي تخبرك، ونعم، تخبر الدوق والعالم بأسره، أنني يجب

أن أراك؟ لعلني لست بتلك البساطة والطفولة جياكومو يا غرامي. لعلني أنا من وجّهت خطوات السائس ليقع في قبضة الدوق؟ لعلني أنا أيضاً عقدت اتفاقاً الليلة، مع نفسي وقدَري الخاص، إن لم يكن مع شخص آخر، ولعل هذا الاتفاق صارماً كالتابوت حتى وإن لم يكن مختوماً وحتى وإن خلا من الوعود. لعلني أعرف بشكل أفضل مما يعرفه دوق بارما لماذا كان عليّ أن أصعد هذا السلم. ما رأيك يا غرامي؟ لماذا في رأيك كتبت الرسالة؟ لماذا أرسلت السائس في مهمة سرية؟ لماذا انتظرتك؟ لماذا ارتديت ملابس الرجال؟ لماذا تسللت خارجة من قصري؟ لماذا أقف في هذه الغرفة؟ عليك أن تجيب لأنك أنت من عقدت الاتفاق».

أجاب القناع الآخر بصوت منصاع وصريح:

ـ «لماذا فرانشيسكا؟»

ـ «لأنني لست هدفاً للإغواء يا غرامي، لست مادة لتحفة فنية، لست موضوع اتفاق عاقل. لست حبيبة القلب التي تهرع لحضن حبيبها في منتصف الليل. لست أوزّة سخيفة تنتظر رجل عبثاً وتلاحق ظلال السعادة وأوهامها. لست المرأة الشابة زوجة الرجل العجوز التي تحلم بشفاه أكثر حرارة وذراعين أكثرة فتوة، وتنطلق تحت الثلج المتساقط بحثاً عن فرصة أو تعويض. لستُ سيدة مرفّهة ضجرة لا تستطيع مقاومة سمعتك جاءت تلقي بنفسها بين ذراعيك، ولا العروس القروية الطيبة التي لا تحب مظهر عريسها الذي خطبها منذ الطفولة. لست بعاهرة ولا أوزّة جياكومو».

ـ «ماذا أنتِ فرانشيسكا؟» سألها الرجل بصوت بدا غريباً من

وراء القناع، كأنه يخاطب الآخر من على مسافة بعيدة. أجابت المرأة تكسر الصمت الذي يملأ تلك المسافة الهائلة:

ـ «أنا الحياة يا غرامي».

اقترب من النار بحذر لئلا تمسك بأطراف تنورته وألقي بقطعتي خشب جديدتين فيها. ثم استدار وهو يمسك بالخشب، وسأل وهو مازال منحنياً:

ـ «وما الحياة فرانشيسكا؟»

ـ «ليست الهروب أثناء العاصفة بالتأكيد»، أجابت من دون أن ترفع صوتها. «كذلك ليست حمّى وحنق ولا كلمات طنانة، ولا حتى الموقف الذي نجد أنفسنا فيه الآن أنت بزي امرأة وأنا بزي رجل وكل منا بقناعه في غرفة في فندق كشخصيتين في أوبرا. لا شيء من هذا. الحياة! سأخبرك ما الحياة؛ لأنني فكرت في هذا كثيراً، لأنك جياكومو لست وحدك من أودعتك أيد قوية وغيورة في السجن، أنا أيضاً سُجِنت بقدر ما سُجِنت أنت، حتى ولو لم يكن فراشي من قش. الحياة يا عزيزي كلٌ كامل. الحياة هي حين يجتمع رجل وامرأة لأنهما يجب أن يكونا معاً، لأن ما يجمعهما هو ما يجمع المطر والبحر، دائماً وأبداً، يرتفع أحدهما من الآخر ويسقط فيه، يخلق أحدهما الآخر، أحدهما شرط وجود الآخر. من هذا الكل ينبع شيء ما، انسجام ما، والانسجام حياة. هذا الأمر نادر جدّاً بين البشر. أنت تهرب من البشر لأنك تظن أن لديك شأناً ما آخر مع العالم، أنا أطلب الكمال لأن ليس لديّ شأن آخر مع العالم. لهذا جئت. كما قلت من قبل، استغرقني الأمر طويلاً قبل

أن أتيقّن من هذا. الآن أنا أعرف. أعرف أيضاً أنك لن تصنع شيئاً كاملاً في هذا العالم بدوني، أنك ليس بوسعك حتى ممارسة فنك، كما تسمّيه، من دوني، لأن بدوني يصير الإغواء الحقيقي الكامل بعيداً عن منالك، المطاردة بإثارتها ورعشتها تتطلب وجودي، حتى السحر الذي تفتن به النساء الأخريات ليس كاملاً بدوني. لماذا تقف هناك متصلباً هكذا جياكومو، بعصا ومنفاخ النار في يديك؟ كأن أحدهم طرحك أرضاً وأنت تحاول النهوض مرة أخرى سريعاً. هل أدركت شيئاً؟ أنا الحياة يا غرامي. المرأة الوحيدة التي تمنحك حياة كاملة. أنت بدوني لست بكاملك، لست كاملاً كرجل، أو كفنان، أو كمقامر، أو كمسافر، تماماً مثلما أنا لست كاملة بدونك كامرأة، لست سوى ظل بين الظلال. هل تفهم الآن؟ لأنني فهمت. لو كنت كاملة لم أكن لأترك دوق بارما الذي يحبني ويأتي لي بكل شيء في العالم: قوة وأبهة وأفق ومعنى. ولسن بخائنة ثقة أحد. وليس بشيء لا ينبغي قوله، حين أقول إنه هو من عرّفني على الوجوه الحزينة الكئيبة للحب والرغبة، لأن للحب آلاف الوجوه، ودوق بارما يرتدي أحدها. إنه في قصره الآن مرتدياً رأس حمار لأن حبنا جرحه والحزن أعياه وأدماه. لكنه يعلم أن ليس أمامه خيار آخر، لهذا يتسامح في وجودي هنا معك في تلك الساعة المتأخرة، ويرتدي رأس الحمار بفخر شديد. لكن المعرفة لا تُعينه، ولا الزي الخيالي، ولا الاتفاق: لا شيء يُعينه. لقد عاش بالعنف وسيموت بالخيلاء. لا شيء بيدي لأفعله له. لكنني لم أكن لأتركه أبداً لولاك أنت، لأنني أنا أيضاً بيني وبينه اتفاق. وقد تربيت على الوفاء باتفاقاتي، أنا توسكانية جياكومو» قال القناع والقامة التي ترتديه تنتصب قليلاً.

ـ «أعلم هذا عزيزتي» قال الرجل وهو يمسك بيده عصا النار بصوت كأنه يبتسم. «أنتِ ثاني شخص يكرر هذا القول في هذه الغرفة اليوم».

ـ «حقاً؟» سألت فرانشيسكا وهي تطيل الكلمة بنبرة موسيقية تقريباً، كتلميذة نجيبة مبهورة. ثم أضافت: «حسناً، نعم لقد أتاك زائرون كثُر مؤخراً، لكن طالما كان هذا حالك، وسيظل هكذا دائماً، ستظل دائماً محاطاً بالبشر، رجال ونساء. سأعتاد هذا مع الوقت يا عزيزي، لن يكون سهلاً لكنني سأعتاده».

ـ «متى فرانشيسكا سألها الرجل، «متى تريدين أن تعتاديه؟ الليلة؟ لن أستقبل زائرين آخرين الليلة».

ـ «الليلة؟» سألته بالصوت الهادئ الطفولي نفسه كما من قبل. «لا فيما بعد، لما تبقّى من حياتي».

ـ «في الحياة التي سنقضيها معاً؟»

ـ «لربما يا غرامي. أليس هذا تصورك عن الأمر؟»

ـ «لا أعرف فرانشيسكا» قال الرجل وجلس مقابلها، أسند ظهره على المقعد وعقد ساقيه أسفل تنورته وذراعيه على صدره الزائف. «هذا يخرق الاتفاق».

ـ «إنه اتفاق شفهي». أجابت المرأة بهدوء، «لكن الاتفاق الآخر الذي بيننا ليس شفهياً وضمنياً. ستكون محاطاً دوماً بالبشر، رجال ونساء، وهذا من وجهة نظري ـ وهذا لن يدهشك ـ ليس شيئاً مرحباً به أو يدعو للسرور، ومع ذلك سأتحمله»، قالت بإعياء قليل وتنهيدة قصيرة.

ـ «ومتى». سأل الرجل بمنتهى الاحترام والتأكيد والتطمين، كأنه يخاطب طفلاً أو مجنونا لا تصحّ معارضته، «متى تظنين فرانشيسكا أننا سنبدأ هذه الحياة؟..».

ـ «لكننا بدأناها بالفعل يا غرامي»، أجابت بإشراق. «بدأناها لحظة أن كتبت الرسالة وحملها إليك دوق بارما، في اللحظة التي ارتديت فيها ملابس الرجال هذه. والآن تتحدث معي كما يتحدثون مع الأطفال أو الممسوسين. لكنني لا هذا ولا ذاك يا غرامي. أنا امرأة، بمعزل عن ملابس الرجال والقناع، أنا امرأة على يقين من أنها تعرف وتتصرف على هذا الأساس. أتلوذ بالصمت؟... صمتك ينم عن رغبتك في معرفة ما أعرفه بهذا اليقين، هذا اليقين الجنوني السخيف المميت. ما أقصده أنه مهما زاد عدد البشر الذين يحيطون بك ـ رجال ونساء، والأغلب نساء ـ ومهما سيجرحني هذا على الأرجح، لكننا ينتمي أحدنا للآخر. إن حياتي مرتبطة بحياتك جياكومو مثلما حياتك مرتبطة بحياتي. هذا ما أعرفه وما يعرفه دوق بارما بقدر ما أعرفه، لهذا حمل لك الرسالة ولهذا هو الآن في قصره مرتدياً رأس حمار ومتسامحاً مع وجودي هنا. لهذا أسرع يعقد معك اتفاقاً، ولهذا أسرعت أنت أيضاً جياكومو تعقد معه اتفاق، لأن الاتفاق ينقذك مني، لأنك تخافني كما يخاف الرجل الحياة، الحياة بكاملها، الحياة التي ترقد في انتظاره. والجميع يخافون هذا قليلاً. أما أنا فلم أعد خائفة»، أعلنت بصوت عال.

ـ «وما نوع الحياة التي سنحياها؟..». سألها.

ـ «لن تكون سعيدة ولا كئيبة. لن تكون حياة محظوظة. ثمة

أناس على درجة من الكمال تجعلهم يسمعون لحظات الاسترخاء والانسجام ويصلون للاكتمال. أنت لست من هؤلاء. أعلم أنني سأبقى وحيدة بقدر لا بأس به، وأنني سأبدو لبقية العالم وحيدة، لأنك ستتركني مراراً. لن أكون سعيدة بالمعنى المليء بالأحضان والقُبل الذي يعنيه الآخرون ويرغبون فيه، لكن سيكون لحياتي معني وجوهر، لعله سيكون جوهراً ثقيلاً ومؤلماً. أنا أعرف كل شيء جياكومو، لأني أحبك. لديَّ قوة مصارع، لأني أحبك. سأكون بحكمة البابا لأنني أحبك. سأكون أديبة ومقامرة ماهرة من أجلك، لقد تعلمت حتى الآن تمييز الملك والواحد من دون مساعدة من أحد. لدي حُزم من أوراق اللعب والشمع جلبوها لي خصيصاً من نابولي. يجب أن نلعب معاً، أنا وأنت، قبل أن تخرج لحمل حثالة وأنقاض العالم، وسأنتظرك في البيت إلى أن تحتال عليهم وتعود في الصباح، أو ربما حتى بعد ثلاثة أيام من خروجك. ويجب أن ننفق هذا المال، أن نعيده للعالم، لأننا لا نريد ثروة، لأنك لا تدخر مالا ابداً، لأن هذه طبيعتك. سأكون أجمل امرأة في باريس جياكومو وسترى الوليمة التي سأعدها لمأمور الشرطة حين أتناول معه العشاء وحدنا: ولن يضيرك شيء، لأنني سأمنحك أماناً أعظم مما سيمنحك إياه خطاب التوصية من دوق بارما. كل لمعة في عيني، كل نفس في صدري سيكون هناك لحمايتك، لئلا يمسك أي ضرر. وإن أصابتك امرأة خبيثة بالسفلس، سأسهر على تمريضك، وسأدهن لك أعضاءك بالبلاسم وأعد لك حساء الأعشاب طوال فترة النقاهة. سأكون مراوغة كجواسيس محاكم التفتيش، سأنام مع الدوج (القاضي الأول) وأتوسط لك لديه ليسمح لك بالعودة

لوطنك، لترى نونا وسنيور براجادين مرة أخرى، ولترى، إن شئت، الراهبة الجميلة التي استأجرت لها قصرا في مورانو. سأتعلم الطبخ برقّة يا غرامي، لقد تعلمته بالفعل، وأعلم أنك لا تأكل أطعمة حارة لأنها تجعل أنفك ينزف، بإمكاني إعداد حساء لمعالجة صداعك، وسأذهب للمرأة التي غمزت لك وعبثت معك وأقوم بدور القوادة لأضمن لك قضاء ليلة حرة مع جوليا الشهيرة التي دفع لها دوق نورفولك مائة ألف قطعة ذهبية، والتي تعاملت معك بقسوة في الكرنفال الأخير بالبندقية. لقد تعلمت النسج، والغسيل، والكي، لأننا سنقضي فترات من حياتنا مفلسين، حين سيلاحقنا وكلاء المرابين وسنضطر للمكوث في فندق أسوأ من فندق الستاج. لكنني سأحرص دائماً أن تكون قمصانك نظيفة ومكوية بكشكشات تليق للظهور بها يا غرامي، حتى وإن لم يكن لدينا ما نأكله سوى سمكات جافة مقلية منذ أربعة أيام. سأكون جميلة للغاية جياكومو حتى أن الجميع في أوبرا لندن سيلتفتون إليّ أنا حين يكون معنا مالاً وفيراً وتغرقني بالمخمل والحرير والجواهر ونذهب إلى هناك، وليس للعرض، وستجلس إلى جانبي، بارداً ولامبالياً ونحن ننظر من أعلى الجمهور، لأنني لن أنظر لأحد سواك في هذه المناسبات وسيعلم الجميع أن امرأتك أجمل النساء. وسيروقك هذا لأنك مغرور إلى حد غير عادي، وسيعلم الجميع أن نصرك اكتمل، أنني أنا دوقة بارما التي تركت زوجها بكل قصوره لتعيش معك، أنني ألقيت بمجوهراتي وأملاكي لأشاركك فراشك، أنني من أرافقك على طرق العالم وأنام معك في زرائب مكشوفة رطبة وقذرة، ولن ألقي نظرة طويلة على رجل قط إلا أذا طلبت مني. لأنك جياكومو

لك أن تفعل بي أي شيء، بإمكانك أن تبيعني لابن العم «لويس» وحريمه بـالفرساي، يمكنك أن تبيعني بالمال وتعلم أنه حين يذوب الرجال الآخرون في أحضاني كما يذوب الرصاص في النار، سأبقى لك وحدك. بإمكانك أن تمنعني من مجرد لمح رجال آخرين، أن تشوّه خلقي، أن تحلق شعر رأسي، أن تختم صدري بعصا ساخنة، أن تنقل لي السفلس وتفسد جلدي، لكن يبقى كل هذا آخر ما يقلقني، لأنك سرعان ما سترى أنني سأظل جميلة من أجلك، لأنني سأجد أدوية، أشربة، سينمو جلدي وشعري ثانيةّ لأبدو جذابة في عينيك إن رغبت فيّ مجدداً في وقت ما لاحق. أريدك أن تعرف أن كل هذا ممكن لأنني أحبك. سأكون أكثر النساء تواضعاً يا غرامي، إن كان هذا ما تريده. سأعيش وحدى في شقتنا: يمكنك أن تسد النوافذ بالطوب إن شئت. سأخرج للعامة حتى، فقط بعد إذنك، وبرفقة خدمك. سأقضي اليوم بكامله في الحجرات التي وضعتها كحدود لسجني، أهتم بنفسي وأتزيّن في انتظار مجيئك. لن يكون لي وصيفات سوى نساء تختارهن أنت، نساء مكفوفات وغبيات، إن شئت. لكنني سأكون لعوباً ولئيمة إن أردت أن يرغب الرجال الآخرون فيّ لتحمية رغبتك أنت الخاصة. إن أردت إذلالي جياكومو يجب أن تعلم أنني لا أخشى أي إذلال من أجلك، لأنني أحبك. إن شعرت أنك تريد أن تعذبني، بوسعك تقييدي إلى الطاولة وجلدي بالسياط الشائكة فأصرخ وينزف دمي بينما أفكر طوال الوقت في طرق تعذيب جديدة لتجلب لك متعة أكبر وأصدَق. إن أردتني أن آمرك سأكون جبارة بلا قلب، كنساء قرأت عنهنّ من قبل، في الكتب التي أحضرها دوق بارما حين عاد من «أمستردام».

أنا أعلم تلك الأسرار العادية جياكومو، لا توجد امرأة أخرى في مواخير البندقية تعرف أكثر مني في الحنان والتعذيب وأشواق الجسد والروح، وجرعات الحب، والملابس الصغيرة، والإنارة، والعطور، والمداعبات والتمنّع. إن أردتني سوقية، أنا أعرف تلك الكلمات الإيطالية والفرنسية والألمانية والإنجليزية التي تجعلني أحمر خجلاً أحياناً حين أكون وحدي وأفكر فيها: تعلمت تلك الكلمات من أجلك، ولن أهمس بها سوى لك، إن شئت. لا توجد امرأة في حريم الشرق يا غرامي تعرف أفضل مني في متع الجسد. لقد درست الجسد وعرفت كل رغباته، حتى أشدها سرية التي لا يفكر فيها الرجال إلا على فراش الموت، حين يكون كل شيء سيان بالنسبة لهم ورائحة الكبريت تحوم حولهم. تعلمت كل هذا لأنني أحبك. هل يكفي هذا؟..».

ـ «لا يكفي»، أجاب الرجل.

ـ «لا يكفي؟» كررت. «حسناً، بالطبع لا يكفي. أردتك فقط أن تعرف. لكن لا تظن أنني تمنيت للحظة أن يكون كافياً. أن يكون هذا هو كل شيء. تلك ليست سوى وسائل يا غرامي. أنا أعلم جيداً معنى السوداوية. فقط أردت أن أبيّنها وأعدّدها لأنني أريدك أن تعرف أنني لن أتردد في منحك أي شيء قد تريده مني. معك حق، هذا ليس كافياً. لأن للحب جبهتين، معتركين، حيث تدور دائماً وأبداً لعبة الأخذ بيد والمنح بأخرى: الفراش والعالم. وعلينا أن نعيش في العالم أيضاً. ليس كافياً أن أحاول إشباع جميع رغباتك ومسايرة أهوائك. لا، عليّ أن أكتشف ما يسعدك وأقدمه. عليّ أن

أعرف ما ترغب فيه ولا تستطيع البوح به، ولو حتى لنفسك، ولا حتى على فراش موتك حين يمسي كل شيء سيان بالنسبة لك: عليّ أن أعرفك وأخبرك لتعرف، لترى أين الخير وتسعد في النهاية. ولأنك يا غرامي أتعس الرجال وليس بوسعي تحمل تعاستك، عليّ أن أسمّي لك ما ترغب فيه... مع أن هذا ليس كافياً أيضاً، هذا قليل جدّاً، مبتدئ جدّاً، وسيكون خيبة منّي لأنني أنا أيضاً، بلاشك، لي فنّي، حتى وإن لم يكن رفيعاً ومعقداً كفنك. أتعرف ما هو فنّي؟ ليس أكثر من حبّي لك. لهذا عليّ أن أكون حكيمة وقوية، متواضعة وخليعة، صابرة ووحيدة، متوحشة ومهذبة. لأنني أحبك. عليّ أن أكتشف سبب هروبك من المشاعر العميقة والسعادة الحقيقية، ثم أنقل تلك المعرفة الحزينة لك، ليس بالكلمات، ليس بالقول، لإنها معرفة مخيفة ولن تنقذك... الكلمات رغم كل شيء، دقيقة، بإمكانها فقط تسمية وتصنيف اكتشافات البشرية، لكنها لا تحل ولا تربط، كما تعرف بالتأكيد، كونك كاتبا. لا. يجب أن أكون عطوفة، أراقب وانتهز الفرص للبوح لك بالسر بلا كلمات، عليّ أن أعلّمك بما يجرحك وما ترغب فيه، ما تخاف الاعتراف به، لأن الجبن والجهل وراء كل تعاسة، كما تعرف بالتأكيد، كونك كاتباً. هكذا عليّ أن أكتشف سبب خوفك من السعادة، التي ليست مجرد لمسة يدين، ولا المهد ولا اللحد، لكنها كلُّ كامل، كلُّ كامل يتطلب شيئاً ما مهيباً، حاداً تقريباً، في بنيتنا، الكل الكامل الذي هو الحياة والحقيقة. عليّ أن أكتشف ما الذي ترغب فيه بشدة ولا تجرؤ على الاعتراف به لنفسك ثم أكتم هذا السر عنك، وأنت بخيلائك ستحتجّ وتذهب مبتعداً، تسبّ وتلعن: لهذا يجب أن ألزم الصمت وأحفظ

السرَّ في قلبي. ويجب أن أعيش بالطريقة التي تجعلك تفهم، بدون كلمات، لماذا كل شيء كما هو، لماذا تعاني من الوحدة والضجر والاضطراب واللهفة؛ لماذا القمار، لماذا العربدة، لماذا ليس لك بيت، لماذا تطور فنك كما تطور، لماذا كل هؤلاء النسوة، لماذا أنت مُغوٍ. وحين تعرف كل هذا منّي، من دون أن أقوله لك، ستجد كل شيء فجأة وقد صار أسهل وأفضل، سيحق لك وحدك أن تنطق بالسر. ليس بيدي شيء سوى أن أنتظر، أراقب، أتعلّم، ثم بصمت، بكياني كله، بحياتي وجسدي وصمتي وقبلاتي وحركاتي، أنقل لك المعرفة السرية. هذا ما يجب أن أفعله؛ لأنني أحبك، ولهذا تخاف الحياة والاكتمال. لأننا لا نخاف شيئاً، لا التعذيب ولا المشنقة، بقدر ما نخاف أنفسنا والأسرار التي لا نجرؤ على مواجهتها. وهل سيكون كل شيء على ما يرام بعد هذا يا غرامي؟.... لا أعرف، لكن كل شيء سيغدو أيسر. أيسر كثيراً. سنتنقل على خشبتي مسرحنا، الفراش والعالم، كشركاء، كشخصين يعرفان كل شيء واحدهما عن الآخر وعن جمهورهما أيضاً. لن نهاب خشبة مسرح بعد ذلك قط جياكومو. لأن الحب اكتمال وتناغم، ليس حمّى وحنق، ولا دموع وصراخ: إنه التناغم الأكثر مهابة، أشد العلاقات وثاقاً. وأنا أتمسك بهذا الوثاق، حتى الموت. ماذا سيحدث؟... ليس لدى خطط جياكومو. أنا لا أقول «ها أنا ذا، ملك يديك، خذني معك»، لأن تلك كلمات بلا معني. لكن عليك أن تعلم أنك حتى ولو لم تأخذني معك سأظل في انتظارك إلى الأبد، سراً، إلى أن يأتي يوم تفكر فيّ فيذوب قلبك وتعود لي. لست بحاجة لقطع وعود وتعهدات، لأنني أعرف الحقيقة، والحقيقة أنك لي حقاً.

يمكنك أن تتركني كما فعلت من قبل، حين فررت على أعقابك كالجبان، رغم أن هروبك لم يكن من دوق بارما حقاً، بل من القوة المخيفة للشعور الحقيقي، إدراكك أنني لك حقاً. لم تكن تعلم هذا بالكلمات ولا في أفكارك، لكنك عرفته في قلبك وفي جسدك ولهذا فررت هارباً. ولم يُجدِكَ الهروب، لأننا ها نحن الآن، وجهاً لوجه، في انتظار اللحظة التي نخلع فيها قناعينا ليرى أحدنا الآخر كما هو عليه حقاً. لأننا مازلنا مقنّعين يا غرامي وثمة أقنعة أكثر من ذلك بيننا لابد من خلعها واحداً بعد الآخر قبل أن يسع أحدنا معرفة حقيقة الآخر بصدق، بوجوه عارية. لا تستعجل، لا حاجة بنا للعجلة، لا حاجة بك لتمسك بقناعك وتلقي به. ليست مصادفة أننا في لقائنا هذا بعد وقت طويل نرتدي الأقنعة. بعد أن هرب كل منا من سجنه ليواجه الآخر: لسنا بحاجة للتّعجل في خلع قناعينا، لأننا لن نجد وراءهما سوى أقنعة أخرى، أقنعة من لحم وعظم لكنها أقنعة تماماً كهذين المصنوعين من حرير. هناك الكثير جدّاً من الأقنعة التي يجب أن نخلعها قبل أن أرى وجهك وأميزه. لكنني أعرف أنه في مكان ما بعيداً جدّاً للغاية، يوجد الوجه الآخر، وأنني سأراه يوما، لأنني أحبك. لقد أهديتني ذات مرة منذ سنوات كثيرة مرآة من البندقية. بالطبع كانت المرآة هي الهدية الأنسب؛ مرآة من البندقية، الشهيرة بعكس صورة البشر الحقيقية. كانت هديتك مرآة بإطار فضي، ومشط بيد من الفضّة. كانت أفضل هدية تلقيتها يا عزيزي. ظللت كل يوم طوال تلك السنوات أمسك بالمرآة والمشط كل يوم لأسرّح شعري وأنظر لوجهي في المرآة كما تخيلت أنني سأفعل أو أردتني أن أفعل حين أهديتنيها. لأن المرآة سحر، هل

كنت تعرف هذا؟ أنت أحد أبناء البندقية حيث تُصنع أفضل المرايا؟ علينا أن ننظر في المرآة لأوقات طويلة لأن حينها يكون بوسعنا رؤية وجوهنا الحقيقية؛ لأنها ليست مجرد سطح فضي مصقول، لا؛ المرايا أيضاً عميقة كالبحيرات على الجبال، وإن نظرت بتمعن في مرآة من البندقية، ستلمح هذا العمق، وستتوغل لأعمق وأعمق، الوجه اللامع البعيد أبداً، ويوماً بعد الآخر تتساقط الأقنعة، كل يوم يختبر أحد الأقنعة نفسه في المرآة التي جلبها الحبيب من البندقية. حذار أن تهدي المرأة التي تحبها مرآة، لأن النساء يستطعن في النهاية معرفة أنفسهن في المرايا، يرين أوضح وأشد سوداوية من أي وقت مضى. كان أثناء النظر في المرآة أن وقع في وقت ما وفي مكان ما أول حدث إدراكي. اللحظة التي حدّق فيها الإنسان في المحيط، ورأى وجهه في لا نهائيته، فاضطرب، وبدأ يسأل، «من هذا؟...». لقد أرتني المرآة التي جلبتها لي من البندقية، التي بحجم راحة يدي، وجهي الحقيقي. لم يكن الوجه الذي ظننته مألوفاً وظننته وجهي سوى قناع أرقّ كثيراً من الحرير وكان وراءه وجهٌ آخر يشبهك. لهذا أنا ممنونة للمرآة، ولهذا لا أقطع وعوداً، لا أتعهد بشيء، ولا أطلب شيئاً، برغم سرعة دقات قلبي الجنونية في تلك اللحظة، حين ميزت وجهي وأدركت أنه يشبه وجهك، وأنك لي حقاً. هل يكفي هذا؟..».

ـ «لا يكفي»، أجاب الرجل.

ـ «لا يكفي؟» سألت بالصوت المغناج نفسه. «لا جياكومو هذه المرة لست أميناً تماماً. أنت نفسك لا تستطيع أن تنكر أنه لا

يمكن صرف النظر عن هذا، وأنه يضيف لشيء ما، ربما أكثر من شيء ما حتى. ليس هيّن على الإطلاق حين يعرف اثنان أنهما مقدّران أحدهما الآخر. لقد استغرقني الأمر طويلاً قبل أن أفهم هذا، فقد كان ثمة أوقات لم أكن أعرف نفسي فيها، هكذا نشأت في بستويا، خلف الجدران السميكة، مُهملة قليلاً، كالقراصات المتوحشة- وجئت أنت وتوددت لي بدون تفكير، وببطولة ساخرة، لكن كلينا كان يعلم أنه برغم كل ما يقال- ثمة شيء ما حقيقي يمر بيننا! وجدت لي أسماء تدليل متنوعة مشتقة من أسماء النباتات والحيوانات والنجوم كما يفعل العشاق كثيراً حين يظل أحدهما يلعب مع الآخر ويجرِّبان الكلمات في الأيام الأولى للحب حين تنقصهما الشجاعة لمناداة أحدهما الآخر بأسمائهما الحقيقية، مثل «يا غرامي» أو جياكومو أو فرانشيسكا. حينها تصير جميع الكلمات الأخرى زائدة عن الحاجة. لكنني حينها كنت «الزهرة البرية» بل وأحياناً حتى، بقلة أدب، «القراصة المتوحشة»، لأنني كنت متوحشة، وكنت ألسع مثلما قلت أنت أن يديك احترقتا وعادتا سريعاً حين لمستاني. هكذا تودّدت إليّ. أشعر بالدوار وأحمرّ خجلاً حين أتذكر تلك الأوقات، لأنني على يقين أنني عرفتك ما إن رأيتك في القاعة الفسيحة بالطابق الأرضي من منزل بستويا بين قطع الاثاث المتهالكة تلك بسيقانها المكسرة- كنت تعرض على أبي خطاب توصية الكاردينال وتتبادل معه الضحك قليلاً وأنت تكذب بخصوص شيء ما ببلاغة ملحوظة- وعرفتك في تلك اللحظة بأكثر مما عرفتك فيما بعد حين كانت المحادثات والألعاب الاجتماعية تخفي طبيعتك الحقيقية. عرفت عنك كل

شيء من أول لحظة، وإن كان ثمة شيء ما يخجلني أو يحرجني أمام نفسي فهو الفترة اللاحقة لحبنا، حين كنت تغازلني باسماء النباتات والحيوانات والنجوم تلك، حين كنت تتصرف بتهذيب، حين كنت زائفاً معي وغريباً عني- تلك هي الفترة التي أخجل منها. كنت جباناً جينها جياكومو، جباناً جدّاً لتفعل ما أملاه عليك قلبك عندما رأيتني أول مرة، قبل أن نتبادل كلمة واحدة، قبل أن تبدأ في مخاطبتي «بالقراصة المتوحشة» أو أي شيء آخر. إنه لذنب عظيم أن تكون جباناً. بإمكاني أن أغفر لك جميع الذنوب التي لا يغفرها العالم: شخصك، نقاط ضعفك، دهائك، أنانيتك المفرطة، أفهم كل هذا وأغفره لك كله، لكنني لا أستطيع أن أغفر لك الجبن. لماذا تركتني بين يدي دوق بارما ليشتريني كما يُشتري عجل من سوق الماشية بـفلورنسا؟ لماذا تركتني أقيم في قصور ومدن غريبة وأنت تعرف أنك لي حقاً... استيقظت في الفجر ليلة زفافي ومددت يدي أبحث عنك. كنت في باريس، في عربة تحت أشجار الدلب، على الطريق الحجري المؤدية لقصر الفرساي، والملك إلى يميني، ولم أستطع الإجابة حين وجّه إليّ ابن عمنا لويس سؤالاً، لأنني تخيلت أنك أنت من يجلس بجانبي، وأردت أن أريك شيئاً. وظل السؤال يلح عليّ: لماذا كان بهذا الجبن وهو يعلم أننا واحدنا للآخر؟ إنه لا يخاف الطعنات ولا السجن ولا السموم ولا الإذلال، لماذا يخافني أنا إذاً؟ حبه الحقيقي، سعادته... ظللت أسأل نفسي هذا السؤال، ثم فهمت. والآن أعرف ماذا عليّ أن أفعل جياكومو- لهذا تعلمت الكتابة، وأشياء أخرى كثيرة لا تمت بصلة للقلم والحبر والورق. تعلمت كل شيء لأنني أحبك. والآن عليك أن تفهم جيداً

يا غرامي أنني حين أقول «إنني أحبك»، فأنا لا أقولها بأسى أو بعيون مغرورقة بالدموع، بل أقولها بصوت عال، أصرخ بها في وجهك كأمر، كاتهام. هل تسمع جياكومو؟ إنني أحبك. أنا لا أعبث بهذه الكلمات. أنا أخاطبك كقاض. هل تسمع؟ إنني أحبك ولهذا لي سلطان عليك. إنني أحبك ولهذا أطالبك بأن تستجمع شجاعتك. إنني أحبك ولهذا سأبدأ من الصفر مرة أخرى، وإن كنت نجماً في السماء سأسحبك من مدارك، سأنتزعك من مكانك الطبيعي في الكون، أنتشلك من قوانين وجودك ومن مطالب فنك لأنني أحبك. أنا لا أسألك جياكومو، أنا أتّهمك: نعم، أتهمك بالقتل. أنا لا أدعوك لتنضم للعب معي. فلست في مزاج للمداعبة والغزل، لم آت إليك بوداعة الحمل لأطلق تنهدات الحنان. بل لأحدق فيك بغضب، بثورة. لأنظر لك كما ينظر المرء لعدو. سأختطفك باسم الحب، إن لم يكن الآن، فسيكون لاحقاً، ولن أحل وثاقك ثانيةً ولو للحظة واحدة، مهما كانت الحدود التي ستعبرها، ومهما كانت محاولاتك للهرب مني برفقة الخادمة الصغيرة، تلك التي فتحت لي الباب، التي تراجعت إلى الظل كظبي صغير توجّس خيفة، لقد أحسّت بوجود منافسة لها تحت الملابس الرجاليّة، لأنني أيضاً أحسست أن لك شأناً ما معها، أنك تتآمر معها ضدي، كما تفعل مع جميع الأخريات. هكذا هي الحياة وهكذا ستظل. لكنني أقوى بحبي. أقولها لك مباشرة، وبصوت عال، كصفعة على وجهك، هل تفهم؟... هل تسمع؟.. إنني أحبك. ليس بيدي حيلة في هذا، إن قدري أن أحبك. أحببتك منذ خمس سنوات جياكومو، منذ اللحظة التي رأيتك فيها في الحديقة القديمة بـبستويا، حين كنت

تتفوه بتلك الكذبة الشاذة، قبل أن تناديني «بالقرّاصة المتوحشة» وتتبارز بالسيف من أجلي عاري الجذع تحت ضوء القمر، وحين فررت هارباً احتقرتك وأحببتك. أعلم أنك خائف. أنك مازلت خائفا مني. لا تحاول إغماض عينيك من وراء القناع لأن بوسعي رؤيتهما من الثقبين: نعم الآن أراك من أسفل القناع أخيراً، وأري عينيك اللتين كانتا لامعتين من قبل، كوحش مفترس يتأمل فريسته بعينين حزينتين من وراء حجاب أو في الضباب، صارتا الآن إنسانيتين تقريباً. لا تغمض عينيك ولا تلتفت بعيداً، لأنني أريدك أن تعرف إنني لن أتركك تذهب ثانيةً. بالرغم من الاتفاق المعقود بينك وبين دوق بارما، لأنك تظل رغم هذا الاتفاق الرجل الذي منحته لي أقداري وأظل أنا المرأة التي منحتها لك أقدارك، نحن معاً كالقاتل والضحية، كالمذنب والذنب، كالفنان وفنه، كما يفعل الآخرون جميعاً مع واجبهم الذي يفضلون الهروب منه. لا تخف جياكومو! لن يؤذيك كثيراً! يجب أن أقدم لك هدية من الشجاعة، يجب أن أعلّمك أن تكون شجاعاً في مواجهة نفسك، في مواجهتنا، في مواجهة حقيقتنا التي قد تكون آثمة ومشينة كأي حقيقة صادقة وعارية في العالم. لا تخف لأنني أحبك. هل هذا يكفي؟.».

ـ «إنه كثير جدّاً»، أجاب الرجل

ـ «كثير جدّاً»، قالت وهي تطلق تنهيدة قصيرة، ثم صمتت، وظلت تحدق في النار ويداها على قناعها.

دمدمت النار وواصلت غناءها الرتيب. استمع كلاهما لأغنيتها الحية الرزينة. ثم تحركت المرأة بحذر، كما لو كانت تخاف التعثر

في سيفها، وركعت أمام الرجل ورفعت ذراعيها الطويلتين ولمست بأطراف أصابعها قناعه برقة وحذر شديدين، ثم أخذت بوجهه المقنع بين يديها وهمست:

ـ «سامحني إن كان حبي لك كثيراً يا جياكومو، أنا أعرف أن هكذا حب ذنب عظيم. عليك أن تسامحني. قليلون جدّاً من بوسعهم حمل عبء حب مطبق، لأنه واجب، ومسئولية لا فرار منها أيضاً. إنه الذنب الوحيد الذي ارتكبته في حقك. سامحني. لن أطلب منك شيئاً آخر أبـداً. سأفعل أي شيء لأخفف من المعاناة التي يسببها حبي لك. هل تخشى اليوم الذي تستيقظ فيه وتجد نفسك بجانبي فتشعر بقبضة الضجر الرطبة تمسك بك؟ لا تخشَ شيئاً يا غرامي لأن هذا الملل سيكون ساراً ومرحاً كالتمطي والتثاؤب، وسيكون معناه أنني أحبك. أنت لا تعرف، حتى الآن ليس بمقدورك أن تعرف، كيف هو الأمر حين يحبك أحد. يجب أن أشرح لك الحب لأنك لا تعرف شيئاً عنه. إنك تخاف من رغبتك وفضولك، تخاف من جميع النساء اللائي يبتسمن لك من النوافذ، من العربات، وفي الفنادق والأسواق الغريبة، لأنك تخاف من عجزك عن ملاحقتهن، لأنك موثق بي، بوثاق الحب... بالتأكيد لن ترغب في ملاحقتهن جياكومو وأنت تعرف أنني أحبك. لكنك إن تركتني يوماً ما ضجراً أو فضولاً، سأظل أعيش وسأظل أنتظرك في مكان ما. ويوماً ما ستشعر بالضجر من العالم، بعد أن تكون قد عرفت وتذوقت كل شيء، وستستيقظ بشعور من الاشمئزاز، وألم رهيب في أطرافك وعظامك وتنظر حولك وتتذكر أنني أنتظرك في مكان ما. أين سأنتظرك يا غرامي؟ أينما تَوَدّ. في المنزل الريفي الذي

قد أعيش فيه بعد وفاة الدوق؟ في المدينة الكبيرة التي هجرتني فيها في البداية؟ أم هنا في قصري في بولزانو حيث قد أضطر حين تنتهي هذه الليلة للعودة إليه وانتظارك؟ أعلم أنني سأنتظرك إلى الأبد. وأينما سيكون لي فراش تأكد أن لك عليه وسادة. وكل طبق أتناوله أو يضعه أمامي خادم سيكون طبقك أيضاً. حين تشرق الشمس وتكون السماء زرقاء، اِعلم أنني أنظر إلى السماء وأفكر: «جياكومو يستمتع بالسماء نفسها». وكلما سقط المطر سأفكر: «إنه الآن يقف في نافذة بـباريس أو لندن، مكدراً أو عكر المزاج، لعل أحدهم معه في الغرفة ليشعل له النار لتبقى قدماه دافئتين». وكلما رأيت امرأة جميلة سأفكر «لعلها تقضي معه ساعة لتخفف من تعاسته». وكلما قسمت رغيف خبز سيكون نصفه لك. أعرف أن هذا الحب كثير جدّاً، وأرجو أن تغفر لي رغبتي في العيش طويلاً لأنتظر عودتك للبيت».

ـ «البيت؟ أين هذا البيت فرانشيسكا؟» سأل القناع. «ليس لي بيت ولا قشة أثاث في أي مكان في العالم».

ـ «البيت يعني معي جياكومو» أجابته. «أينما رقدت أنا فهو بيتك». وربّتت براحتيها على القناع برقة شديدة كأنها تحمل قطعة زجاج هشة. ثم قالت بنبرة غنائية واهنة، وقناعها يشع حياة وابتساماً:

ـ «أترى؟ أنا أركع أمامك، بزي تنكري، كعاشق مهذب يخطب ود سيدته. وأنت جالس أمامي بملابس نسائية، مقنعاً، لأن الأقدار دبرت هذا لاهية، لليلة واحدة فقط، لم تكن تعرف ظهر هذا اليوم أن دوق بارما سيأتيك برسالتي ويدعوك للحفل، وأنك ستتنكر في

زي امرأة... هل تظن كل هذا مصادفة؟ أنا لا أفهم في العلاقات البشرية جياكومو، لديّ خيالي فقط، وقد بدأت أشك أنه ما من موقف حيوي ومتفرّد يأتي مصادفة، وأن الجميع، رجالاً ونساءً، في أعماقهم، في أعمق أعماقهم، متشابهون، مزيج متساوٍ من المشاعر والرغبات لحد يجعل شخصياتنا وأدوارنا ليست مستقلة تماماً. إننا أحياناً تلعب بنا الحياة وتبدل فينا ما كنا نعتقده مميزاً وراسخاً؛ لذلك لا يزعجني أنني أنا أركع أمامك، ولست أنت أمامي كما يقضي اتفاقك مع دوق بارما، ولا من أنني أنا من أتودد إليك. هكذا، أترى، كل شيء يسير حسب الاتفاق بالرغم من عدم لعب الشخصيات للأدوار نفسها التي وضعها دوق بارما لها. إنني أتوسل إليك عزيزي أن تتقبل حبي لك. وعزائي أنني أحبك ولا أستطيع أن أتحمل تعاستك. أنا العاشق، الحصار، وليس أنت. لقد جئت إليك لأنني يجب أن أراك. وها نحن الآن وأنت صامت؛ صمتاً قوياً، صمتاً مطبقاً أصيلاً، كما ينبغي أن يكون، تفكر في دورك، وأنا أردد آخر كلمات خطابك تماماً كما يقضي الاتفاق. لكنك مازلت مقيداً جياكومو، ما زلت تمثل: أنت صادق جدّاً مع دورك. ألا تخشى أن ينفد وقتنا معاً، أن تمضي هذه الليلة من دون أن يكون لديك شيء ما مثيراً للاهتمام أو الرضا لتبلغ به الرجل الذي أوكل لك هذه المهمة؟ ألا ترغب فيّ يا غرامي؟ تصبح رهيباً حين تلزم الصمت هكذا، تتلبسك الشخصية تماماً. قلت ليس كافياً وكثير جدّاً حين عرضت عليك كل ما يمكن لامرأة أن تعرضه على الرجل الذي تحبه. انظر للنار جياكومو، إنها تتأجج كأنها هي الأخرى لديها ما تقوله، لعلها تريد أن تقول إنه يجب أن تحرقك العاطفة لتولد

مشاعرك من جديد، لأن هذه هي الحياة والاكتمال. قد تمسّك النيران بكل دواخل قلبينا إن شئت، إن أخذتني معك أو تركتني آخذك معي ـ سيان جياكومو، من يذهب مع من ـ لكننا سيكون علينا أن نبدأ كل شيء من جديد، من الصفر؛ لأن الحب هكذا. سيكون عليّ أن ألدك من جديد، أن أكون والدتك وابنتك، سيُطهّرك حبي وأنا أيضاً سأتطهّر بين ذراعيك. سأكون كمن لم يمسسنى بشر. مازلت صامتاً؟ ألا تريدني؟... ألا يمكنني أن أعزيك؟... ياله من أمر فظيع جياكومو. أن يكون بلا جدوى ما أعرضه عليك من سرور وسلام وتطهّر وتجديد، ألا أستطيع أن أشدك إلى شعور، أن أرفعك من فنك، أن أغويك أو أرى وجهك الحقيقي، الوجه الأخير، بدون قناع، كما أردت في خطابي.... هل يمكن أن تكون أقوي مني يا غرامي؟ هل تجابه حبي بفنك البارد وشخصك المنيع؟... أنا أعدك بالسلام والاكتمال وأنت تقول لي إن هذا كثير جدا وأنه لا يكفي. لماذا لا تقول ولو لمرة واحدة إن هذا يكفي، ممتاز، بالضبط؟ ألا أستطيع أن أقدم لك شيئاً ما يجذبك خارج مداركك؟ أن أقول شيئاً يجعلك تخرج عن شخصك أخيراً وتصرخ، نعم، هذا يكفي!... انظر، ها أنا أركع، أنا في العشرين من عمري. أنت تعلم تمام العلم أنني جميلة. أنا أيضاً أعلم هذا. لست أجمل امرأة في العالم، لأن هذه المرأة ليس لها وجود، لكنني مازلت جميلة، جسديْ رائع ووجهي يضج حياة وفضولاً وراحة وسروراً وتفهماً ومرحاً ومهابة في خليط واحد معاً هو ما يمنح وجهى جماله، لأن الجمال هو هذه الخلطة المنعشة. كل ما عدا هذا ليس سوى عجينة طيّعة من الجلد واللحم والعظم. أمازلت تؤمن جياكومو في النساء اللائي يلفتن

الأنظار لجمالهن المبالغ فيه، اللائي يتبخترن بكبرياء ولا يعلمن أن الجمال هو ما يذوب في بوتقة الحب، أن لا أحد يلاحظ الجمال بعد شهر أو عام من الزفاف ـ الوجه، الساقين، الذراعين، النهد الرائع ـ يذوب كل هذا ويختفي في لظى الحب، وتبقي امرأة قد تكون لازالت قادرة على إراحتك، دعمك، ومساعدتك. أن تقدم لك شيئاً حتى وإن لم تعد ترى في وجهها أو جسدها جمالاً. إن جمالي هكذا جياكومو: أنا معدن أصيل، ذهب خالص، سواء في خاتم يرتديه أحدهم أو مدفونة تحت الأرض، سأظل معدن أصيل لأنني جميلة. لقد أنعم عليّ الخالق بالجمال وبالهزيمة الساحقة كذلك: أنا جميلة ولذلك ثمة غرض لحياتي، وهو أن أسرّ عينيك، مع ذلك، ليس عينيك فقط اللتان يجب أن أسرهما. لأن ليس بوسعي المرور بالحياة بهذا القدر من الجمال من دون أن أعاقب عليه، لأنني أينما ذهبت أثير العواطف: أنا كالمباركة التي تكتشف جداول المياه الجارية في باطن الأرض، تشعر بها تبقبق أسفلها، يجب أن أعاني أشد المعاناة مقابل جمالي. أقدم لك الجمال والتناغم اللذان أنعم عليّ بهما الخالق ولعنني بهما ومازلتَ لستَ واثقاً، تقول تارة إن هذا كثيرا جدّاً وأخرى أن هذا لا يكفي. ألست خائفاً جياكومو. لقد تعارفنا وكنت مازلت برعماً، كنتُ تدعوني «قراصتك المتوحشة»، لكنك تركت دوق بارما يشتريني وفررت لأنك خفتني ومازلت تخافني مع أنني أمثل لك الحقيقة والاكتمال. ألا تخشى أن تكون الأمور الإنسانية غير كافية، أن أكون مجرد امرأة ستمل من الانتظار والاتفاقات والصفقات والوعود؟ ألا تخشى أن أكون قد مللت بالفعل وأنني أزورك فقط لأؤكد هذا أو لأخبرك به؟ لأن عشقي لك

ورغبتي فيك اللذين يحرقان قلبي هما في حد ذاتهما عاطفة مخيفة ومنهكة! ألا تشخى جياكومو من أن يكون لي أسراري الخاصة بي؟ ألا تخشى أن تكون باستطاعتي أن أحرك فيك مشاعر ليست حنونة أو هادئة بالمرة، أن بإمكاني، إن شئت أنا، أن أسليك بحكايات قد تجعلك تزمجر صائحاً أن «كفى!» أنا.لك حقاً جياكومو ولا أرغب في شيء أكثر من إنقاذك وإنقاذ نفسي. أن أعيش بعد ذلك معك كما يعيش الناس، لنر أي جهنم سيكون علينا مواجهتها. لكن إن كانت ارتباطاتك بفنك وبالاتفاق مع دوق بارما وبنفسك تتطلب أكثر من هذا، فحينها يكون قد حان الوقت لي لأضعف وأعترف بأنني رغم هذه النار المضطرمة بداخلي منذ رأيتك أول مرة، وهذا بالطبع يعتبر جموحاً، لم استطع قبول فكرة هروبك، جبنك، فتركت آخرين يقبلونني قبل أن أمنح نفسي لدوق بارما. لأدهشك بحكايات عن ما تحتاجه فتاة مهجورة في الخامسة عشرة من عمرها لتنسى حزنها. هل أخبرك بما حدث بعد هروبك من بستويا؟ حين ألقيت بنفسي على البستاني ـ هل تعرفه؟ ألا تخشي جياكومو أن تسمع أحداث هذه الليلة؟ أتذكرها بوضوح تام، بالتفصيل، مثلما تتذكر أنت البستاني الذي أرسلت لي الزهور معه: رجل طويل قوي، عنيف، لا يتحدث كثيراً. هل أحكي لك ما حدث تلك الليلة بعد المبارزة وبعد هروبك؟.... هل ترغب فعلاً في أن تسمع ما حدث بالتفصيل؟ أتود أن تسمع أيضاً عن ما حدث في الشهور والسنين التي تلت تلك الليلة، حين لم أسمع منك خبراً، وظلت هذه النار الأسوأ من نيران الجحيم وسعيره، الأسوأ من نيران ضحايا محاكم التفتيش المساكين، تأكل أعماقي شيئاً فشيئاً؟ هل أخبرك

بقصة منزل فلورنسا، القصر المشرف على نهر الأرنو بجوار جسر الثالوث المقدس[1] حيث ستجد قميص نومي وشبشبي ومشطي ومرآة البندقية التي أهديتيها، هل أخبرك جياكومو عن المنزل الذي كنت أتردد عليه، الذي قد أكون ذهبت إليه أنا الأخرى مثل القصر السري بمورانو الذي استمتعت به أنت ذات مرة. هل أخبرك بكل هذا. هل أخبرك كيف يكون الأمر حين يحبط حب امرأة ترغب في منح كل ما تملكه من جسد وروح صغيرين، وتبدأ في الاحتراق حنقاً، ككتلة ملتهبة من اللحم والشعر والدم، تحترق سراً، كدخان في العتمة يُفسد ويسوِّد كل ما تلمسه. وهكذا على الرغم من قوة ونفوذ دوق بارما وحذره الشديد، لكنه لا يستطيع إطفاء تلك النار؟ هل أخبرك كيف يكون الأمر حين تضطر المرأة للبحث عن الحنان الذي ترغب فيه من رجل واحد فقط، رجل هرب، بين أحضان عشرة، عشرين أو مائة رجل؟ هل تريد أسماء جياكومو؟ هل تريد إثباتاً؟ هل بودك أن تعرف أسماء وعناوين اللوردات النبلاء والبساتنة والخدم والمهرجين والمقامرين والموسيقيين، الذين كانوا جميعاً ألطف وأرقّ معي منك أنت؟ هل تريد أن تعرف كيف هو الأمر حين تأخذ المرأة في التحرك في العالم كممسوسة؟ مسّها القدر وختمها، دون أدني قَدْرٍ من السلام في قلبها لأنها تحب من رَفَضَها؟ لأن بوسعي أن أخبرك بهذا أيضاً».

- «أنا لا أصدقك»، قال بصوت متهدج.

- «لا تصدقني؟»، كررت بصوت حلو طفولي مذهول. «وإن

---

(1) جسر بفلورنسا من عصر النهضة.

كان لدي إثبات جياكومو؟... إن كان لدي قائمة بالأسماء والعناوين كإثبات. هل ستصدقني حينها؟ لأن بإمكاني إعطاءك إياها. هل يكفي هذا؟.».

ـ «هذا يكفي» قال ونهض وسحب الخنجر من صدره بحركة سريعة.

بقت في مكانها لم تتحرك، التفتت بالنظرة الثابتة للقناع صوبه، وقالت بهدوء وتواضع:

ـ «أوه. الخنجر! دائماً الخنجر يا غرامي. إنه ردك الوحيد على العالم حين ينقلب عليك! ضع الخنجر جانباً يا عزيزي؛ ليس سوى رد من كلمة واحدة لا توضِّح شيئاً، إنه رد غبي لا داعي له. ولماذا ترد عليّ بالخنجر بينما أنت مجرد جبان يخاف من حبه لي، وأنا لا أعرض عليك لا الفرحة الحقيقية ولا الألم الحقيقي، وكل هذا مجرد لعبة، الفقرة الأساسية لساحر مستأجر، أداء فنان بارز حدث أنه يمر بالبلدة فقط؟ الخنجر ليس في الاتفاق يا عزيزي. أقولها لك مجدداً، ضع الخنجر جانباً، وتوقف عن لمس قناعك بتلك الأصابع المرتعشة. لماذا عليك أن تخلع القناع؟ بماذا سيخبرني الوجه الذي وراءه؟ لقد كتبت لأقول إنني يجب أن أراك، وقد رأيتك الآن. لم يكن وجهك ما أردت رؤيته جياكومو، بل الرجل، الرجل الذي أحببته حقاً، الذي كان جباناً، الذي باعني وهرب مني. كان كل هذا بلا جدوى، بلا جدوى أن عرفتك وعرفت أي نوع من الرجال أنت، بلا جدوى أن ظلت جهنم تحترق بداخلي لخمس سنوات، بلا جدوى محاولاتي الفاشلة لإطفاء سعيرها المتقد وعلاج الجرح

بقبلات رجال آخرين من دون أن أتوقف عن حبك لحظة؛ بلا جدوى أن حملت هذا الجرح أينما ذهبت كسيف دامٍ أتحدي به كل من يعترض سبيلي. بلا جدوي أن لعنت نفسي فيّ أعماق روحي سراً مائة مرة أو أكثر لأنني مازلت آمل في اليوم الذي سأنزع فيه القناع عن وجهك وأراك، كما طلبت في رسالتي، أن أراك وأغفر لك. لهذا طلبت من الخصيّ أن يعلمني الكتابة. لهذا كتبت وراسلتك. لهذا انتظرتك، ولهذا حين لم تأتني، لأنك انشغلت بالاتفاق مع دوق بارما ـ مخلصاً لفنك كالعادة ـ جئتك أنا، في ملابس الرجال، بالقناع، لأراك ولو لمرة واحدة فقط. أخبرتك بكل شيء، أنك لي حقاً وأنني المرأة التي أنت موثق بها للأبد، وأنت تعرف أن هذا حقيقي. عرضت عليك كل ما أملكه ولم يكن ردك سوى :»هذا قليل جدّاً»، لكنني أخيراً جعلتك تقول «كفى». كانت هذه الكلمة التي أردت أن أسمعها. حسن. الآن اصغي بانتباه يا غرامي. كل ما أخبرتك به حقيقي، والآن وقد رأيتك على هذا النحو، لا أريد أن أراك على أي نحو آخر. سأعود إلى بيتي وإلى ضيوفي، وستذهب أنت إلى العالم؛ لتعيش وتكذب، لتسرق وتنهب، لترفع كل تنورة تمر بك، وتتقلب على كل فراش تجده. ستظل مخلصاً لفنك. لكنك ستعرف طوال الوقت، في صحوك ونومك، وحتى وأنت تقبل امرأة أخرى، أنني أنا الحقيقة، أنني كل شيء في حياتك، وأنك جرحتني وبعتني، ستعرف أنك كان بوسعك نيل كل شيء في الحياة لكنك فضلت المكر والجبن، فضلت الاتفاق، ولهذا لن تمنحك الحياة سوى الصفقات. ستعرف أن جسدي الذي هو لك جزئياً، لن يكون لك أبداً بل لكل من يرغب فيه. ستكون على علم أنني

أعيش في مكان ما بين أحضان رجال آخرين وأنك لن تأخذني بين ذراعيك مرة أخرى أبداً. أنا أيضاً جياكومو مخلصة على طريقتي. أردت أن أعيش معك كما عاش آدم وحواء في الجنة قبل أن يكون في العالم ذنب. أردت أن أنقذك من قدرك. لا يوجد في العالم عاطفة أو بؤس أو مرض أو عار لا يمكنني مشاركته معك. أنت تعلم إنني صادقة فيما أقوله وأن كلماتي مقدسة. تعلم لكنك تلزم الصمت مخلصاً لاتفاقك مع دوق بارما. ويجب أن تعلم الآن بعد أن رأيتك أنني حكمت عليك بالتعاسة، لن تحظى بلحظة سعيدة في حياتك ثانية أبداً. أياً كان نوع حلاوتها. لعلك رأيتني لكنك لا تعرفني بالمعنى الإنجيلي للكلمة، ومع ذلك أنت تعرف شيئاً ما عني إن لم يكن كل شيء. إن وقتنا ينفد، لا تنس أن الجنس والاسم اللذين احملهما يتطلبان تواضعاً وبراعة معينين. أنت تعرف شيء ما عني وأنا أترك لك الباقي لتتخيله في كل وقت الفراغ االذي قد تحظى به بين المهمات، والصفقات، والأعمال الفنية. لأنك ستفكر فيّ جياكومو. أنا على يقين من أنك ستفكر فيّ. لهذا جئت لأراك، لأعدك بكل ما يمكن لامرأة أن تعد به رجل، لأخبرك بأنني سأجعل الآن من كل فساد يعن للخيال حقيقة واقعة في اللحظة نفسها التي تفكر فيّ. لهذا جئت إليك مقنعة، في منتصف الليل، في ملابس رجال وسيفي بجانبي. وبوسعي الآن أن أعود أدراجي لقصري ولما تبقي من حياتي التي أعرف على وجه اليقين أنها ستكون بدونك نصف حياة فقط. الآن اِذهب، عش واصنع تحفك الفنية يا صديقي، لربما يحدث ذات يوم وتصبح حياتك نفسها تحفة فنية تلمع ببرودة وضوء فاسد. قد تكون قوانين وجودك هي أكثر ما يشغلك، لكنك

أنت ما يشغلني يا غرامي. والآنِ وبانتهاء هذه الليلة اِعلم أن قلبك قد عوقب بالألم الأبدي. لأن الأمر ليس في أن أراك كما تمنيت، بل في أن تراني أيضاً، وأن تراني يعني ألا تنسى وجهي أبداً، وجهى الذي يقبع وراء الأقنعة التي أبديها للعالم. لأنه قد يهون الاختيار من أحزاننا جياكومو. قد لا تقهم هذا الآن تحديداً، لكنك ستفهم ما إن أغادر هذه الغرفة وأختفي منْ حياتك للأبد، حينها ستفهم فجأة وستمتلئ حياتك بأكملها بهذا الفهم. أنا لست أحداً ما على وجه الخصوص جياكومو، لست فنانة عظيمة، ولا رجل، أنا امرأة. فرانشيسكا من توسكانا، لا أليق بشغل مكان بارز بين أعمالك الفنية العظيمة. لكنني من الآن فصاعداً سيكون لي مكان هناك. لقد تأكدت من هذا. لقد غرست وجودي في وجودك، لقد غرست فيك المعرفة بأنني أنا الحقيقة التي تركتها، إنك وصمة عار على جبين من تحبك وستظل دائماً تحبك في كل المواقف التي ستجد نفسها فيها للانتقام منك كما عاهدت نفسها. أردت أن أعاهدك على أشياء أخرى جياكومو. عهود للحياة. لكنك رفضت، ومع هذا ستستمر الحياة، حتى ولو على هذا النحو.... لكن حياتك لن تكون كما عهِدتها يا غرامي: ستكون كمن تناول سم متقن بطئ المفعول يشعر بألمه في كل لحظة.. لقد حرصت على هذا. لأنني أيضاً لديّ أسلحتي الأحدّ من الخنجر. ضع الخنجر جانباً يا غرامي. لعلني لست قوية بما يكفي لأغلبك في الحب، لكنني أقوى في الانتقام وخنجرك عديم الفائدة. ضع الخنجر جانباً وإلا، إن شئت، أعطيتنيه، كتذكار لهذه الليلة. سأحتفظ به في فلورنسا، مع هداياك الأخرى، المرآة والمشط. أتريد أن نتبادل التذكارات، انتظر

سأخلع هذا السيف النحيل ذا القبضة الذهبية الذي ربطته بجانبي هذا المساء وأعطيه لك في المقابل كما يتبادل الأعداء القلوب والأذرع حين ينتهون من القتال. أعطني الخنجر كتذكار. شكراً. وتقبل هذا السلاح الحاد المصنوع بإتقان، وخذه معك أينما ذهبت. أترى؟ لقد تبادلنا الأسلحة بدلاً من القلوب جياكومو. وعلي كل منا الآن أن يعود لمكانته المرموقة في العالم ويواصل الحياة حتى وإن كان ذلك فقط لعجزك التام عن الخروج عن شخصيتك وترك فنك. شكراً لك على الخنجر يا غرامي»، قالت وهي تنهض واقفة ثم أضافت: «وشكرا لك على هذه الليلة. بإمكاني الآن أنا الأخرى أن أواصل الحياة براحة أكبر مما كنت عليه خلال الخمس سنوات الماضية. هل سأسمع منك؟ لا أعرف. هل أنتظرك؟ لكنني قلت بالفعل جياكوم،وإنني سأنتظرك إلى الأبد. لأن ما بيننا لا يمحوه الزمن. ليس الحب وحده أبدياً، بل المشاعر الصادقة كلها، بما في ذلك الانتقام».

خلعت السيف وناولته له، ثم علقت الخنجر البندقي الذي ناوله لها في حزامها الذهبي. وقالت بصوت صريح كالزجاج:

ـ «إنه الفجر تقريباً. يجب أن أذهب. لا تصطحبني جياكومو. كما دخلت وحدي سأخرج وحدي أيضاً، إلى الحياة، إلى بيتي. الجو هادئ للغاية. لقد نامت الريح، والنار أيضاً خبت، أترى؟ كأنها تتحدث بلغتها الخاصة، مما يخبرنا بأن كل ما يمر بنا من عواطف سيصبح رماداً. لكن هذا ما لا أريد أن أصدقه. لأننا الليلة، رغم كل شيء، تواجهنا وتعارفنا، حتى وإن لم يكن كما تخيل دوق بارما

أو كما ذكر الإنجيل. لديك الآن ختم على اتفاقك جياكومو، هذا الختم هو وعيك بكل ما أخبرتك به. إنه ختم الانتقام، ختم متين، قوي بقدر قوة الحب والحياة والموت. بإمكانك أن تخبر دوق بارما أنك التزمت بالاتفاق يا غرامي ولم تخدعه، ولم تخفق أيضاً، لقد استحققت أجرك ومكافأتك. انتهت الليلة وقد حدث كل ما اتفقتما عليه، والآن، بعد أن عرفتك، سأعود للرجل الذي يحبني وينتظرني لأهوِّن عليه رحيله عن الحياة. صاحبتك السلامة جياكومو، اِرحل عبر العالم بخطي خفيفة، فنّك معصوم، والمهمة التي اضطلعت بها قد أُنجزت، ليس كما تخيلتماها تماماً، أنتما الرجلان الحاذقان، لكن الغاية هي ما تهم، والغاية أن أعرفك، أن أعرف أن ليس لي سلطان حقيقي على قلبك، وأنني يجب أن أرضى بقدري، وأنه لم يتبق لي من قوة سوى الانتقام. ضع هذا الاعتراف في اعتبارك، خذ هذا العهد معك أينما ذهبت، لأن طريقك سيكون طويلاً وبالتأكيد مدهشاً وحافلاً. لكنني أريد شيء آخر منك على سبيل الوداع. فقد كتبت على غير عادتي رسالة: فإن أحسست للحظة إنك فهمتها ورغبت في الرد عليها، لا تتكاسل أو تتجابن: رد كما يليق، بالقلم والحبر، كما يليق بك كأديب ضليع. أتعدني بهذا؟..».

وحين لم يجبها، تابعت:

ـ «لماذا لا تجيبني؟ هل الإجابة مرعبة لهذا الحد جياكومو؟»

أجاب بكلمات بطيئة وصوت أجش على نحو ما:

ـ «أنتِ تعلمين تمام العلم أنني إن أجبتك في هِذه الحياة، فلن تكون الإجابة بالقلم والحبر».

رفعت كتفيها وأجابت بهدوء ولامبالاة تقريباً وطيف ابتسامة في صوتها:

ـ «نعم، أعلم، ولكن ماذا بيدي؟... سأعيش وانتظر ردك يا غرامي».

اتجهت صوب الباب، لكنها توقفت في منتصف طريقها واستدارت وقالت له برقة وود:

ـ «انتهت اللعبة جياكومو، دعنا نعود لحياتنا، لنخلع أقنعتنا وزيينا. صار كل شيء كما أردت. أنا على يقين بأن كل ما حدث قد حدث حسب قوانين غير مكتوبة، لكن اِعلم أنه حدث كما أردت أنا أيضاً: رأيتك وكنت عطوفة معك وجرحتك».

شبت على أطراف أصابعها، ألقت نظرة سريعة على المرآة، وضعت القبعة ذات الثلاث زوايا على باروكتها بحركة سلسة. ثم أضافت بقلق:

ـ «آمل ألا أكون قد جرحتك بشدة».

ولم تنتظر الرد. تركت الغرفة من دون أن تلتفت خلفها، بخطوات خفيفة وحاسمة، وأغلقت الباب وراءها بهدوء.

ebooks4arabs.blogspot.com

الرد

صار جو الغرفة بارداً، وارتعش لهب الشموع لكن سخاماً مراً ظل ينبعث منها. خلع تنورته وحرّر نفسه من الصدرية ونزع قناعه وألقي باروكته بعيداً. دخل غرفة النوم واتّجه لحوض غسيل الأيدي، صب ماء مثلج من الإبريق في راحتيه وبدأ يغسل وجهه بخطوات بطيئة موجّهة.

أزال المساحيق وبودرة الأرز عن وجهه، مسح الأحمر عن شفاهه، وشامة الحسن عن وجنته، وسخام الشمع عن حاجبيه. رش وجهه بالماء، لمستها الثلجية تحرق وجهه وتلسعه: تلطمه كصفعة. مرر أصابعه في شعره وفرك وجهه جيداً في المنشفة ثم أشعل شموعاً جديدة، وفي ضوئها، مال أمام المرآة ليتأكد من إزالة كل أثر للمساحيق عن وجهه. جبهته مغضّنة وشاحبة، ذقنه تحتاج لحلاقة وثمة ظلال داكنة أسفل عينيه كأنه عائد لتوه من حفل صاخب استمر طوال الليل. ثم رمى كل ما يتعلق بالزي التنكري، وبحركات سريعة واثقة بدأ يرتدي ملابسه.

سمع رنين أجراس آتياً من مكان. ارتدى ملابساً للسفر، قميصاً

وجورباً ثقيلين، وبعد أن لف عباءته حول كتفيه جال بنظره في الغرفة. بقى الطعام والشراب، دون أن يمسهما أحد، على مفرش المائدة الدمشقي وأدواتها الفضية، فقط ذاب الثلج في الطبق وسبحت جزر ضئيلة تافهة من الزبدة في البركة الباقية كزهرات شرقية نمت على نحو غريب على بركة زخرفية صغيرة. التقط الدجاجة، قطعها نصفين، وبحركات شرهة متوحشة بدأ يلتهمها بعصبية. ألقى بالعظم في ركن بعد أن فرغ منها ومسح أصابعه الدهنية بمفرش المائدة، رفع كأس النبيذ المترع بالسائل الذهبي الدبق وملأ فمه به. مال برأسه للوراء وانتظر ريثما يمر السائل في بلعات بطيئة، تفاحة آدم الضخمة تتحرك لأعلى وأسفل في المرآة. مسح فمه بظهر يده وألقى بالكأس الذي سقط متهشما محدثاً شقاً صغيراً على الأرضية. وبصوت خشن جراء النبيذ صاح منادياً على بالبي.

حضر الراهب فوراً، كأنه ظل منتظراً على أهبة الاستعداد لوقت طويل. وقف على عتبة الباب، مستعداً للسفر في مسوحه البنية الثقيلة، وحذائه ذي الزوايا القائمة وقنينة تحت إبطه يعاملها بحرص وعناية كما تعامل الأم طفلها. تبعته تيريزا، وأسرعت في صمت دون نظرة أخرى تجمع كسرات الزجاج بحرص في مريلتها.

سأل جياكومو الراهب:

«هل كل شيء جاهز؟»

«إنهم يحضّرون الخيل» أجابه بالبي.

ـ «هل حزمتِ متاعكِ؟» سأل الفتاة.

ـ «لا، سيدي»، أجابت الفتاة، بأدب وتواضع. «لن أذهب معك».

وقفت بجوار النار، رأسها مائل إلى جانب، الزجاج المكسور في مريلتها، وتحدّق فيه بهدوء بعينين زرقاوين واسعتين خاويتين.

ـ «ولماذا لن تأتي معي؟» سأل وهو يلقي برأسه للوراء وينظر من أعلى أنفه. «أنا أضمن لك مستقبلك».

ـ «لأنك لا تحبني» أجابت على نحو حالم كتلميذة نجيبة تكرر درساً.

ـ «هل تظنين أنني أحب واحدة أخرى؟»

ـ «نعم».

ـ «من التي تظنيني أحبها؟» سأل بفضول كمن يحدِّث طفلاً ظل يخفي سراً وهو الآن على وشك البوح به.

ـ «المرأة التي ترتدي زي الرجال، التي غادرت منذ وقت قصير»

سأل مدهوشاً: «هل أنت متأكدة؟»

ـ «تمام التأكد».

ـ «كيف تعرفين؟»

ـ «أشعر به. أنت لا تحب غيرها، ولن تحب غيرها أبداً. لهذا لن أذهب معك، سامحني سيدي».

وقفت ساكنة. انتظر بالبي بهدوء عند عتبة الباب، يداه مضمومتان

على بطنه، ينظر له بفضول معتدل وهو يعبث بإبهاميه ويطرف بعينيه. تحرك جياكومو نحو الخادمة ومسد على شعرها وجبينها بحنان شديد وقال:

ـ «ابقي، لا تذهبي، إن ملاكاً يتحدث من خلالك».

فتح عباءته وجلس على المقعد ذي الذراعين، وجذب الفتاة إليه بحرص، وأجلسها على ركبتيه، محدقاً بعمق في تلك العينين الزرقاوين الخاويتين المجهدتين. ثم قال في النهاية:

ـ «اجلس بالبي، هناك إلى الطاولة. خذ قلم وبودرة وورق. سأُملي عليكَ خطاباً».

جلس الراهب بصمت، مراوغاً ولاهثاً بوزنه الثقيل. أوقد شمعة وجرّب القلم قبل أن يشخص ببصره في السقف منتظراً.

قال جياكومو:

ـ «اكتب أن المُرْسَل إليه سعادة دوق بارما»، وانتبه لخط يدك الآن. أريد كتابة جميلة. سأتحدث ببطء لأدع لك الوقت لتشكيل الحروف. هل أنت مستعد؟ لنبدأ. «*سأغادر البلدة في الساعات الأولى هذا الصباح. سأغادر دون أجر أو مكافأة، ولا أطلب منك سوى صنيع صغير. لقد سبق وأسديتم سعادتكم لنا مرة خدمة المرسال، وأنا ألتمس منكم الآن على سبيل الوداع القيام بنفس المهمة مرة أخرى، وأن تخبروا دوقة بارما أنني أستعين بكل ما لدي من قوى أيا كانت، وأدعو الله أن يحفظنا، أنا وهي، الآن وفي المستقبل من أن نلتقي ثانية أبداً. أرجو من سعادتكم أن تتوسلوا*

إليها، إن كانت تحرص على حياتها وتخاف الله، أن تتحاشى رؤيتي من الآن فصاعداً، وأن تتأكد ألا يرى واحدنا وجه الآخر مرة أخرى أبداً، سواء بالأقنعة أم بدونها. هذا هو كل ما أطلبه. لأنني حسب التوقعات البشرية - وأقول هذا مع احترامي وبدون أي نية للإهانة - سأعيش لمدة أطول من سعادتكم، كما تقتضي الطبيعة والمصير الإنساني، وسرعان ما ستصير جثة سعادتكم النبيلة إلى تراب في مقبرة أسلافكم بينما سنظل أنا وفرانشيسكا في هذا العالم، وما أن تتوفى سعادتكم لن يتبقي أحد لحمايتها، المرأة التي نحبها كلانا، كُلٌ بطريقته الخاصة، طبقاً لاتفاقنا وأقدارنا. لهذا أطلب من سعادتكم إخبار الدوقة التي لن أراسلها ثانية ابداً، أن تتحاشاني كما تتحاشى الطاعون أو الطوفان؛ أن تخافني كما تخاف الإثم والافتراء، عليها أن تتحاشاني حرصاً على ما هو أهم من الحياة، أقصد روحها. لسعادتكم فقط أن تخبروها بهذا. إن عربتي على استعداد، سأكون خارج البلدة خلال ساعة وفي المساء سأمسي خارج نطاق الولاية. ستخبرك دوقة بارما حين تواتيها الفرصة، في لحظة حنان ربما، أو لحظة حميمة مواتية أخرى، بأنني التزمت بشروط اتفاقنا، ليس كما تخيلنا تماماً، ليس كما أفعل عادة، أو كما ظننتني أنت أفعل، لكن النتيجة وحدها هي ما يهم، والنتيجة أنني كنت عند كلمتي وعادت دوقة بارما إلى البيت مع أول ضوء للفجر، معروفة ومعافاة، برأت من شخص كان لها كالطاعون والحمي الصفراء، وأنها من الآن فصاعداً ستبقى بجانب سعادتكم، بدوني، كما هو متوقع، فقط بذكرى زائلة في قلبها عن شخصي الخطير الخبيث. لأن الرغبة والعاطفة اللتين كانتا بيننا قد نفدتا أثناء العرض، والآن أنا من أحمل

كل ما كان محموماً ومصاباً بالعدوى في هذا الحب. وقد صارت دوقة بارما الآن حرة لتهب حياتها لسعادتكم، لتضفي الهدوء على ما تبقي لكم من سنوات». هل كتبت هذا؟ انتظر لعلنا يجب أن نقول ما تبقى لكم من شهور بدلاً من هذا، فذلك أكثر مراعاة للصدق، دوّن هذا بالبي، وأنتِ أيضاً يا صغيرتي، إن علينا أن نخوض معارك الحياة العظيمة بمراعاة الصدق، لأن الأجدر بنا التهذّب ونحن نتصارح مع أنفسنا ومع الآخرين. الآن أين نحن؟... «ما تبقي لكم من شهور. لأنني إن لم ألقى حتفي على الطريق، على يد قاتل مأجور أو في حادثة ـ قلتم لي سعادتكم إن الحياة بأكملها حادثة، بالرغم من عزمي على النجاة منها بيدي وأسناني ـ فسأعيش لمدة أطول من سعادتكم. وسيكون كل يوم أعيشه خطرا يحدق بفرانشيسكا. هذه رسالتي إليها. ما أقوله واضح تماماً. سأغادر البلدة كما اتفقنا، وقد عادت دوقة بارما إلى البيت بعد مغامرتها، نقية كندفة الثلج أو كسحب الربيع الناعمة. لعله حقيقي أيضاً، طبقاً للمعرفة الجديدة، أن اللون الأبيض جامع لكل الألوان الأخرى، من حمرة الدم وحتى سواد الحداد. هذا ما قرأته في كتاب الفيلسوف ولا أقصد سوى نقل المعرفة، مضيفاً فقط أن المغامرة في حد ذاتها كانت نقية كالثلج. أردتم سعادتكم السلامة والشفاء. أردتم فك تعويذة الحب لتعيش فرانشيسكا بجانب زوجها بلا تنغيص، بلا ذاكرة. سيمر هذا وسأواصل طريقي، لا أقول إني راحل بلا ضغينة، ولا كبرياء، أرفع كتفيّ، وأفرك راحتيّ برضا كفنان أنجز عملاً وتنازل عن أجره ولا يطيق الانتظار ليعبر الحدود ويبدأ أعمالاً جديدة، بتقنيات جديدة. وعلى استعداد لإبرام اتفاقات أخرى. لقد

نظرت في قلبي ولا يسعني القول سوى إن الرباط الذي أردنا فكّه بالكلمات والخناجر لهو أقوى الآن مما كان عليه بالأمس، أو مما كان عليه أبداً، أقصد الرباط الذي يوثقني بدوقة بارما. يبدو أن العُقد التي يربطها الرب لا يقوى علي فكها الإنسان مهما كان بارعاً أوعطوفاً أو عنيفاً. ولهذا على سعادتكم أن تنظروا في روح الدوقة وتتأكدوا ألا نلتقي مجدداً أبداً. لقد قالت الدوقة إن النار تخبو وعاجلاً أو آجلاً ستؤول كل العواطف إلى رماد، لكن دعني أخبرك على سبيل الوداع أن ثمة نيران لا تشتعل بشرارة اللحظة ولا باضطرام الحواس، ولا يحمسها الطمع والطموح. لا، ثمة لهب ما يظل بصيصه في الحياة الإنسانية، لهب لا تقوى العادة ولا الضجر على إطفائه، ولا حتى الرضا أو الانغماس في الشهوات، إنه لهب ليس بمقدور العالم إطفاؤه، حقا إننا نحن أنفسنا لا نستطيع ذلك. قبس من النار التي سرقتها يد بشرية من الجنة ذات مرة، ومنذ هذا الحين والمسئولون عن تناوب سرقتها يواجهون غضب الآلهة. هذا هو اللهب الذي سيظل يضطرم في قلبي، دون أدنى رغبة مني في إطفائه، وسأعرف أينما تذهب بي الحياة وأينما قدّمت نفسي أو مارست فني إنه لن ينطفئ وأن حراراته ونوره يملآن حياتي. لم أستطع قول هذا للدوقة، لأنني لم أرغب في نقض العهد. وسألتزم بهذا العهد حرفياً كالتزامي بقواعد فني. لم أقل لها، هي فرانشيسكا، لم أقل «أنا لكِ وحدك، للأبد»، كما يقول العشاق عادة: لقد احتفظت بكلمتي، وأنتم وحدكم من بإمكانكم إخبار دوقة بارما أنه في بعض الأحيان قد يكون الفنان بطلاً بخضوعه لاتفاقات والتزامات دوره، بألا ينطق بالكلمات التي تتحرّق في قلبه وعلى

شفتيه، التي معناها في النهاية، رغم كل شيء، «أنا لكِ وحدك، للأبد». لم أنطق بهذه الكلمات، والآن سيتردد صداها للأبد في روحينا؛ لهذا أبلغكم قبل رحيلي أنني حفظت اتفاقنا بإخلاص، بالحرف. كان العرض ناجحاً سعادتكم، وقد انتهى، ولكن يبقى شيء لن ينتهي أبداً، شيء ما يستحيل إلغاؤه أو تدميره مهما بلغت قوى سعادتكم أو نفوذكم السري ومعرفتكم اللامحدودة وفطنتكم الأدبية، إنه العِلم بأن لا يد بشرية ولا ذكاء بشري بإمكانه إطفاء لهب الجنة المشتعل في القلب البشري. وثمة شيء آخر لم أرد قوله خشية أن أخرق اتفاقنا: إن ثمة تضحية أو تفانٍ في الحب أكثر من الإعلانات أو الاختطافات، أكثر من «أنا لكِ وحدك إلى الأبد» - يجب أن تكتب هذا القول بين قوسي تنصيص على ما أظن - «ثمة لون من الحب لا يعنيه أن يعلن عنه أو أن يجرح، بل أن يُحمى، ولربما حتى أن يُنقذ، وقد يكون هذا الحب هو أصدق ألوان الحب جميعاً، وبالرغم من دهشتي العظيمة لشعوري به، لكنه الشعور الوحيد الذي تثيره بداخلي ذكرى دوقة بارما وستظل تثيره. لأنه لا شيء أسهل من إزالة من تحبه من على وجه الأرض، لا شيء أسهل على ممثل قدير مثلي من ذرف الدموع وقطع الوعود لتنفيذ الإغواء الأخير ثم القفز قفزة هائلة لأنضمّ لدائرة رقص الحوريات وآلهة الحقول والقطعان بناياتهم وقيثاراتهم الريفية. ظني أن بوسعي أن أقول إنني، بلا فخر، أعرف فني، وإنني أديت بما يكفي في حياتي، وبلا شك سأؤدي مجدداً، إن شاءت الحوريات وآلهة المتع. لا شيء أيسر عليّ - ولسعادتكم فقط أن تكرروا هذه الكلمات على مسامع الدوقة، لإنني لم أستطع قول هذا خوفاً من أن تتحول

الكلمات لحقيقة وتؤدي الحقيقة إلى فعل! ـ من أن أخضع لرغباتي؛ وألا أجيب «بكثير جدّاً» أو «قليل جدّاً» على كل ما تعرضه عليّ امرأة عاشقة من أعماق ألمها، وألا يقلقني انتقامها أيضاً، بل أن أقوم بفعل على أساس الرغبة، إذ الفعل رغم كل شيء كان دائماً مبدأ أساسياً في حياتي، فلم يكن أبداً ثمة مسافة بعيدة كتلك بين رغباتي وأفعالي، شكراً للسماء؛» ـ أريد هناك نقطة وفاصلة، رجاءً ـ «وأنا أقول هذا بلا تبجح وبحسن نية. لكنني أعرف شيئاً لم تعرفه بعد الطفلة المريضة بالحب، دوقة بارما: أنا أعرف من أنا، أنا على علم بمهمتي الأرضية، دوري، ومقدوري، وأعرف أيضاً أن اللهب الذي يُبقي على حياتي ويمنحني القوة هو الموت لهؤلاء الذين يلمسونه بلامبالاة. لم يكن أيسر عليّ من قبول هديتها، تبادل الجسد بالجسد، والروح بالروح، وامتلاك روح واحدة في النهاية. أُكتب هذا بحروف بارزة ـ روح واحدة ملكي حقاً. وثمة شيء آخر أعرفه لم تعرفه دوقة بارما بعد: أن الحقيقة لا تستطيع البقاء ما لم تسدل الرغبة والشوق الخفيان ستائرهما حولها وتحجباها. لهذا لم أرفع الحجاب لأغمر وجه الواقع الغامض بضوء الحقيقة. وعليّ الآن أن أعود إلى واقعي الخاص، بألوانه الكثيرة، الذي اعتدت مذاقه وروائحه لحد أنني أجدها مريرة أحياناً، ولم أعد أتوقع معجزات أو خلاصاً. دعنا نذهب في سلام، سعادتكم! نحن فانون، وهذه المنزلة تفرض علينا التزامات: أن نعرف قلوبنا وأقدارنا. هذه ليست مهمة سهلة. ثمة دواءان إلهيّان فقط يُعيننا على تحمل سُمّ الواقع ويمنعانه من قصف عمرنا، وهما الذكاء واللامبالاة. نحن الاثنان رجال: نحن نعلم هذا السر، لقد تصادمنا مع الواقع وواجهنا حقيقتينا؛ نحن نفهم هذا.

لكن ليس لقلب صغير مكلوم ينبض بشراسة أن يفهمه. لهذا علينا أن نتحمل بصمت اتهاماتها وانتقامها الذي سيلاحقنا أينما ذهبنا. وأنا أتوسل إليها مرة أخرى قبل أن أذهب لأختفي في الضباب الذي يلفّ الدروب الجبلية، أتلاشى في المدن، في الزمن، كما تحتم عليّ أقداري، التي أعتبرها أقداري حقاً، أن تتحاشاني بأي ثمن. عليها أن تتحاشاني إن أرادت الحفاظ على روحها. لأن الطيبة، والخبرة، والمهارة، والشفقة، ليست سوى سبل لتهذيب القلب من حين لآخر، لكن ثمة شيء ما أسفل نوايانا يوجه خطواتنا، شئ ما ملحّ ليس لنا مخالفة قوته السحرية من دون عقوبة. أتمنى لسعادتكم شهور من السعادة! أرجو ألا يكون قد خاب ظن أحدنا بالآخر، وبعد وقت قصير حين تذوي العواطف بطريقة ما وتمسّد راحة النسيان الإعجازية على القلب الصغير العزيز عند كل منا، ويذكر اسمي على حين غرة في محادثة رقيقة بينكما، قل لها إنني حملت معي السيف، الذي أعطتنيه مقابل خنجري، إلى العالم، وإنني أمسكه جيداً. وإنني لن أجلب له العار. قل لها هذا لتطمئن. قد أضطر لغرسه في قلب أو اثنين، لكن قل لها ألا تخاف شيئاً، لأن يدي حينها ستكون باردة وواثقة، لأن هذه اليد، التي تزدريها الآن، لم ترتعش سوى مرة واحدة طوال هذه السنوات، المرة الوحيدة التي منعتها فيها الطيبة والبصيرة والشفقة، حين لم أمد يدي لأمسك بها، هي التي كانت حقيقتي. وحين تبحثون سعادتكم عن كلمات أخيرة وأنتم على فراش الموت، قولوا الكلمات التي تميّز وداعكم ببساطة، الكلمات التي تبقي حتى الآن رسالتي المسكوت عنها: «أنا لكِ وحدكِ إلى الأبد».

لفظ الكلمات الأخيرة بهدوء وبطء في أذن الفتاة، بوضوح يكفي ليسمع بالبي أيضاً. ثم نهض واقفاً ورفع ذراعيه عالياً في الهواء بعد أن وضع الفتاة على الأرض بلامبالاة كمن يضع جمادا. نظر حوله بشرود، أخذ السيف من على الطاولة، وعلّقه في حزامه. ووجه أمره إلى بالبي:

ـ «قم الآن بعمل نسخة نظيفة!» ثم توجه صوب النافذة، أزال الستائر، وزمجر في ضوء الصبح بصوت قاسٍ وآمر: «احضروا الخيل!»

لف طرفي العباءة على كتفيه وخرج من الباب بخطى واسعة. تردد صدى وقع خطواته في بئر السلم. كان الفناء بالأسفل يضج بالنشاط: صهيل الخيل، رنين زجاجات الماء، وقعقعة عجلات العربة. تبعته الفتاة بخطوات بطيئة، ومازالت تحمل كسرات الزجاج في مريلتها، ثم انطلقت تعدو خارج الحجرة، هبطت السلم خلف القامة الراحلة كمن تذكرت شيئا ما. لم يبق في الغرفة الآن سوى الراهب. جلس يكتب ببطء وانتباه شديدين، بحاجبين مقطبين وشفتين مزمومتين، ينطق نهاية الخطاب حرفاً بعد حرف: «أنا لكِ و ـ ح ـ د ـ ك إ ـ ل ـ ى ا ـ ل ـ أ ـ ب ـ د!» ثم ترك الريشة من يده واستند بظهره على المقعد، معجباً بعمله، وبكرش مهتزة انفجر في نوبة ضحك عال آلمت خاصرتيه.

ebooks4arabs.blogspot.com

إيمان حرز الله

مترجمة مصرية من مواليد ١٩٧٩ تخرجت في كلية الآداب بجامعة القاهرة قسم الأدب الإنكليزي عام ٢٠٠٠ وسبق لها الترجمات التالية:

- كافكا على الشاطئ لهاروكي موراكامي
- الظلال المحترقة لكاملة شمسي
- نهاية السيد واي لسكارليت توماس
- موت إيفان الييتش لليو تولستوي

كازانوڤا في بولزانو

تصميم الغلاف كريم آدم

عمل فني رائع آخر يعاد اكتشافه لكاتب "جمرات". رواية حسية ومثيرة وحكيمة عن أشهر مغوي فاسد في العالم والمواجهة التي غيرته إلى الأبد. هرب جياكومو كازانوفا عام ١٧٥٦ من سجن في البندقية قيل إنه لا سبيل للهروب منه، وعاود الظهور مرة أخرى في قرية إيطالية صغيرة تسمى بولزانو، حيث استقبل زائراً غير مرغوب فيه. إنه دوق بارما العجوز لكنه مايزال مرعباً، هزم كازانوفا منذ سنوات في مبارزة على فتاة فاتنة تسمى فرانشيسكا، ولم يقتله بشرط ألا يراها مرة أخرى أبداً. والآن وقد تزوج الدوق فرانشيسكا، وأمسك بالصدفة برسالة غرامية منها إلى غريمه القديم، بوسعه أن يقتل كازانوفا على الفور، لكنه يعرض عليه اتفاقاً بدلاً من ذلك. اتفاق منطقي ومنحرف ولا سبيل لمقاومته.

محولا حدثاً تاريخياً إلى استكشاف روائي مذهل لعناق الرغبة والموت، أثبت ساندور ماراي بكازانوفا في بولزانو إنه أحد الأصوات المميزة في القرن العشرين.

"ذكية ومثيرة للتأمل.. طعنات بمتع حياتية عميقة."

فوج

"متألقة... مبارزة شائكة بين أذهان حادة... تعتبر كازانوفا في بولزانو دليلا حياً على إهمالنا ألمعية ساندور ماراي أثناء حياته."

شيكاغو تريبيون .

"قصة فاتنة عن الحب والصداقة والخيانة.. غنية، مغوية، عاطفية، ساخرة"

مجلة إل Elle

ISBN 978-9953-582-63-4
9 789953 582634
التنوير
بيروت - القاهرة - تونس
www.dar-altanweer.com